

النوخذة

عبد الوهاب عبدالعزيز العثمان

ريادة عائلة ... وتميز إنسان

د. عبدالمحسن عبدالله الخرافي

النوخذة

عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

ريادة عائلة وتميز انسان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح المرحوم عبدالعزيز بن عثمان

الذي تمحور حولها هذا الكتاب

وإلى روح النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

صديق البحر . . . وفارس أمواجه

وإلى كافة نواخذة السفر الشراعي في تاريخ الكويت

الذين صنعوا جزءاً مهماً من هذا التاريخ . . .

وإلى البحارة الكويتيين الذين لولا الله ثم لولاهم

لما صنع النواخذة ما صنعوا من تاريخ الكويت . . .

وإلى الأجيال الصاعدة في بلدنا الحبيب الكويت

تعلم ماضيها . . . فتستشرف مستقبلها

نهدي هذا الكتاب

فهرس المحتويات

إهداء

تصدير

أسباب النجاح

سدير

جنوبية سدير (الجنوبية)

بين نجد والكويت

فريج (حيّ) العثمان

نقعة العثمان

مسجد العثمان

المكتب التجاري

بيان الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في رثاء عن ابنه المرحوم عثمان عبدالوهاب العثمان

السيرة الشخصية للنوخذة عبدالوهاب بن عبدالعزيز العثمان

نشأته

تعليمه

زواجه

صفاته الشخصية

حرفته

معلموه

الشيخ يوسف بن حمود

الملا سعد بن شرهان

السيد هاشم الحنيان

رحلاته

بضاعة فريدة

رعاية الله له

حرصه على السبق والريادة

تميزه ومهارته (يجده ... أبو الأربع قلايط)

تيسير

تاريخ الصناعة

التدشين

مواصفات السفينة

رحلات تيسير

نهاية تيسير

المرجعية البحرية

تواضعه

فزعته

معرفته بالرجال

شفافيته وفراسته العجيبة

النوخذة الكبير يلقي مرساته

إحسانه وأعماله الخيرية

عمارة المساجد

أولاً: داخل الكويت

مسجد عبدالعزيز العثمان

مسجد عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

مسجد المرحومة بيبي عبدالعزيز الرشيد البدر

مسجد المرحومة موزي عبداللطيف سليمان العثمان

ثانياً: خارج الكويت

مسجد التقوى في مسقط بسلطنة عمان

مسجد سيفة الشيخ بسلطنة عمان

مسجد المرحومة شيخة سالم السبيعي في السودان

بناء المدارس

إطعام الطعام

إقراء القرآن

كرمه وسخاؤه

الثالث الخيري
دوره الوطني
مجلس الأوقاف

وفاته

المراجع

تصدير

يشرفني طلب الإخوة الأفاضل أبناء وأحفاد المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان لأن أوثق لحياة والدهم ولأسرتهم الكريمة، فلم يوافق هذا الطلب الكريم لدي استجابة فورية فحسب، بل وجد لدي تفاعلاً كبيراً مع تاريخ أسرة كريمة وشخصية عاطرة مثل شخصية المرحوم النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، وقد انتقى هذا التفاعل ما طاب له من وقتي عن رضى مني وطيب نفس، خصوصاً عند هجيع الليل وساعات الصباح الباكر حين تحلو الكتابة ويروق التفكير.

وقد كانت نواة هذا التعاون من خلال طلبي لهم بتزويدي بما لديهم من معلومات متاحة حول شخصية والدهم المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان لكي ندرجها ضمن سلسلة "محسون من بلدي" التي كلفني بيت الزكاة الموقر - وشرفني في الوقت نفسه - بالإشراف العام على إصدارها ومراجعتها الدقيقة والقيام بالمهام الإستشارية بشأنها.

ولقد وجدت نفسي أمام كتابين لا كتاب واحد، الأول هو الكتاب المطلوب عن النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، والثاني: يلقي الضوء على مدرسة العثمان البحرية في مجال السفر الشراعي في الكويت، ويشمل الحديث عن سائر نواخذة العثمان من سابقي المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان ومعاصريه ولاحقيه.

ومن الواضح الجلي أن الكتاب الأول جزء من الثاني، ولكنني حرصت على تمييزه بإصدار مستقل بسبب توافر مادة متميزة عن النوخذة عبدالوهاب العثمان بشكل أكبر بكثير من المواد المتوافرة عن بقية النواخذة من أسرة العثمان الكريمة، لكونه قد أعطى المعلومات التفصيلية عن حياته البحرية قبل وفاته عام ١٩٨٧م من جهة، ولكوننا أدركنا أحد أبرز تلاميذه النوخذة القدير عبدالله إبراهيم إسماعيل فحدثنا عنه بتفصيل أكثر.

ولئن كان حديثي عن توثيق هذين الكتابين مجروحاً، إلا أنني أعتقد جازماً - وبلا مبالغة في الوصف - أنه يمكن اعتباره إضافة مهمة إلى المكتبة الكويتية والعربية، حيث أنه يوثق لمادة جديدة في طريقة عرضها وتجميعها من صدور الرجال وبطون الكتب المتفرقة، كما أنه يقدم نموذجاً جديداً للتوثيق العائلي، الذي يمكن أن يفتح باباً جيداً للعائلات الأخرى غير عائلة العثمان، والتي كانت لها انجازات يشار إليها بالبنان وكان لها دورها في رسم معالم التاريخ الكويتي القديم والحديث.

إن في هذا الكتاب مجال جيد لإبراز الأسوات الحسنة في المجتمع الكويتي عامة، ولدى الجيل الجديد من أسرة العثمان خاصة، لكي يستمروا في تكملة المسيرة الطيبة التي بدأها آباؤهم وأجدادهم من خلال دورهم الإيجابي في تاريخ الكويت.

وبالمقابل كم لمست شغفاً كبيراً لدى الأجيال المتقدمة من أبناء المجتمع الكويتي لما تجد فيه ذاتها وتعيش من خلاله ماضيها الجميل المليء بالبساطة والإنجاز في آن معاً، فألفيتهم يعشقون كل برنامج أو إصدار يوثق لتلك المرحلة، وبذلك يكونوا أيضاً شريحة مستهدفة لتأليف مثل هذا الكتاب. أما الوفاء لأجيال الأمس فهو بالنسبة لي حافز مهم من وراء تأليف هذا الكتاب، وهو معنى جميل وقيمة سامية هي مدار جميع أعمال التوثيق المطبوعة والمذاعة.

ويكون الوفاء أجمل وله نشوة خاصة حين أوثق لجموع من الرعيل الأول لم يتسنَّ لي الإلتقاء بهم لرحيلهم عن دنيانا الفانية، غير أنني لمست بجلاء آثار أعمالهم ونتاج شخوصهم، حيث كنا اليوم استمراراً لهم بالأمس، فنشأت محبتهم لدي دون مصلحة ولا منفعة سوى الإعتراف بالفضل لأهله.

ويأتي المرحوم عبدالوهاب العثمان أحد هؤلاء الذين لم ألتقيهم مباشرة إلا إن شخصياتهم المؤثرة تفرض علي الكتابة عنها من واقع الخير الذي صنعته والإرث الحضاري الذي تركته.

هذا وقد كُتِبَ كثير عن النوخدة عبدالوهاب العثمان في عدة كتب تراثية ومقالات صحفية، وأذيع عنه الكثير في المقابلات التلفزيونية والحلقات الإذاعية، ولكن ذلك لم يفِ الرجل حقه، ومازالت هناك جوانب كثيرة من حياته لابد من كشفها وإلقاء الضوء عليها وتجميعها من الشتات إلى الإصدار في مؤلف واحد.

لقد حرص أبناء المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان على توثيق سيرة والدهم الكريم، تخليداً لذكراه وتسجيلاً للأحداث التاريخية التي مر بها منذ ولادته ﷺ بعد أداء مناسك العمرة ودفن بمقبرة البقيع عام ١٩٨٧م. وفي ذلك يقول أبناء المرحوم عبدالوهاب العثمان: "لقد كنا مقصرين - بدون شك - في تسجيل هذه الأحداث في وقتها حتى طوى النسيان بعضها، ولم نهتم بالتصوير الذي يقرب صفحات التاريخ لأجيالنا وللباحثين في هذا المجال.

لذلك رأينا أن نسارع بتسجيل الأمور التي مازالت عالقة بالذاكرة قبل أن يكون مآلها النسيان أيضاً، وكذلك بجمع الصور التي تتمحور حول حياته وأعماله.

هذا وإن كنا نحن قد قصرنا في هذا الواجب فإننا نرى أن كثيرين غيرنا مازالوا يختزنون كنوز المعرفة عن أجدادهم في ذاكرتهم دون تسجيل والتي مآلها دون شك النسيان.

ولعلنا في حرصنا على مثل هذا التوثيق نكون قدوة لغيرنا ودافعاً لهم للإسراع بتدوين هذه المعلومات التي هي جزء لا يتجزأ من تاريخ الكويت وتراثها. لذلك نتمنى أن يكتب الجميع عن ماضيهم في مناطق القبلة والشرق والمرقاب، فضلاً عن القرى المحيطة بالكويت. لذلك فقد وفرنا للمؤلف كل ما تيسر لنا من معلومات عن فريخ العثمان ونقعة العثمان ومسجد عبدالعزيز بن عثمان ومكتب العائلة التجاري، وخاصة أن هذه الأماكن قد طوي عليها الزمن ودكتها آلات الهدم التي عملت دون كلل تنفيذاً لسياسة التثمين التي بدأت مع بداية الخمسينيات من القرن العشرين، دون مراعاة للقيمة التاريخية لهذه الأماكن. فإذا كان فريجتنا ونقعتنا ومدرستنا التي درسنا بها قد هدمت فلا أقل من أن نبنيها مرة أخرى بتوثيقها.

وإننا بدون شك سوف نرى مدينة الكويت القديمة داخل السور قد بنيت مرة أخرى على الورق - على الأقل - إلى أن يأتي من يهتم بها ويعيد إنشائها مرة أخرى، كما تفعل كثير من الدول المتحضرة التي توظف مراكز الأبحاث فيها بحثاً عن أي معلومة صغيرة تهتم تاريخها وتاريخ شعبها، ولعل الاحتلال العراقي الغاشم لدولتنا الحبيبة قد بين لنا أهمية هذا التاريخ وأهمية التمسك به لإثبات هويتنا المستقلة.

وكم كنا نتمنى أن نوثق عن جدنا الأكبر وعميد العائلة الأول عبدالعزيز بن عثمان، ولكن المعلومات عن هذا الرجل العصامي قليلة جداً، وقد قمنا بجمع بعضها من الكويت ومن أقربائنا في نجد في المملكة العربية السعودية الشقيقة. ولحسن الحظ كان لهم نفس الاهتمام، ولقد زدونا مشكورين بالمعلومات المتوفرة لديهم.

وبهذا الصدد فإننا نشكر على وجه الخصوص المؤرخ الباحث الأستاذ عبدالعزيز إبراهيم الناصر الإبراهيم الذي ساعدنا كثيراً في معرفة الجد السابع لعبد العزيز بن عثمان والتعرف على أقرباء عائلة العثمان في موطنهم الأصلي في سدير بمنطقة نجد بالمملكة العربية السعودية، كما نشكر السيد الفاضل سليمان العلى الزامل - رحمه الله - الذي تكرم بمرافقتنا لزيارة بيت جدنا الأول في المنطقة الجنوبية بسدير، والتقط عدة صور زدونا مؤلف الكتاب بأحدها. ونشكر كذلك ابنه السيد علي الزامل الذي قام بإرسال بعض الصور للمنطقة الجنوبية في سدير، وقد زدونا المؤلف أيضاً بأحدها، وكذلك السيد محمد الزامل - رحمه الله - أمير مدينة سدير الذي رحب بنا واستضافنا هناك وقدم لنا بعض المعلومات.

والشكر كل الشكر للنوخذة عبدالله إبراهيم إسماعيل الذي استقبلنا بكل رحابة صدر رغم مرضه، وزودنا بمعلومات قيمة حول عمله كنوخذة مع والدنا وغيره من نواخذة البحر، وكذلك تزويده للمؤلف بمعلومات قيمة جداً عن المرحوم عبدالوهاب العثمان والذي أوردنا مشكوراً في ثنايا كتابه القيم.

هذا وما كان هذا العمل ليرى النور لولا تكريم الباحث الأخ الدكتور عبدالمحسن عبدالله الخرافي بتبني هذا المشروع والكتابة فيما كان بالأمس حلاً لنا حتى أصبح اليوم حقيقة ملموسة، وهو إخراج هذا الكتاب المتكامل إلى النور، فله منا كل الشكر والتقدير. والله ولي التوفيق" - انتهى.

ولعلي أفضل أن أختتم سريعاً هذا التقديم المتواضع المشفوع بكلمة أبناء المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان، لكي لا أطيل على القارئ الكريم قبل الدخول في موضوع الكتابة تاركاً له المجال ليعيش لحظات أحسبها لطيفة مع السير العطرة والحقائق القيمة الواردة في هذا الكتاب.

ولكني إن فعلت فليس قبل أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إصدار هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال، ولذلك فإنني أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الإمتنان لكل من:

- الأخوين الفاضلين محمد عبدالوهاب العثمان وصلاح عثمان عبدالوهاب العثمان على تزويدهم لي بما استطاعا من معلومات وصور ووثائق تدعم المادة المطلوبة لتأليف مثل هذا الكتاب.

- العم عبدالله محمد سليمان العثمان الذي وجدت فيه خير مصدر للمعلومات لكل ما استشكل علي من تاريخ العائلة.

- الأخ الفاضل الأستاذ محمود عبدالرازق العدوي المشرف التنفيذي على طباعة هذا الكتاب في جميع مراحل الصف والإخراج والطباعة.

- وزارة الإعلام الموقرة المتمثلة في مطبعتها للقيام بطباعة هذا الكتاب.

والله أسأل الإخلاص في القول والعمل، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم خالياً - قدر الإمكان - من الزلل، وأن يجزييني سبحانه وتعالى الأجرين: أجر العمل، وأجر الصواب فيه.

فهو الموفق إلى كل خير، وهو الهادي إلى سواء السبيل

المؤلف

د. عبدالمحسن عبدالله الخرافي

تاريخ من صنع التاريخ

يحق لكل من وضع لبنة في بنيان التاريخ أن يسجل اسمه ضمن الكبار الذين شادوا أكبر عمران عرفته البشرية.

إنه بنيان قد بدأ متواضعاً، لكنه لا يزال يكبر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يرقى -حين يرقى- بمن يعيش على هامش التاريخ لا شأن له ولا أثر، بل يرقى ويكبر ارتفاعاً ويمتد اتساعاً بمن كان له في الحياة صنيع يذكر.

دعنا نسلط الضوء على بقعة من الأرض مجدية، هي امتداد لصحراء قاحلة تكاد تستغرق أنحاء شبه الجزيرة العربية، لا أنهار فيها ولا خضرة لطلالما كانت بيئة طاردة شهدت هجرات وحركات نزوح كثيرة سطرها التاريخ لقبائل العرب إلى بلاد وجدوا فيها المياه والغطاء الأخضر، وهم في هجرتهم هذه معذورون.

غير أن فئة من الناس ومن تلك القبائل قد قبلت التحدي، فتعاملت مع هذه الظروف القاسية بعزائم قوية، وهم نافذة، وتفاعل مع الإمكانيات شبه المعدومة؛ لتحويلها إلى واحة أمان وإن لم تكن واحة خضراء كما العادة في التعريف الجغرافي.

لقد كانت كذلك حين بادر أهلها الكويتيون في تغيير ملامح البيئة المحيطة بهم وهي بيئة صحراوية يغلب عليها الرعي براً والصيد بحراً في مواردها الطبيعية الأساسية، فحين كان برهم مجدباً مقفراً، تجاوزوا محنته فعبروا إلى البحر في اتجاهين:

الأول:

اتجاه رأسي حين سبروا أغواره وانتزعوا اللؤلؤ من أصداف محاره الغائرة تحت سطحه بمسافة كبيرة. وقد مثل الغوص على اللؤلؤ نموذجاً شاخصاً للسعي في كسب الرزق الذي أوجده الله تعالى في موارده على سطح الأرض وباطنها، أما في البحر ففي باطنه فقط، فغاصوا به واستخرجوا اللؤلؤ ليبيعه إلى حواضر العالم الشرقي في ذلك الزمان، بل وصلوا إلى حواضر العالم الغربي كذلك^(١) ليبيعه هناك.

(١) باع الكويتيون (الطوايش - جمع طواش) اللؤلؤ إلى تجار الهند شرقاً وباريس غرباً. انظر كتاب تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي - الجزء الثاني - سيف مرزوق الشملان - الطبعة الثانية - ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع - الكويت ١٩٨٩م.

الثاني:

اتجاه أفقي حين عبروا الخليج العربي وبحر العرب ومنهما إلى المحيط الهندي، فنقلوا تمور شط العرب بسفنهم الخشبية البسيطة ذات الأشرعة القماشية المتواضعة إلى أقاصي الأرض بالنسبة لهم في ذلك الوقت في رحلات خطيرة ركبوا فيها عباب البحر وقبلوا التحدي لمواجهة ولكن في حذر من أهواله، ودراسة جيدة لمواقيت هيجانه وسكونه.

والمتأمل في رواد الاتجاهين قد يظن أن البيئة المحيطة بهم كانت مليئة بالأخشاب التي صنعوا منها تلك السفن بأنواعها للغوص والسفر، لكنه يستشعر عظم التحدي حين لا يري ما يكاد يبين من أشجار ضخمة أو متوسطة الحجم، فضلاً عن غطاء أخضر يذكر.

لقد حمل هؤلاء الأخشاب على ظهور السفن واستجلبوها إلى السيف^(١) وشادوا على جانبه العمارات^(٢) ليبنوا سفنهم على أيدي الأساتذة المحليين. وعن طريق ذلك أحالوا تلك البقعة المجذبة إلى رئة يتنفس بها أهل الجزيرة العربية عامة وإقليم نجد خاصة. ولقد عكس ذلك كله السبب الحقيقي لاستقرار أهل الكويت فيها فلم ينزح منهم أحد عنها. أما الماء وهو عصب الحياة فاستجلبوه أيضاً بسفنهم من شط العرب وبذلك ملؤوا الفراغ الكبير في تدني المستوى المعيشي في أرضهم الطيبة قبل ظهور النفط.

ألا يشكل ذلك كله تحدياً لمقومات الحياة وقبولاً بل تفاعلاً إيجابياً مع قضاء الله وقدره؟، ألا يمثل ذلك كله الفهم الحقيقي العفوي لمفهوم التوكل على الله تعالى والمقترن بالأخذ بالأسباب والسعي إلى الرزق الحلال ولو من بين أنياب السباع؟ وبالتالي الهروب من قدر الله تعالى إلى قدر الله، والانتقال من الواقع الضيق الذي قدره الله تعالى إلى الواقع الفسيح الذي قدره الله تعالى أيضاً للمجتهدين من عباده غير المستسلمين للظروف بل الذين يصنعون الظروف بقدر ما استطاعوا.

وهنا نقول - عوداً على بدء - إنهم صنعوا جزءاً مهماً من تاريخ الكويت والجزيرة العربية، ولولا فضل الله تعالى - بأن سخر لهم البحر ليأكلوا منه ويركبوه - لما تيسرت لهم مقومات الحياة، ولولا إصرارهم وإيمانهم لما استقر الكويتيون في أرض الكويت، ولما كانت الكويت أصلاً، ولما كان لنا أن نكتب أونقرأ هذه السطور.

(١) السيف: شاطئ البحر.

(٢) العمارة: محل بيع الأخشاب ولوزام صنع السفن الخشبية.

النواخذة ... من المنظر الوطني

إن المتأمل في تاريخ هؤلاء وإنجازاتهم في مجال ارتياد البحر، لابد أن تكون له وقفات وطنية جديرة بالبيان.

الوقفه الأولى:

عجباً لأمر الخليجيين عامة والكويتيين خاصة الذين ارتادوا البحر وأبدعوا فيه رغم أن طبيعة بلادهم صحراوية تكاد تكون قاحلة جرداء، فمن أين لهم بالأخشاب ليصنعوا منها السفن الكبيرة، كالشوعي، والبوم، والجالبوت، والسنبوك، والبتيل، والبغلة، والبقرة حتى بلغت المئات من السفن بأنواعها! كيف أحضروها ليصنعوا منها السفن في الكويت أمام عماراتهم على ساحل الخليج؟!!

إنها الإرادة الكبيرة والهمة العالية، وهذه هي عزيمة الإنسان الذي سخر الله له الأرض وما عليها من دواب وجماد، سخرها له ليعمر الأرض ويكون خليفة الله فيها، كيف لا وقد ارتاد الإنسان الفضاء عندما تقدم العلم والتكنولوجيا؟

لقد صنع الكويتيون هذه السفن وعلى رأسها أكبرها البوم السفار الذي حمل علم الكويت خفاقاً في موانئ العالم الشرقي والغربي من آسيا إلى إفريقيا مما يدل على استقلالية الكويت عن أي بلد خارجي.

الوقفه الثانية:

من الذي أوصل العراق بالعالم الخارجي من ناحية تجارة التمور؟ من الذي حمل آلاف الأطنان من التمور من شط العرب ليقوم بتسويقها في الهند وإفريقيا واليمن وعدن وعمان وسواحل الخليج سواء في رحلات السفر أو رحلات القطاعة؟ بل أين هي حضارة الستة آلاف سنة من الحركة البحرية التي يدعي بشأنها النظام العراقي عدم وجود منافذ بحرية له على الخليج العربي والبحر بشكل عام؟

لقد أبانت الحقائق كلها - بما لا يقبل الشك - حقيقة دامغة؛ أنه كان ولا يزال يمتلك ما يزيد على السبعين كيلو متراً على البحر - وهو الخليج العربي - ولديه أكثر من سبعة موانئ بحرية، ولكن العجيب أنه منذ القدم لم يكن للعراقيين من النشاط البحري ما يمكنهم من تسويق تمورهم، فقام الكويتيون بذلك، حيث كانت تخرج سفنهم خالية من الكويت لكي تحمل التمور من شط العرب ثم تتوجه بها مباشرة إلى موانئ الهند أو إفريقيا الشرقية أو سواحل اليمن

وعمان أو الخليج عموماً، فتبعتها هناك وتحمل مكانها الأرز والشاي والتوابل والسكر وجوز الهند، وغيرها بالإضافة إلى جميع أنواع الأخشاب التي تستخدم في عمارة البيوت من جهة، وفي بناء السفن من جهة أخرى. ولقد كان الكويتيون يمارسون عملهم هذا بكل استقلالية عن العراق، فهم يدخلون موانئها كأجانب يحملون العلم الكويتي، ويقدمون إثبات هويتهم من خلال "القول"^(١) الذي يحمل تصريح السفينة وإثبات ملكيتها باسم حاكم الكويت، مع "المينافيسيت" الذي يحمل أسماء البحارة، وقائمة محتويات السفينة من بضاعة وتسمى "النؤل"، وقد كانت السلطات العراقية تأخذ الرسوم الجمركية منهم وتسمى "المطرحانية" وتؤخذ بموجب عدد الأطنان التي تحملها السفينة، بل كانت السفينة إذا تأخرت هناك عن المدة المقررة تأخذ عليها سلطات الميناء غرامة.

فكيف بعد هذا كله ومنذ عشرات السنين يدّعي رأس النظام العراقي تبعية الكويت للعراق زوراً وبهتاناً وافتراءً على الناس والتاريخ والمنطق؟

ولينظر القاريء الكريم - إن شاء - ما كتبه الرحالة روبرت جيران لاندن^(٢) بشأن استقلالية الكويت بل وإزدهارها حيث يقول: "وفيما يتعلق بالكويت التي كانت المنفذ إلى قلب الجزيرة العربية وآسيا الوسطى فقد غدت في سنة ١٩٠٠م الفردوس الجديد لما تبقى من خطوط الملاحة البعيدة المدى للأساطيل الشراعية المحلية، غير أن البواخر لم تكن ترسو فيها إلا نادراً".

الوقفه الثالثة:

وفيها أحد أهم أسرار النجاح في السفر الشراعي وكذلك الغوص على اللؤلؤ. لقد وفق الله تعالى الكويتيين لارتياح البحر سرفاً أو غوصاً... من خلال عوامل عدة... على رأسها عامل مهم لم يلتفت إليه الكثيرون... ألا وهو نفسية البحار الكويتي الذي لولا توفيق الله إياه لما كان النوخذة، ولا كانت رحلة السفر أو رحلة الغوص.

لقد كان النوخذة يصدر الأمر - وإصداره سهل يسير - ولكن من الذي يهبُّ للتنفيذ دون كلل أو ملل؟ من الذين يتعاونون بكل روح طيبة وهمة عالية؟ يجيب عن هذا التساؤل النوخذة عيسى عبدالله العثمان قائلاً: إنهم البحرية (أي البحارة) وهم العزوة، فهم لنا خير عزوة... بارك الله لهم وفيهم وجزاهم عنا وعن الكويت كل خير.. فلولاهم - بعد توفيق الله - ما نجحت سفراتنا، وهم مخلصون أوفياء لم تحدث منهم أي شائنة، ولا شانت نفوسهم علينا أو على بعضهم، ولا صدرت منهم كلمة قاصرة أبداً، تجدهم يؤثرن بعضهم ولو كان بهم خصاصة، فإذا حان وقت الصلاة توجهوا إلى الله متوكلين عليه تاركين الدنيا خلف ظهورهم، وقد استودعوا الله أهلهم وبيوتهم وأولادهم، والله لا تضيع ودائعه".

(١) تلفظ القاف هنا جيماً مصرية.

(٢) عمان منذ ١٨٦٥م مسيراً ومصييراً - الطبعة الخامسة - ١٩٩٤م - ص ١١٤.

ورغم كل المغريات والخيرات في البلاد المحيطة بهذه الطواقم البحرية كالعراق وإيران واليمن والهند وغيرها من البلاد - والتي كانت فيها الأنهار والمياه والزراعة والخير العميم والرزق الوفير والمال الكثير - إلا أننا لم نسمع أن أحدهم قد ترك بلده، بل ظل بها وفيًا لأهله ووطنه متحملاً الصعاب وشظف العيش، وقد كان يسافر أحدهم إلى البحر أشهر عديدة يعود بعدها إلى الكويت ليقضي فيها عشرين يوماً على الأكثر ليستلمه نوحدة الغوص، وهكذا يظل بعيداً عن أهله أغلب أيام العام، وقد استودع الله دينه وأمانته وخواتيم عمله واستأمنه أهله وبيته وماله وعياله متمثلاً قول الله تعالى: "... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (١).

الوقفه الرابعة:

وعجب كل العجب من أهل الكويت الذين كانت لديهم إرادة التحدي! أي بلدٍ هذا الذي يعيش كله وتدب الحياة بأوصاله دون ماء يتدفق من أراضيهِ؟ ولا محطات تحلية لماء البحر، حيث لا بترول ولا كهرباء؟

لقد وصل الكويتيون بسفنهم إلى شط العرب ليحضروا الماء إلى الكويت ثم يوزعوه على الكندر^(٢) والدواب إلى البيوت بيتاً بيتاً فيرتوي الناس ويطعمون ويأكلون ويشربون. عجباً لهذه الإرادة التي هم معذورون منها.. فلو نزحوا إلى الماء كما نزحت قبائل بأسرها وشعوب بأكملها طوال العصور على امتداد التاريخ لما عتب عليهم التاريخ، فهي سنة كونية وحركة مشروعة طلباً للرزق والكأ أو مقومات الحياة في غياب البترول، ولكنهم جلبوا أهم مقومات الحياة وهو الماء من مسافات بعيدة.

الوقفه الخامسة:

لن يفهم أحدٌ قولاً للمولى عز وجل في كتابه الكريم - كما ينبغي الفهم - ويحسه - كما يجب الإحساس - إلا من عايش هذا القول وأحسَّ بنفسه، وهو ما يحصل مع النوحدة والبحارة على ظهر السفينة حين تشتد الأزمات وتضربهم الأعاصير ويهاجمهم الطوفان، ومن ذلك قول الله

(١) الطلاق - (٢،٣).

(٢) الكندري: هو الشخص المتخصص بنقل الماء على ظهره من السفن إلى البيوت، باستخدام عصا خشبية تتدلى من طرفيها صفيحتان معدنيتان مليئتان بالماء، وجمعها كندر.

تعالى في سورة النور: "أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَبِجٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ"^(١).

نعم عاش البحارة الكويتيون والخليجيون هذه الآية الكريمة فعلاً، حين كانت تدلهم على أحدهم خطوب البحر وصروف أعاصيره، فلا يكاد يرى يده ولو كان في وضوح النهار حيث تغيب الشمس وراء الغيوم المتلبدة والأمطار المتركمة، والأمواج المتلاطمة... وكم ابتلعت هذه الأمواج من رجالات؟ وهذه طبعة النوخذة بلال الصقر خير شاهد، وطبعة عبدالكريم ولد غيث تنطق، وطبعة بهمن تتكلم، وطبعة بوقماز تتحدث، وضربة الغواصة لابن جارالله في عرض المحيط الهندي بالغبّة^(٢) تنبئ بالخطر البشري، فضلاً عن الأخطار الطبيعية، وصدق أجدادنا حين وصفوا البحر قائلين "داخله مفقود وطالعه مالود" أي مولود.

الوقفه السادسة:

لقد اعتمدت الكويت بشكل أساسي في حركتها التجارية على نواخذة السفر الشراعي - فضلاً عن نواخذة الغوص على اللؤلؤ - حيث كانوا هم الذين يشكلون القصبه الهوائية الموصلة إلى الرئتين اللتين كانت تنفس بهما الكويت، ألا وهما حركتي السفر الشراعي والغوص على اللؤلؤ. وقد كانوا سر نجاح التجارة الكويتية بما حققوه من قيادة حكيمة للسفن الشراعية التي كانت تمثل الأداة الوحيدة المتيسرة في ذلك الوقت لنقل البضائع من الكويت وإليها.

كما كانوا الداعمين الرئيسيين لمصروفات الحكومة الكويتية في شؤونها الداخلية والخارجية مثل شؤون الأمن والدفاع وبناء المدارس والمساجد وإغاثة المنكوبين.

خواطر كثيرة تجيش في خاطر غير أني اختصرتها بتقديم أبرزها في المواقف الستة آفة الذكر، وهي تشمل وقفات ذات طابع وطني، لا يملك من يتصفح التاريخ البحري للكويت ورجالاتها إلا أن يتوقف أمامها إجلالاً وإكباراً.

(١) النور - ٤٠.

(٢) الغبّة: هي لجة البحر وأعماقه الكبيرة، وغالباً ما يستخدمها الكويتيون للتعبير عن المحيط الهندي، وهو أعمق بكثير من الخليج. وللغب في اللغة العربية عدة معانٍ بحسب حركة الغين، وفي حالة رفعها (الغب) تعني الضارب من البحر حتى يقترب من البر، وكذلك الغامض من الأرض، وفي حالة الكسر (الغب) تعني العاقبة والآخرة، وكذلك البعد فالغب هو البعيد (القاموس المحيط - المعجم الوسيط).

النواخذة ... من المنظر الإيماني

نظرنا في الصفحات السابقة إلى النواخذة من المنظور الوطني، والآن دعنا - عزيزي القارئ - ننظر إليهم من المنظور الإيماني، فنقف متأملين الجانب المشرق الذي ينعكس من اليقين والإيمان، ومستفيدين دروساً وعبراً إيمانية.

الوقفة الأولى :

كان النواخذة متقناً عمله مخلصاً فيه، والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالجد والعمل والنشاط والأخذ بالأسباب واكتساب الرزق عن طريق حلال، متمثلاً قول الله سبحانه وتعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"^(١).

ويقول أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو يبحث على العمل وطلب الرزق: "لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"^(٢).

وبلا شك، فإن الأهداف النبيلة الواردة في هذا الحديث كلها متحققة في رغبة النواخذة في الكسب الشريف. والعمل مهما كان نوعه ينبغي أن يكون مشروعاً، ويعود بالنفع على صاحبه أولاً والناس أجمعين، سواء أكان عملاً يدوياً أو فكرياً، أو غير ذلك.

فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ"^(٣).

إن الإخلاص في العمل والتفاني لإنجاحه من أبرز صفات النواخذة، بل هي قاعدة عامة تدرج تحتها أخلاق النواخذة، فيكاد ينعدم أن تجد نواخذة تخرى عن تلك السمات.. وفي الحقيقة يحار المرء في الاختيار بين هذه الصفات، فعن أي منها يتحدث.. وأياً منها يختار؟

وعلى كل: إذا رميت الشباك فلا بد وأن تخرج بشيء من كنوز البحر، فهناك السمك واللؤلؤ والمرجان، وهناك الكثير من الصفات الكريمة التي تحلى بها النواخذة من أبناء الكويت.

(١) الملك - ١٥.

(٢) أخبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي - ص ٢١٢.

(٣) رواه البخاري في بداية البيوع.

الوقفه الثانية:

كان معظم النواخذة - رحمهم الله جميعاً - ممن اشتهروا بالكرم وحسن الضيافة وبذل المعروف لجميع الناس الذين يحبونهم ويحترمونهم، وكان بعضهم غاية في الجود والكرم، يحب بحارته ويعطف عليهم، حتى إن البحارة كانوا يتسابقون للعمل معه على ظهر السفينة لكرمه وعاداته الطيبة وخلالها الحميدة.

وهكذا ينبغي أن يكون كل مسلم ناصحاً لنفسه كريماً جواداً يبذل كل ما في وسعه من نفع وفائدة لغيره اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بقولها: "كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ"^(١)، وكان جواداً كريماً، و"كان أجود ما يكون في رمضان.." ^(٢).

قال الله سبحانه وتعالى: "... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"^(٣)، ويقول عليه الصلاة والسلام: "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا تَلْفًا"^(٤).

وجاء في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ: "تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ"^(٥).

الوقفه الثالثة :

لقد كان كثير من النواخذة يتحلى بطيب القلب وكرم المعشر. وطيب القلب دلالة على سعة الصدر، وكرم العشرة وود الصلة دلالة على جوده وكرمه.. فأما سعة صدره - الدالة على طيب قلبه - فهذا ما يجعل المسلم ناصع الصفحة راضياً عن الله عز وجل وعن الحياة التي يعيشها، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى.

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين / ١٣٩.

(٢) منفق عليه.

(٣) البقرة - ٢٧٣.

(٤) منفق عليه في باب الزكاة.

(٥) منفق عليه، رواه البخاري في كتاب الإيمان، وراه مسلم في كتاب الإيمان أيضاً.

فإن فساد القلب داء عضال، وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب المغشوش كما يتسرب الماء من الإناء المثلوم، وسلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، إن عجز عن سوقه إليهم بيده، فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد ويشتهي لهم العافية، أما التلهي بسرد الفضائح وكشف المستور وإبداء العورات فليس مسلك المسلم الحق.

وأما كونه.. كريم المعشر ودود الصلة: فذلك يدل على جوده وكرمه وتنشئة النفوس على فعل الخير وإسداء العون وصنائع المعروف التي تقي مصارع السوء، ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الفرد وحده بل يرتد أمنها واطمئنانها على المجتمع بأسره فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأثرة العمياء..

ومن ثم كانت الجماعة المسلمة هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك والود الشائع والتعاون المتبادل والمجاملة الرقيقة التي لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود^(١)، بل هي كما وصف القرآن الكريم في قوله سبحانه: "وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ"^(٢)

وقول النبي ﷺ: "لا تَحَاسَدُوا وَلَا تَتَاجَسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسَبِ امْرِيٍّ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ"^(٣).

وبهذه الإرشادات العظيمة يحارب الإسلام الأحقاد والفرقة، ويقتل جرثومة الغضب ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع من الصداقات المتبادلة والمعاملات الحسنة والعشرة الطيبة والمودة الرحيمة بين المؤمنين.

(١) الكنود: (بضم الكاف) هو جحود النعمة وإنكارها .. والكنود بالفتح صيغة مبالغة على وزن فعول، وفي التنزيل "إن الإنسان لربه لكنود" سورة العاديات.

(٢) الحشر - ١٠.

(٣) رواه مسلم في باب البر والصلة والآداب.

الوقفه الرابعة:

كان النواخذة جسورين منطلقين بشجاعتهم من إخلاصهم ووضوح هدفهم، وقد جمعوا بين ذلك وحب الناس، فتلك منتهى الشهامة والرجولة، والمحبة الصادقة، والإخلاص المتزايد، ففي الشهامة قوة، وفي المحبة مروءة، وفي الإخلاص تفران، ومن معنى القوة والجسارة ألا يتردد الإنسان في أمر أو يحتار في اختيار، فالإسلام يكره ذلك التردد وتلك الحيرة حتى لا تكثر الهواجس أمام الإنسان، فتخلق جواً من الريبة والتوجس فلا يدري ماذا يفعل، ولا يليق هذا الاضطراب بالمسلم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"^(١).

ومن المحبة التعارف والتعاطف اللذان هما أساس العلائق البشرية، فتعاطف البشر بعضهم مع بعض معناه بناء مجتمع متكامل متكافل تسوده المحبة والوئام؛ حيث إن الله تعالى رد أنساب البشر وأجناسهم إلى أبوين ليجعل من هذه الرحم ملتقى تتشابك عنده الصلات.

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع^(٣): "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى".

وأما تفانيهم في الإخلاص، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وهذا هو مبدؤهم وتلك هي أخلاقهم، فإن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العباد يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت فيجعلانه

(١) رواه مسلم في القدر.

(٢) الحجرات - ١٣.

(٣) سيرة بن هشام ٩٦٨ - الطبري ٣ : ١٦٨ - ابن الأثير (٢ : ١٤٦) - ابن أبي الحديد ١ : ٣١.

عبادة متقبلة. وإن خبث النية وفساد الطوية يهبطان بالطاعات المحضه فيقلبانها معاصي شائنة فلا ينال المرء منها بعد التعب والمشقة في أدائها إلا الفشل والخسارة.

والنوخذة - والله الحمد كما هو معروف - كان يفني عمره في سبيل وفائه بما يجب عليه وأداء الأمانة التي حملها على عاتقه ساعة خروجه من وطنه ووداعه لأبنائه وأهله، فكان أهلاً للأمانة، ومقدراً للمسؤولية.

الوقفه الخامسة:

إن المثابرة على العمل فضيلة يدفع إليها الشغف به والنزوع إلى الحياة الصحيحة، وهي من ثمار علو الهمة لأن عالي الهمة يستقبح التقصير في العمل.

وهذا الخلق يحول بين المرء والتواكل، فليس للإنسان إلا ما سعى، يقول الشاعر:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

والعمل مطلوب من كل إنسان، فهذا كتاب الله الكريم ينطق بالحق: "وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"^(١)، كما قال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"^(٢).

وهذا رسوله عليه الصلاة والسلام يهدي بالحق: "لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفَى اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ"^(٣)، كما قال ﷺ "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"^(٤).

(١) التوبة - ١٠٥.

(٢) الملك - ١٥.

(٣) رواه البخاري في الزكاة (٢٦٥/٣).

(٤) رواه البخاري والإمام أحمد عن المقدم بن معديكرب (انظر الجامع الصغير - ج ٥ ص ٤٢٥).

وقال "من بات كلاً من طلب الحلال بات مغفوراً له"^(١).

وأنت قلما تجد امرءاً على ظهر البسيطة لا يحمل بين جنبيه أملاً كبيراً، غير أن القوم تتفاوت أقدارهم بتنفيذ الأماني وإبرازها من الخيال إلى جمال الحقيقة، "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ"^(٢).

إن المثابرة على كل عمل قوام كماله، فكم من عمل يولده الفكر، ثم يقتله في المهد العدول عنه، وكم من عمل يظهر لأول وهلة أنه من صعاب الأمور، وبمواظبة العامل عليه وتذليل كل صعب في سبيله، يظهر العمل للوجود كاملاً مفيداً، ويصل صاحبه إلى الغاية المقصودة. الرعوس التي تفكر كثيرة، والأيدي التي تعمل متوفرة ولكن المثابرة هي الأعصاب التي تشد أزر العامل، والثبات هو القوة النفسية التي لا بد منها للمخترع في تنفيذ ابتكاراته وللسائح في ارتياده، وللتلميذ في نيل غاياته.

ولولا المثابرة لوقف كل تقدم علمي أو عملي في هذا الوجود، ولولاها لما بزغت شمس تلك الاختراعات التي أفادت هذا العالم وجعلت الدنيا كتاباً مقروءاً.

المثابرة والدأب هما اللذان خلدا القدماء وآثارهم، فعرفناهم بها، على طول ما بيننا وبينهم من الأزمان، وقد ذكرناهم فكانهم معنا من الأحياء، والذكر للإنسان عمر ثانٍ، وما المرء إلا ذكره ومآثره، ومن أراد أن يدرك غاية بدون دأب فهو كمن يحاول أن يرقى بغير سلم.

(١) رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك (انظر الجامع الصغير - ج ٦ - ص ٩١).

(٢) الزلزلة - ٧.

لماذا نواخذة السفر الشراعي؟

عزيزي القارئ:

سردنا فيما مضى ما تيسر عن نواخذة السفر الشراعي في تاريخ الكويت، وفيما أجملناه من الحديث مدخل طبيعي للحديث عن نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان الكريمة، ومن ثم الحديث عن النواخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه قبل المضي قدماً في التفصيل في هذين الموضوعين هو: لقد كان هذا الحديث كله عن نواخذة السفر الشراعي، فماذا عن نواخذة الغوص^(١) ونواخذة سفر القطاعة^(٢) ونواخذة الماي^(٣)؟ ألا يستحقون الحديث عنهم وهم جزء من الكفاءات البحرية الكويتية التي ساهمت في صنع التاريخ الكويتي الحديث؟

والإجابة عن هذا التساؤل الوجيه واضحة المعالم، ومعالمها تتضح فيما يلي:

أولاً:

عدد نواخذة السفر الشراعي محدد واضح يمكن حصره، وبالتالي الحديث عنه، ومن ثم الشعور بالرضا النسبي عن مدى تغطية الحديث عن معظم أفراد الشريحة المعنية بالحديث والذكر.

أما النواخذة من الشرائح الثلاث الأخرى المذكورة فعددهم بالمئات - إن لم يكن بالآلاف - وهو عدد يعجز الإمكان عن حصره.

ثانياً:

هناك فارق زمني معتبر بين اندثار مهنة السفر واندثار مهنة الغوص على اللؤلؤ التي اضمحلت بشكل قسري حين ظهر اللؤلؤ الصناعي في اليابان فكسد اللؤلؤ الطبيعي، وانقطعت بشكل حاد رحلات الغوص على اللؤلؤ منذ الثلاثينيات من القرن المنصرم وكذلك بالنسبة

(١) كان معظم غوص الكويتيين في ساحل العدان وبعضه قد يصل إلى سواحل الخليج الشمالية والغربية مثل مغاصات (هيرات: جمع هير) البحرين.

(٢) سفر القطاعة: السفر التجاري البحري الذي لا يتجاوز في العادة سواحل الخليج إلى موانئ البحرين وقطر وعمان.

(٣) سفن الماي (الماء) كانت تنقل الماء العذب من شط الفرات إلى الكويت.

لسفن الماء التي سرعان ما تم الاستغناء عنها حين تيسرت عملية تحلية المياه كمنتج جانبي بعد ظهور البترول في النصف الثاني من الثلاثينيات.

وبالمقابل استمر السفر الشراعي بعد ذلك رغم ظهور السفن البخارية التجارية ووصولها إلى المنطقة لأنها كانت كلها تستخدم في تسيير الشؤون العسكرية إيَّان الحرب العالمية الثانية، ولم يتم السماح لها بالنقل التجاري إلا في النصف الثاني من الأربعينيات بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها، ومن ثم خف الطلب - الذي كان في أوجه - على السفن الشراعية الكويتية شبه المتفردة بالنقل التجاري البحري في الخليج آنذاك.

إن هذا الفارق الزمني قد جعل من الأيسر إدراك بعض الجهود التوثيقية لكبار السن لنقل عنهم ما عايشوه أو أدركوه بالنسبة للسفر الشراعي.

ثالثاً:

الاختلاف في طبيعة المهنة بين نواخذة السفر الشراعي والنواخذة الآخرين، وخصوصاً في طول المسافات التي يجب أن يقطعها كل منهم، إذ تقتصر المسافات التي يقطعها نواخذة الغوص في الغالب على مغاصات بحر العدان شمال الخليج العربي، وتتحدد المسافة التي يقطعها النواخذة في سفن الماء في المسافة بين جون الكويت وشط العرب، وكذلك الحال بالنسبة لسفن القطاعة التي تصل إلى موانئ الخليج العربي كالبحرين وقطر وعمان في أبعد تقدير حيث التيارات المائية والهوائية المعروفة المحددة.

أما نواخذة السفر الشراعي فعليه أن يقطع المحيط الهندي شرقاً باتجاه الهند أو غرباً باتجاه سواحل إفريقيا، والمحيط الهندي من الضخامة بمكان عمقاً واتساعاً بشكل يحار فيه أحذق ربان وأفضل نواخذة.

إنه ثاني أكبر محيط على سطح الكرة الأرضية، ومن ركبه علم ما فيه من الأخطار والأهوال حيث تختفي اليابسة وتنقطع الجزر، ولا تُرى فيه آثار الحياة كما تُرى على اليابسة.

حتى طائر النورس الذي يستبشر به البحَّار المنقطع عن اليابسة إذا ما رآه - لأنه يدل على وجود اليابسة بأي شكل من الأشكال - قد اختفى هو الآخر فلا يكاد يبين.

لذا سماه الكويتيون الغبة (بكسر الغين وفتح الباء وتشديدها)، لأن معنى الغبة في اللغة العربية يوحى بالانقطاع والغياب، وهكذا ينقطع من يدخل المحيط الهندي ربحاً من الزمن حتى يهتدي بفضل الله وتوفيقه إلى بر الأمان رغم الأمواج العالية والرياح العاتية، وقد توكل على الله تعالى، ثم اعتمد فقط على استهدائه بالنجوم ومطالعها ليلاً وبالشمس وحركتها نهاراً.

وعوداً على بدء، نقول: إن النواخذة الآخرين ممن عملوا في الغوص وسفر القطاعة وجلب الماء من الذين بذلوا جهوداً كبيرة قد ساهموا بذلك في صنع تاريخ الكويت الحديث، وخصوصاً في القرنين الأخيرين من الألفية الثانية.

ونتمنى أن يتصدى لسيرهم الحسنة باحثون في التراث البحري الكويتي كأمثال الباحث المجتهد الأخ الفاضل د. يعقوب يوسف جاسم الحجى الذي سخر جهوده البحثية في تقصي أخبار من استطاع الوصول إليه أو إلى معارفه من نواخذة السفر الشراعي في كتابه القيم "نواخذة السفر الشراعي في الكويت والخليج العربي".

ولعله من المناسب في هذا المقام أن نشير إلى جهود طيبة أوردت نبذة مختصرة عن بعض نواخذة الغوص الكويتيين ولكنها لم تشمل معشار عددهم الحقيقي لضخامته، ولكن الشكر واجب لكل من يتصدى لهذا الموضوع.

فالشكر موصول للأخ الفاضل الأستاذ عادل محمد العبد المغني الذي تحدث عن بعض نواخذة الغوص في كتابه: "نواخذة الغوص والسفر في الكويت"، وكذلك للأخ الفاضل الأستاذ طلال الرميضي الذي تحدث عن نواخذة الغوص من قبيلة العوازم في كتابه: "أعلام الغوص عند العوازم خلال قرن (١٨٥٠ - ١٩٥٠م) بإمارة الكويت".

أسطول الكويت البحري

لقد تحدثنا آنفاً عن تاريخ من صنع الكويت من نواخذة السفر الشراعي في الكويت، وقد سلطنا الضوء بشكل ضمني على الوسيلة التي صنع بها هؤلاء النواخذة تاريخ الكويت، ألا وهي الأسطول البحري الذي جاب الشرق والغرب والشمال والجنوب دون سابق تدريب متميز.

ولكن لكي نقف - عزيزي القارئ - على ضخامة ورسانة ذلك الأسطول تاريخياً وواقعياً، دعنا نستثمر الجهود الرائعة في حصر الخلفية التاريخية للموضوع والتي جادت بها الكتابات الرائعة لكل من د. يعقوب يوسف الحجى الباحث في التراث البحري الكويتي، والباحثين الأكاديميين أ.د. نجاته عبدالقادر الجاسم والمرحوم أ.د. بدر الدين عباس الخصوصي في الكتابين الرائعين: "صناعة السفن الشراعية في الكويت"^(١). و"تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة"^(٢) على الترتيب.

نشأة الأسطول البحري الكويتي

وصل العتوب إلى القرين فوجدوها بيئة بحرية صغيرة يتمركز أهلها حول الكوت الذي أنشأه ابن عريعر، فسكنوها وارتبطت حياتهم بالبحر أسوة بسكان القرين الأصليين. ولم يكن ذلك بالأمر الصعب عليهم، إذ إن خبرات العتوب البحرية مكنتهم من الاندماج في ذلك المحيط، فأصبحوا يمارسون الصيد والغوص وربما صناعة السفن كذلك.

وحين ضعف نفوذ بني خالد استطاع العتوب الاستقلال بالقرين، وأصبحوا حكماً عليها. ففي عام ١٧٥٦م يذكر كبنهاوزن، المسؤول عن مكتب شركة الهند الشرقية الهولندية في جزيرة خرج الإيرانية، أن العتوب كانوا تحت حكم عدة شيوخ، وذكر منهم مبارك بن صباح ومحمد آل خليفة^(٣).

كما ذكر أن العتوب كانوا يمتلكون ٣٠٠ سفينة، ولكنها كانت سفناً صغيرة للغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك (وربما للنقل بين الموانئ داخل الخليج). كما ذكر أنه يمكن تجنيد ٤٠٠٠ رجل مسلح منهم، وأنهم لا يبحرون بسفنهم هذه إلى أبعد من مغاصات اللؤلؤ الموجودة

(١) ص ١٨-٢١.

(٢) ص ٤١-٤٢.

(٣) Slot B.J., "The Origins of Kuwait", page 89

بالقرب من البحرين، أي أن هؤلاء العتوب ومن كان موجوداً قبلهم في القرين، لم يكونوا يبحرون للهند بعد.

كذلك كانت القرين محطة للقوافل التجارية الحاملة للبضاعة وللبريد من الهند إلى حلب. وقد زار الرحالة نيبور ميناء بوشهر الإيراني عام ١٧٦٥م، وجمع الكثير من المعلومات عن القرين، فذكر أن عدد سكانها كان حوالي ١٠ آلاف نسمة، وأنهم يمتلكون حوالي ٨٠٠ سفينة^(١) للغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك.

وفي عام ١٧٦٤م حين حكم الكويت الشيخ عبدالله ابن صباح الأول، دخل الكويتيون أول معركة بحرية في تاريخهم، تلك هي واقعة الرقة، حيث أودع الكويتيون "نساءهم وأموالهم في سفن وساروا بسفن أخرى لمقابلة عدوهم"^(٢). ولقد كان لمعرفة أهل الكويت بطبيعة البحر من حولهم وصغر سفنهم وكفاءتها أكبر الأثر في انتصارهم على بني كعب.

وما إن أطل القرن التاسع عشر وأصبحت الكويت تحت حكم الشيخ جابر الأول (جابر العيش) الذي زادت التجارة في عهده ازدهاراً، حتى تبنى صناع السفن الكويتيون صنع "البغلة" و"البتيل" للنقل التجاري، فكانت تلك نقطة تحول كبير في قدراتهم البحرية والتجارية، حيث استطاعوا الوصول بهذه السفن إلى سواحل الهند واليمن لنقل البضائع منها وإليها دونما حاجة إلى الاعتماد على ميناء مسقط كوسيط تجاري.

ففي عام ١٨١٦م وصف الرحالة الإنجليزي بكنجهام ميناء الكويت بأنه ميناء "عظيم"، وذكر أن تجارها يتعاملون مع غيرهم من أمم الخليج، وأن بحارة الكويت مهرة وشجعان. أما سفنهم فقد قاربت مائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة. كما ذكر بكنجهام أن تجارة نقل الخيول العربية الأصلية عن طريق السفن إلى الهند كانت تجارة رائجة في الكويت آنذاك.

وأما القبطان بروكس فيقول في تقريره عام ١٨٢٩م: "إن الكويت كانت الممول الرئيس لشمال ووسط نجد بالقمح والقهوة وبالمنتجات الضرورية الأخرى، وأن لديها ١٥ سفينة من

(١) المصدر السابق - ص ١٠٧.

(٢) عبدالعزيز الرشيد - تاريخ الكويت - الجزء الثاني - ١٩٢٦ - ص ٣.

نوع البغلة حمولتها ما بين ١٠٠ إلى ٤٠٠ طن، إضافة إلى العديد من السفن الأخرى المستخدمة في الغوص وفي صيد الأسماك، والتي بلغ عددها آنذاك حوالي ١٧٠ سفينة^(١).

كما ذكر أن الكويت تصدر اللؤلؤ والخيول والسمن الطبيعي، وأن سفنها كانت تصل إلى موانئ الهند والبحر الأحمر.

وأما الرحالة ستوكويلر فقد زار الكويت عام ١٨٣١م، حيث وصل إليها من الهند على متن سفينة كويتية من نوع البغلة، بلغت حمولتها حوالي ٣٧٥ طناً، وذكر أن عدد بحارتها قارب الخمسين بحاراً، مما يدل على ضخامة مثل هذا النوع من السفن آنذاك، والتي كانت تستخدم لنقل الخيول والتمور إلى الهند، وتعود محملة بالأخشاب الهندية^(٢).

حجم الأسطول البحري الكويتي

في عام ١٨٤١م زار الكويت القبطان هنل، ووصف المدينة بأنها "تمثل حالة من الازدهار الاجتماعي، وأن عدد سكانها قارب ٢٥ ألف نسمة، وأنهم كانوا يمتلكون من السفن حوالي ٣٠ بغلة وبتيلا تستخدم في التجارة باستمرار مع الهند، إضافة إلى حوالي ٣٠ سفينة، متوسطة الحجم تستخدم في حرفة النقل داخل الخليج (القطاع) وحوالي ٣٥٠ سفينة صغيرة للغوص على اللؤلؤ"^(٣).

وكان قد سبقه إلى زيارتها الكويت الكولونيل الإنجليزي "بلي" وذلك في عام ١٨٣٦م، وذكر أن السفن الصغيرة كانت تقوم بنقل البضائع من موانئ الخليج الشمالية إلى الكويت حيث تقوم سفن الكويت الكبيرة من نوع البغلة بنقلها إلى الهند، وذكر أن التمر كان أحد الصادرات التي كانت تنقلها سفن الكويت إلى الهند.

ويبدو أن السفن الكويتية من نوع البغلة كانت من الكبر بحيث لم يكن باستطاعتها دخول شط العرب والخروج منه بسهولة وهي محملة بالبضاعة، لذا كانت تنزل البضاعة التي تجلبها من

(١) Brucks, G. B., "Memoir Descriptive", p.576.

(٢) Stocqueler, J.H., "Fifteen Months pligrimage.." PP.1-2

(٣) راجع كتاب The Modern History Of Kuwait للدكتور أحمد أبو حاكمة - ملحق رقم ٣.

الهند في الكويت لكي تقوم السفن الصغيرة بنقلها إلى موانئ الخليج الشمالية. وأما عن بحارة الكويت فقد ذكر بلي أنهم حوالي ٤ آلاف بحار، وأثنى على سمعتهم الطيبة وعلى مهارتهم. كما ذكر في تقرير آخر عام ١٨٦٦م "أن هناك حركة في الكويت كبيرة لنقل المتاجر أو ربما كان سكانها الكويتيون أكثر سكان الخليج براعة في صناعة السفن والقوارب".

كما أثنى الرحالة بلجريف عام ١٨٦٢م على بحارة الكويت، وذكر أن لهم الصدارة بين شعوب الخليج من حيث مهارتهم وجسارتهم والسمعة الطيبة التي يتحلون بها. وأثنى على ميناء الكويت وعلى طقسها الصحي، وذكر أن هناك المئات من السفن الصغيرة التي تزور هذا الميناء.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حصل تطور مهم في صناعة السفن الكويتية، حيث صمم صناع السفن الكويتيون البوم كسفينة نقل بدلاً من البغلة، وقد أثبت أنه أفضل من البغلة في قدراته الملاحية. غير أن البوم في ذلك الوقت لم يكن ليداني البغلة من حيث حجمها، بل كان سفينة نقل متوسطة الحجم لا تزيد حمولتها على ١٥٠ طناً.

ويؤكد الرحالة روبرت جيران لانندن في كتابه "عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً"^(١) أن الكويت أصبحت في عام ١٩٠٠م أهم مركز لبناء السفن في الخليج.

ولكن ما إن أطل القرن العشرون وحكم الكويت الشيخ مبارك الصباح حتى ازدهرت تجارة الكويت، وازداد عدد سفن الكويت التي تبحر إلى موانئ تنزانيا على الساحل الإفريقي الشرقي. كما ازدهرت حرفة الغوص على اللؤلؤ كذلك، وصارت هذه الحرفة تجتذب إليها الأيدي العاملة من الكويت وباديتها ومن خارج الكويت وسائر موانئ الخليج واليمن وعمان. وكل هذا ساعد صناعة السفن في الكويت على التوسع والازدهار.

ففي عام ١٩١٤م - بعد نشوب الحرب العالمية الأولى - بدأ صناع السفن في الكويت صنع سفن كبيرة من نوع البوم السفار لكي تحل محل البغلة في النقل الشراعي الكويتي، كما تم صنع بوم الماء، وهي سفن من نوع البوم مخصصة لنقل الماء العذب من شط العرب إلى الكويت بعد أن أصبحت مصادر المياه المحلية في الكويت لا تفي بحاجة السكان فيها.

ولقد كان للجهود التي بذلها الشيخ مبارك لحماية الكويت وأهلها وتجارها أكبر الأثر في ازدهارها وفي هجرة العديد من العائلات من نجد ومن سائر موانئ الخليج إليها. كما هاجر إليها كذلك العديد من صناع السفن الخليجيين الذين سكنوا الكويت وعملوا في صنع السفن بها،

(١) ص ١٤٢.

و عرفوا بالبحارنة نظراً لهجرة الكثيرين منهم من البحرين إلى ميناء الكويت، كما جاء بعضهم من ميناء مسقط ومن ميناء لنجة وميناء الجسم كذلك. ولقد بلغ عدد السفن في الكويت (ما بين كويتية وغير كويتية) في عام ١٩١٠م ما يقارب ٣٣٥٠ سفينة.

وفي عام ١٩١٨م بلغ عدد سكان الكويت حوالي ٨٥ ألف نسمة، كما بلغ عدد السفن فيها عام ١٩٢٠م حوالي ٩٠٠ سفينة، منها ٢٠٠ سفينة للنقل البحري و ٧٠٠ للغوص على اللؤلؤ، بالإضافة إلى سفن نقل الماء وصيد الأسماك. ولقد استمرت صناعة السفن على الرغم من توقف التجارة مع بادية نجد (في حوالي العام ١٩٢٠) ولكنها لم تكن بالسفن الكثيرة أو الكبيرة الحجم.

ومن الجدير بالذكر ونحن نسوق الروايات الموثقة للرحالة الأجانب أننا قمنا بتوثيقها كما جاءت دون القيام بدراسة تحليلية مقارنة بين المعلومات الواردة فيها وخصوصاً ما يتعلق بأعدادها وأنواعها، وليس هذا هدف حديثنا في هذا الكتاب بل تبيان ضخامة الأسطول الكويتي القديم فحسب.

تدهور صناعة السفن في الكويت

في أواسط العقد الرابع من القرن العشرين اكتشف اليابانيون اللؤلؤ الصناعي، وسهولة تحضيره، فأدى ذلك إلى كساد حرفة الغوص على اللؤلؤ، وبالتالي قلة الطلب على سفن الغوص.

وبعد ذلك قامت الحرب العالمية الثانية، وازدادت حرفة الغوص تدهوراً، كما مُنعت البواخر من إحضار المؤن والبضائع إلى الخليج، واستمر الطلب على صنع السفن في الكويت نظراً لقيام هذه السفن بنقل البضائع الاستهلاكية بدلاً من البواخر.

كما شارك صناع السفن الكويتيون في جهود الحلفاء عن طريق صنع العشرات من السفن (الدوب) التي استخدمت في المجهود الحربي في الخليج وشط العرب.

ولكن السنوات التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية قد أذنت بتدهور مستمر ليس لحرفة الغوص على اللؤلؤ فقط، بل لحرفة نقل البضائع كذلك من الهند وإفريقيا وإليهما نظراً

لاكتشاف البترول في الكويت، وتوقف البحارة الكويتيين عن السفر على السفن الشراعية، وهذا أثر بدوره في صناعة السفن الشراعية في الكويت.

ففي عام ١٩٥٠م لم تبحر سوى ٥٠ سفينة شراعية كويتية إلى الهند إضافة إلى حوالي ١٤ سفينة ذات محرك (لنجات)، حتى إذا ما أطلت الستينيات من هذا القرن، توقف النقل الشراعي التجاري الكويتي بعد كل تلك السنوات من العمل المستمر.

ولولا استمرار حرفة صيد الأسماك وإدخال المحركات في السفن التي تقوم بها، لما استمرت صناعة السفن في الكويت حتى اليوم، ولانقرضت منذ زمن طويل.

تميز السفن الكويتية

كان هذا عن الأسطول البحري الكويتي، ولكن ماذا عن تميز الكويتيين وتفوقهم في صناعة السفن؟ لنستمع إلى الأخت الفاضلة أ.د. نجاة عبدالقادر الجاسم وزميلها المرحوم أ.د. بدر الدين عباس الخصوصي يقولان في كتابهما "تاريخ صنع السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة":

"اشتهر الكويتيون بصناعة السفن، فحذقوا فنونها وأتقنوا صنعها وعدلوا من طرزها المألوفة، واهتدوا إلى طرز أخرى ثبتت صلاحيتها وفعاليتها لعبور البحار والمحيطات، وصاروا يزودون بها غيرهم من سكان المناطق الأخرى".

وقد أثنى الرحالة الأوروبيون^(١) ممن زاروا الكويت ومنطقة شبه الجزيرة العربية - في الماضي - على مهارة الكويتيين ونبوغهم في فن صناعة السفن، وأشادوا بشهرة الكويت في هذا المجال، فقد نوه الرحالة الدانماركي "كارستن نيبور" بالكويت خلال زيارته لها عام ١٧٦٥م، وأشاد بمهارة الكويتيين البحرية الذين يملكون ثمانمائة سفينة ويعيشون على التجارة وصيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ.

(١) د. بدر الدين عباس الخصوصي. دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعي والاقتصادي ١٩١٣-١٩٦١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الكويت ١٩٧٢ ص ٢٢٧ والتي تليها.

وعقب ذلك بنحو مائة عام أكد "وليام بالجريف" عام ١٨٦٢م ما قاله " نيبور" عندما ذكر أن مرفأ الكويت يعد من أكبر المرفأئ حيث يجتذب إليه مئات من السفن، كما أثنى على مهارة البحارة الكويتيين وإقدامهم، وأشار إلى المكانة الرفيعة التي يتبوؤونها بين بحارة الخليج.

كما تحدث "ديكسون" الوكيل السياسي البريطاني في الكويت عن شهرة الكويت البحرية، فأكد أن أحسن قوارب الخليج تبنى فيها، وأشاد "آلان فاليارس" بالكويت وبشهرتها البحرية عندما زارها عام ١٩٣٩م، حيث قال: (١)

".. إن واجهتها (البحرية) من أبداع ما تقع عليه العين في الدنيا، وهي تمتد على مسافة مليون مكونة ورشة كبرى لصنع مراكب النقل الشراعية. فعلى طول هذه الواجهة (البحرية) الممتدة على الساحل .. من مقر المعتمد البريطاني شرقاً إلى المستشفى الأمريكي غرباً، من طرف السور إلى طرفه الآخر، تزدهم السفن الشراعية الكبرى والصغرى.. فتراها واقفة جنباً إلى جنب على الشاطئ، وفي عرض السيف، وفي الماء في صفوف طويلة يحتوى كل منها على ست سفن أو ثمان، وراء الحواجز المشيدة بالحجارة وهي تواجه البحر..جاثمة على قواعدها الطويلة، سكاناتها غير منزلة ومتونها مكسوة بالحصر".

وعلى الرغم .. من أن سفناً كثيرة قد عادت بعد رحلاتها الطويلة رأينا مائة سفينة كويتية راسية في مواقعها .. وقد دعمت بالأوتاد وجذوع الأشجار الهندية، وأنزلت عددها إلى الشاطئ، ورأينا سفناً أخرى تنزل إلى البحر، وسفناً غيرها تجهز في المرسى استعداداً لإنزالها إلى الماء، وقوارب طويلة مزدحمة بالبحارة تسحب وراءها زوارق محملة بالحبال للحواجز، وللمراسي المدفونة في الرمال المراد سحبها إلى مواقعها .. سفن في كل مكان بين كبيرة وصغيرة، وعتيقة وجديدة، نشط معظم بحارتها.. إلى أعمالهم المختلفة في حركة لا تهدأ وتيار لا ينقطع..".

أما P.E. Case فقد أفاض الحديث في مقالة له بعنوان (٢): "Boom Time in kuwait" عن مهارة الكويتيين البحرية، ومقدرتهم الفائقة في هذا المجال حيث يقول:

(١) آلان فاليارس (مترجم)، أبناء السندباد، دار الكتاب العربي ص ٣٦١ والتي تليها.

(٢) The National Geographic Magazine, vol. cll , no. 6, Dec.1952,p.792.

".. ومن بين الخليج .. والمياه المحيطة به يشتهر بحارة الكويت بالجرأة والمهارة، كما أن صانعي السفن الكويتيين أعظم الناس خبرة في الخليج، إذ يظلون مشغولين في صنع السفن الحديثة وإصلاح السفن القديمة التي تستخدم لصيد اللؤلؤ والسماك والتجارة ..".

ويشيد عيسى القطامي^(١) بتفوق الكويتيين في صناعة السفن، فيذكر أنهم أجادوا هذه الصناعة بالممارسة الطويلة حتى أصبحوا من أمهر الصناع نظرًا للسفن التي كانوا يصنعونها والتي اشتهرت بمتانتها وجودتها للملاحة.

ولقد تميز النواخذة الكويتيون بالإستعانة بأحدث ما توفر في عصرهم من أجهزة ومعدات بحرية لتسهيل مهمتهم في عبور البحار والمحيطات.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن الحديث عن الأسطول البحري الكويتي لا يستقيم بحال من الأحوال دون أن نذكر من أحياء من القوى البشرية المحركة له.

ولئن تكلمنا عن النواخذة في مواضع أخرى في هذا الكتاب وهو موضوع الكتاب على كل حال، إلا إننا لا نكتفي بذلك، بل نسوق الحديث عن النظام الدقيق الذي كان يعمل به البحارة (البحرية)^(٢) الذين أشرنا إلى إخلاصهم وولائهم. إذ لم تكن الأحداث تتوالى على ظهر السفينة عبثاً أو حيثما اتفق، بل كانت وفق نظام مبرمج دقيق يسير بشكل يومي مرتب معروف لا يحيد عنه أحد إلا وقت الضرورة حين يستلزم الوضع في عرض البحر الخروج عن هذا البرنامج، فيصدر النواخذة أوامره على غير العادة، تكيفاً مع التغيرات الجوية أو البحرية وتسمى هذه الأوامر "الأماريات".

ولقد لخصت هذا النظام اليومي الدقيق كما رواه لي كل من:

العم سليمان فهد البلوشي (بو سعد)

والعم يعقوب خالد الشطي (بو خالد)

وكلاهما من بحارة السفر الشراعي .. كما يلي:

(١) في كتابه دليل المختار في علم البحار، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ١٩٦٤ ص ٢٢٨.

(٢) ويسمى البحارة أيضاً "أليزوة" بفتح الألف وتسكين الزين.

أولاً: يصلي البحارة صلاة الفجر جماعة، وبعد الصلاة والتسبيح يتناولون طعام الإفطار، تيمناً ببركة البكور التي جاءت في دعاء الرسول ﷺ: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا، قَالَ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، قَالَ وَكَانَ صَخْرٌ^(١) رَجُلًا تَاجِرًا فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثَرَى وَكَثُرَ مَالُهُ"^(٢).

ثانياً: وبعد الصلاة والإفطار يصيح المجدمي "يَمَّه".

(واليمَّة هي عملية نرح المياه المتسربة إلى جوف السفينة ويتم نرحها كل صباح ومساء تخفيفاً عن السفينة) ولا عجب أن تتجمع المياه في جوف السفينة فهي مصنوعة من الأخشاب المتداخلة والمسمرة بمسامير ضخمة، ولذلك قد تتسرب كميات بسيطة من المياه إلى جوف السفينة، ولا يعتبر ذلك عيباً في السفينة إلا إذا اتسع الخرق على الراقع بزيادة الماء المتسربة إلى جوفها.

ثالثاً: فإذا جف الماء المنزوح صاح صائحهم قائلاً "ارفع"، أي كفى فقد انتهى الماء، وهنا يكون المجدمي قد أعد الحبال لتجهيزها وصيانتها وغزل الجديد منها؛ استعداداً لتوفير الحبال الاحتياطية في السفينة والتي تنفع للموسم القادم كذلك.

رابعاً: يستمر العمل في الحبال حتى صلاة الظهر، ولا يوقف ذلك - كما أسلفنا - إلا الأمارية فإذا صلى البحارة الظهر وانتهوا من التسبيح وصلاة السنة صاح المجدمي قائلاً: "أنجب"^(٣) أي ياطباخ ضع الغداء.

خامساً: بعد الغداء تبدأ الراحة اليومية التي يستغلها الأكثرية في نوم الظهر "القبلولة" والتي تنتهي مع رفع النداء لصلاة العصر.

(١) هو صخر الغامدي، راوي هذا الحديث.

(٢) صحيح ابن ماجه: ٢٢٣٦ - صحيح سنن الترمذي - محمد ناصر الدين الألباني: ج ٢ ص ٤ باب التكبير في التجارة - الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.

(٣) تلفظ بالجميم المكشكشة الشبيهة بالجميم الفارسية.

سادساً: يصلي البحارة العصر جماعة ثم تبدأ الفترة الحرة، حيث يبدأ كل منهم في قضاء حاجاته الخاصة من غسل ملابسه أو حياكة الخوص الذي جلبه من البصرة بغرض إنتاج السفرة وما شاكلها لكي يبيعها في أقرب بندر تطرح فيه السفينة لحسابه الخاص.

سابعاً: يصلي البحارة المغرب بعدما يجنّ الليل على سطح السفينة، ثم يتناولون طعام العشاء ويتجادبون أطراف الحديث و"السوالف" حتى صلاة العشاء.

ثامناً: وبعد صلاة العشاء والسنة والوتر يصيح المجدمي مرة أخرى "يَمَّة" فينزل الجميع متعاونين يداً واحدة لنزح الماء المتجمع في قاع السفينة حتى يصيح قائلهم "ارفع".

تاسعاً: ينقسم البحارة هنا إلى نصفين: النصف الأول ينام والنصف الآخر يظل يقظاً منتظراً الأماريات وهي - كما سبق ان عرفنا - الأوامر التي تصدر عن النوخذة أو نوخذة الشراع أو المجدمي تجاوباً مع أي متغير ينبغي أن يُحسب حسابه.

وفي النصف الثاني من الليل يتم تبديل المناوبات فيصحو الفريق الأول وينام الفريق الثاني .. وهكذا يتم تغيير المناوبات في أول الليل وآخره كل فترة مناسبة يتفق عليها البحارة بإشراف المجدمي.

البحر ينطق قبل التاريخ والجغرافيا

قبل الحديث عن عائلة العثمان من المنظور التاريخي والجغرافي دعنا - عزيزي القارئ - نزور نقعة العثمان على ساحل الخليج العربي بمنطقة القبلة، لتستقبلنا أمواج البحر فيها فتتطرق بما شهدت عليه من ريادة بحرية كبيرة لرجال هذه العائلة الكريمة.

حيث امتطوا صهوة أمواج الخليج العربي والمحيط الهندي "الغبة" شرقاً إلى الهند، وغرباً إلى إفريقيا بسفنهم الخشبية الشراعية، التي لا تحركها سوى رحمة الله تعالى، الذي سخر الريح المتمنعة لأشروعاتهم القماشية البسيطة، فأدعوا لحركة الريح ذهاباً وإياباً طوال العام، في رحلات صعبة قاسية تبتلع أشهر العام أحياناً، بل وتجبرهم أحياناً أخرى على المكوث في الهند حولاً كاملاً، فلا يعودون إلا في قابل العام (البرصات)^(١).

وقد حمل التاريخ القريب لنا النهاية المأساوية لمن تحدي رياح الأريب^(٢)، أو رياح الأحيمر^(٣). والتي كانت تمثل تحدي صعب لنواخذة السفر الشراعي في ذلك الوقت، فيحسبوا لها ألف حساب.

(١) البرصات (ومفردتها برصة) بفتح الباء والراء والصاد: هي تعريب لكلمة هندية هي "برساد" وتستخدم للتعبير عن كثرة العواصف الممطرة حيث هيجان بحر الهند في الفترة ما بين ٢٦ مايو و٧ يونيو من كل عام، مما يتسبب في غرق السفن الشراعية، ويحسب لها البحارة ألف حساب، حتى إنهم لا يدخلون البحر فيها، بل ينتظرون إلى انتهاء الموسم فيصلونه بالموسم التالي. ويقال برصت السفينة في الهند أي بقيت في أحد موانئها انتظاراً لبدء الموسم القادم، وكذا الحال بالنسبة لسواحل إفريقيا الشرقية.

(٢) الأريب: هو ريح الشمال التي تهب من ناحية بر جنوب الجزيرة العربية، وهذا اللفظ يطلق على الريح مجازاً لأنها متزامنة الحدوث مع طلوع نجم الأريب، وهذا شأن سائر الرياح الموسمية التي يرتبط كل منها بمطالع النجوم فتسمى الريح باسم النجم المقترن بها، وفي الأريب تعصف رياح الشمال، وتثير البحر حتى تسوده من شدة الاضطراب.

(٣) الأحيمر: هو نجم معروف لدى أهل البحر الذين لا يبحرون حتى يختفي، لأن ظهوره يقترن برياح وزوابع عديدة، وهو يسبب رياحاً جنوبية شرقية، يختفي عادة في ١٣ نوفمبر. وقد كانت ضربة الأحيمر سبباً مباشراً - بتقدير الله تعالى وقضائه - في طبعة (غرق) بوم النوخة حجي بهمن التي غرق فيها بعض أفراد عائلته (اثني عشر شخصاً) عام ١٩٤٧م، ومن قبله طبعة النوخة عبدالكريم ولد غيث عام ١٩٤٥م، حيث كانت سرعة الريح حينها تزيد على المائة وأربعين كيلو متراً في الساعة.

وكذلك الحال بالنسبة لنجم الأكليل^(١)، وما يصاحبه من رياح عاتية، ومن كان سعيداً وكتبت له النجاة من "الطبعة" (الغرق) نجى بجلده لاغير.

ولكن التاريخ بالمقابل قليلاً ما حمل لنا- فيما نعرف - أنباء غرق سفن نواخذة العثمان أو انكسار صاري السفينة (الدّقل) أو حتى تمزق الشراع، وذلك إذا ما قسنا ضخامة أسطولهم وعدد رحلاتهم على كل سفينة، مما يدل على أمرين:

- الأول: البركة وحفظ الله تعالى لهم ولمن معهم من البحارة بصدق نواياهم واستقامة سلوكهم، وحسن توكلهم على الله تعالى.
- الثاني: الحذق والمهارة في صناعة ركوب البحر عند هؤلاء النواخذة، وحسن اختيارهم لبحارتهم.

(١) الإكليل: هو نجم يسميه الكويتيون " المرزم" وتكثر فيه الأمطار ويشتد البرد، وقد كانت ضربة الأكليل سبباً مباشراً - بتقدير الله وقضائه - في طبعة النوخة بلال الصقر الذي غادر بومباي بتاريخ ١٩٤٣/٥/٣ وما لبث أن توسط غبة المحيط الهندي على بعد ٢٥٠ ميلاً عن بومباي حتى أصابته ضربة الأكليل التي استمرت تسعة أيام بلياليها. فكانت كفيلة بغرق السفينة.

ولعله من المناسب في هذا السياق أن نستمع لوصف أحد نواخذة السفر الشراعي والنوخذة سليمان علي المهيني لرحلة والده النوخة علي عبدالله المهيني عابراً المحيط (الغبة) بالاستعانة بالله تعالى، وبالاhtداء بالنجوم، رغم كل الحوادث والصعاب.

ومن أبرز ما يميز النوخة علي بن عبدالله المهيني هو نفس الذي يميز النواخذة الكبار المعروفين، وهو الحذر من الأنواء الجوية والظواهر الجغرافية، كالقصاصير والفسوت والشعاب المرجانية، وعلى سبيل المثال يروي عنه ابنه النوخة سليمان بن علي المهيني وهو صغير وقد ركب مع والده وعمره ١١ سنة، فيقول: "علينا عقب المغرب، والوالد (أي النوخة علي المهيني) "ضايق" صدره ويقول: "ورانا غيوب الثريا ... (ويقصد بذلك الريح الشديدة المرافقة لغيوب نجم الثريا) ... والله الواحد يأكل ويشرب ... وقلبه مثل رقاص الساعة" خصوصاً وأن الخليج كله أهوية مضادة، وما أكثر الرياح المزعجة للسفن السفارة مثل غيوب الأحمير، والأجيير وطلوع الأحمير والأزيب".

ويقول النوخة سليمان علي المهيني مقارناً بين السنّة والتعلّة: في السنّة وهي النزول جنوباً من الكويت إلى الهند وإفريقيا سهالة وسلامة وكنا نصل من شط العرب إلى مضيق هرمز في ما بين ٤ إلى ٦ أيام على الأكثر، بينما في التعلّة وهي رحلة الإياب من الهند أو إفريقيا، فإن الأهوية والأرياح مضادة وشديدة حتى إن المسافة نفسها من مضيق هرمز إلى الكويت أو شط العرب قد تصل إلى شهر كامل ... وكثيراً ما تبندر (أي ترسو) السفن خلالها في الموانئ العربية أو الإيرانية. حتى شاع في المثل عند أهل البحر "السنّة جنّة، والتعلّة علة".

الصدق وحسن الطوية:

أما في صدقهم وحسن طواياهم وصفاء نواياهم فقد اختاروا الصدق والأمانة منهجاً لهم، فوفقهم الله وبارك لهم في عملهم ووسع لهم في رزقهم.

لقد جاء كبار هذه العائلة الكريمة من نجد إلى الكويت ولم يكن معهم سوى راحلتهم التي كانت تحملهم فشمروا عن ساعد الجد وزرعوا فحصدوا.

إن منطلق المصادقية والصفاء هو الإخلاص والتوكل معاً، اللذان انعكسا عصامية واعتماداً على النفس دون مد يد السؤال إلى الآخرين، وفور قدوم الكبار من نجد - والبيئة فيها برية صرفة تبعد عن البحر مسافات كبيرة - تأقلموا مع البيئة البحرية الجديدة فعملوا في البحر حتى امتلكوا السفن ليكونوا هم قادتها، وسنري تفصيل ذلك لاحقاً في ثنايا هذا الكتاب.

ولقد اعتمدوا الجدية والصدق أسلوباً في التعامل مع الآخرين سواءً من العاملين معهم على ظهر السفينة أو مع التجار الذين يتعاملون معهم في أثناء السفر. ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض المؤشرات على ذلك.

يقول النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - عن البحارة الكويتيين كلمة رائعة تتم عن اعترافه بجليل عملهم، واحترامه لدورهم الرائع في إنجاح صناعة ركوب البحر^(١):
"هم أهل أمانة وذمة وصلاح وصدق ... يفتنون أنفسهم في سبيل سفينتهم وكأنها حلالهم... لهم الشهادة والحق.. أهل صدق ووعد لا يتأخرون عن موعد السفر، تراهم دائماً على أتم الاستعداد للسفر، ودائماً هم مخلصون... لهم الفخر دائماً، نقول ذلك أمامهم وفي غيابهم ... وحين جربنا غيرهم عرفنا فضلهم أكثر".

ولنترك للأستاذ^(٢) علي عبدالرسول يصف النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان، يقول:

(١) هذا الاستشهاد وما يليه مقتبس من كتاب د. يعقوب يوسف جاسم الحجى الباحث في التراث البحري الكويتي بعنوان "نواخذة السفر الشراعي في الكويتي".

(٢) الأستاذ (بالدال المهملة): النجار الذي يصنع السفينة على البر، ويقوم بصيانتها في عرض البحر أو الموانئ التي ترسو بها، ولقد اشتهر في الكويت إستادية كثيرون حتى ازدهرت صناعة السفن الخشبية الشراعية في الكويت منذ القدم.

"حكيم ويحرص على سلامة البحارة والسفينة. فإذا ما أقبل الليل أمر بإنزال الأشرعة تاركاً الشراع العود (الرئيس)، وترك البحارة يمضون الليل بأقل جهد وتعب ممكنين. فلا هو ممن يسابق غيره من السفن، بل يقود محمّله^(١) بتعقل ومهارة.

كما يصف أحد بحارته أخلاقه بأنها طيبة، فإذا ما أراد أن يصدر أمراً بتغيير اتجاه الشراع (الخيور)، فإنه يقف أمام (القائم) ثم (يتحنح) وكأنه يعد نفسه للكلام فيعرف البحارة ما يريده ويستعدون للعمل، فلا هو ممن يكثر الكلام والمزاح، ولا هو ممن يحيط نفسه بعزلة عن البحارة".

كما يصف النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان البحارة الكويتيين بصفات تعكس ما كان يركز عليه وما كان يهتم به، مصداقاً لقول الشاعر العربي: "وكل إناء بالذي فيه ينضح". ولقول المثل العربي: "فاقد الشيء لا يعطيه"، وللقول المأثور: "همك ما أهمك"، أي همك من جنس ما يهملك.

حيث يقول عنهم النوخذة إبراهيم العثمان: "ماكو مثل أهل الكويت ونواخذتها وبحارتها من ناحية الأمانة والصدق ولا أمدحهم إلا لأنهم يستاهلون المدح. والبحارة أولاد حلال وأوادم، وإحنا نحرص على حلالنا وحلال غيرنا. والبحر يعن علي، وأنا دائماً أتذكر البحر ورجاله وأهله. والبحر كله خير وبركة، وكنا دائماً موفقين، والحمد لله على كل حال".

ومن أطرف ما سمعت في وصف نواخذة العثمان بين البحارة الكويتيين - الذين يقيمون النواخذة والسفن في نهاية كل موسم، ويتبادلون وجهات النظر فيما بينهم دون تدخل أو وصاية من أحد - هو قول أحدهم للآخر (أسوق القول كما ورد باللهجة العامية الكويتية الدارجة ثم أشرحه باللغة العربية):

"جانك^(٢) بطيني لا تركب خشب العثمان، وجانك تدور الحساب السنّع بالوفا والتمام اركب وياهم"

(١) المحمل بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الميم الثانية: السفينة.

(٢) بالميم المكشكشة (الفارسية).

أي إن كنت نهماً وممن يبحث عن الطعام الوفير على ظهر السفينة خلال موسم السفر، فلا تنتظم مع البحارة العاملين في السفن التي يقودها نواخذة من عائلة العثمان، وبالمقابل إن كنت تريد أن تأخذ حقاك من عمالك غير منقوص وأن تستلم كل مستحقائك من العمل على ظهر السفينة فالتزم بالسفن التي يقودها نواخذة العثمان.

وتفسير تلك المقولة هو ببساطة كون نواخذة العثمان حكيمين في قيادتهم مقتصدين في مصاريف السفينة، لا يبذرون في صرف الماجلة (مؤونة السفينة من الطعام خاصة)، وبالتالي قد لا يشبع كل بحار بعد الوجبة، لأن الأكل مقدم حسب الحاجة.

ولكن بالمقابل فإن هذا الاقتصاد ينعكس على وفرة المحصول في نهاية الموسم، لأن النواخذة الكريم عندما يسرف في الكرم ويذبح الذبائح للبحارة على ظهر السفينة أو في الموانئ التي ترسو فيها السفينة، إنما يصرفها من حساب السفينة، ونادراً ما تكون من حسابه الخاص، لأنها للجميع وليست له خاصة.

فكم تسابق البحارة إلى الركوب مع نواخذة كانوا يصرفون بشكل كبير حتى إن سكان البنادر (المراسي) التي يصلونها يبشرون بقدم سفنهم لكرمهم وسخائهم، ولكن العبرة في النهاية بمن يوفر المحصول الجيد ولا يسرف في المصروفات النثرية الزائدة.

ومما يؤكد خصلة حسن التدبير والبعد عن الإسراف والتقدير في نواخذة عائلة العثمان الكريمة تأصل هذه الخصلة في جدها الأول بالكويت عبدالعزيز بن عثمان، الذي رغم يسره المادي كان يحرص على عدم تبذير المال وصرفه بلا مبرر.

فقد عُرف عنه أنه لا يتهاون في سياسة توزيع حصص البحارة بالوقت المناسب فور انتهاء عملهم بلا مفاطلة، وقبل أن يجف عرق أحدهم، تطبيقاً لحديث الرسول ﷺ: "أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ"^(١).

لكنه كان - رحمه الله - بالمقابل حريصاً أيضاً على سياسة عدم الإسراف والتبذير في التعامل المادي مع الآخرين، فمن جاء من البحارة ليستلم نصيبه من الأسهم (القلايط) بعد

(١) رواه ابن ماجة في سننه.

حساب حاصل (أرباح) السفينة، ويكون حسابه على سبيل المثال خمسين روبية إلا ربع،
كان يقول له:

"يا ولدي سلّم الربع أولاً واستلم الخمسين، لأن الربع يضيع والخمسين ما تضيع"، الأمر
الذي يؤكد حرصه وحسن تدبيره، مما كان أحد الأسباب التي أدت إلى تفوقه المادي في مدة
قصيرة من الزمن.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فالسبب الأول والرئيس في تفسير تلك المقولة هو ورعهم
وتقاهم وتعففهم عن أن يأكلوا من أموال البحارة والسفينة ولو آردياً واحداً^(١).

ومن المواقف المؤثرة التي تؤكد حرصهم على أداء حقوق البحارة كاملة غير منقوصة، بل
الدفاع عنهم أمام أي طرف آخر ما حدث بين النوخذة الكبير عبداللطيف سليمان العثمان
والتاجر سليمان العبدالجليل، الذي كلفه بنقل بضاعة له من الهند إلى الكويت، وانفقا على
سعر معين لنقل البضاعة، فاعتقد سليمان إن السفر سيّشل تكلفة السفينة والبحارة، بينما
كان يقصد النوخذة عبداللطيف أجره فقط.

وليس ذلك بغريب إذ إن الصفقات عادة ما تتم بكلمة واحدة هي "اعتمد" تقال في الديوانية أو
عمارة الأخشاب أو أي مكان يلتقي فيه الطرفان ويتفقا.

فلما نقل النوخذة عبداللطيف حسب الطلب زماناً ومكاناً، أعطاه التاجر سليمان أجره السفينة
فسأله عبداللطيف عن أجره البحارة، فقال سليمان: "أليست داخلة في أجره السفينة؟" فرد
عبداللطيف: "لا يا أخوي، هذا حقهم ولا يطالبونك فيه يوم القيامة".

فجاء رد سليمان حاسماً فورياً، فدفق ما حدده عبداللطيف كأجره للبحارة، قائلاً: "يا مَعوّد ما
أحط شيء بدمتي".

وفي هذا الموقف دلالة واضحة على دفاع نواخذة العثمان عن حقوق بحارتهم، وبالمقابل

(١) الأردني: أصغر وحدات العملة المستخدمة آنذاك وهي الروبية الهندية، حيث ان الروبية تعادل ١٦ آنة، والآنة تعادل
٤ بيزات، والبيزة تعادل ٣ أرديات. أي أن الأردني يعادل جزءاً من اثنتي عشر جزءاً من الآنة، كما يعادل جزءاً من مائة
واثنتين وتسعين جزءاً من الروبية.

دلالة واضحة على حسن نية تجار الكويت وحرصهم على ألا يشوب رزقهم أي كدر من حرام.

ويتوج موقف نواخذة العثمان من رجالهم البحارة قول النواخذة أحمد عبداللطيف العثمان:
"يقول الناس عن بحارة الكويت: أندب رجالاً ولا تندب دراهم" وذلك حين يتعرضون للمتاعب.

ولعله من المناسب أن نختم هذه الاستشهادات بموقف مؤثر يدل على سمو الأخلاق والشهامة والصدق من رجالات الكويت عامة ونواخذة العثمان خاصة.

يروى النواخذة عيسى عبدالله العثمان^(١) موقفاً حصل له مع والده النواخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان حيث كانا في بومباي يحاولان بيع ما في السفينة من تمر جلباها من شط العرب عام ١٩٣٨م قائلاً:

"لقد كنت مستعداً لتسلم سفينة الوالد والقيام بقيادتها إلى الهند فقد أصبحت لدي المعرفة الكافية والخبرة اللازمة لهذه المهمة. وفي خلال سفراتي مع الوالد تعلمت الكثير من الخبرات والتجارب.

أذكر على سبيل المثال هذه الواقعة التي حدثت لنا حين كنا في بومباي نحاول بيع ما لدينا من تمر عام ١٩٣٨م، فقد عرض علينا التاجر الهندي عبدالشكور مبلغ ١٦.٥ روبية لكل قلة تمر، ولم يحصل بيننا وبينه اتفاق، فذهبنا إلى المسجد لصلاة الظهر، وبعد انتهاء الصلاة ذهبنا إلى التاجر محمد العلي البسام، وهناك عرض علينا التاجر بوشهري مبلغاً يعادل ١٦.٧٥ روبية لكل قلة^(٢) تمر، لكن والدي أجابه بأنه سيبيعه لعبد الشكور بمبلغ ١٦.٥ روبية.

هنا عجبت كثيراً من الوالد وقلت له إن بوشهري قد عرض علينا مبلغاً أفضل، لكن الوالد أصر على بيع التمر لعبدالشكور، وحينما تركنا المكان أمسك والدي بيدي وقال لي: (اسمع

(١) كتاب "المختار في مجاري البحار" دليل الملاحة التقليدية في الكويت - عيسى عبدالله العثمان.

(٢) القلة: هي وحدة تحميل ونقل التمور، وتقارب الصفيحة في الحجم والمسماة باللهجة العامية الدارجة " تنكة"، وهي كيس اسطواني يحتوي التمر ويزن ٨٧.٥ رطلاً انجليزياً، أي ٣٧.٥ كيلو جراماً.

يا ولدي، إنا ناس نروح ونركب البحر، وراس مالنا سمعتنا وحسن نيتنا. أنا كنت قررت أن أبيع التمر لعبدالشكور وأنا في المسجد بعد الانتهاء من الصلاة ولا أريد أن أبطل نيتي، والله أعلم بما في القلوب).

الحذق والمهارة البحرية:

وأما فيما يتعلق بحذقهم ومهارتهم العالية في صناعة ركوب البحر، فلا تعرف من أين تبدأ في الحديث عن نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان. فلقد تميزوا بإتقان عملهم وحرصهم على تعليم بعضهم حتى توارثوا هذه المهنة وتناقلوها. ولعله من المناسب في هذا السياق أن نورد - على سبيل المثال لا الحصر - ما يلي من الشواهد:

يلخص النوخذة بدر عبدالوهاب القطامي وصفاً رائعاً للنوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان حين يقول عنه "إنه هو شيخ النواخذة" وهي كلمة جامعة لمعانٍ كثيرة، تجمع المعاني الفنية في إتقان ركوب البحر، والجوانب الإنسانية في فن سياسة البحارة وكريم العشرة معهم.

ويتحدث النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان في مقابلة تلفزيونية أجريت معه عام ١٩٦٦م من قبل المؤرخ العم سيف مرزوق الشملان عن موقف حدث له عندما ترك السفر الشراعي وكان راجعاً في باخرة مع صديقه محمد ثنيان الغانم.

فقد التبس الأمر على قبطان الباخرة وهو بالقرب من البحرين، فلاحظ ذلك النوخذة عبداللطيف الذي همس في أذن صديقه محمد ثنيان، فما كان من صديقه إلا أن أرسل من يقول للقبطان إنه مخطئ في مساره، ولما وصل الخبر للقبطان أرسل في طلب النوخذة عبداللطيف، ولما تحدث معه عرف انه أمام ملاح يعرف ما يقوله، فقد ثبت ما قاله له بعد ذلك.

ويضيف النوخذة عبداللطيف أنه لم يكن بوده أن يتدخل في شؤون القبطان، لكن صديقه محمد ثنيان، أصر على ذلك وطلب منه أن يذهب للقبطان للتباحث بهذا الشأن.

وهذا النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان يركب البحر مع والده النوخذة عبدالرحمن إبراهيم

العثمان في سفينة كان يملك نصفها، ويملك النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان النصف الآخر.

ولما قارب سنه ستة عشر عاماً ركب مع والده في سفينة كان والده يملك نصفها، والنوخذة عبداللطيف العثمان النصف الآخر، وحمولتها حوالي ٢٧٠٠ من^(١) وخلال هذه الرحلات علمه والده قيادة السفن الشراعية. وحين بلغ الثالثة والعشرين تطلع إلى قيادة سفينة شراعية بنفسه، فوضعه النوخذة عبداللطيف نوخذة في سفينة له اسمها (العثماني)، وهي ذات حمولة تقدر بحوالي ٢٥٠٠ من. وحين شاهده النوخذة عبدالوهاب يقود هذه السفينة قال له:

"أنت اليوم نوخذة يا إبراهيم، وتحت إمرتك ٢٥ بحاراً، وعمرك لا يتعدى ٢٤ عاماً، توكل على الله، أنت أصغر من في اليوم". وكان النوخذة عبدالوهاب يقود اليوم "تيسير" آنذاك.

وفي معرض البحث عن الرزق الحلال مهما كان صعباً، يروي النوخذة عيسى عبدالله العثمان - فيما ينقله الأخ الباحث يوسف الشهاب^(٢) - قصته التي اضطر فيها إلى تحميل بضاعة لم يتعود حملها على السفينة بل اضطرته الظروف إلى ذلك، قائلاً:

"سافرت عام ١٩٤٣م في بوم اسمه "المحمدي" حيث غادرت الكويت دون أي بضاعة لكساد السوق في ذلك العام، وعند وصولنا إلى بومباي قمنا بشحن بضاعة لأحد التجار بمبلغ (١٥ ألف روبية) وتوجهنا بها إلى البصرة وقمنا بتنزيله، وشعرت بعد ذلك وأنا بالبصرة بعدم الرغبة في العودة إلى الكويت دون توفر رأس مال معي أو لدى البحارة نظراً لكساد السوق، أضف إلى ذلك أنني كنت أفكر بالفراغ الذي سوف أعانيه حين العودة إلى الكويت دون عمل، وحدث أن جاءني أحد العراقيين من الموصل وأنا بالبصرة، وطلب مني نقل

(١) المن: أحد الأوزان المستخدمة في تحميل البضائع في السفن، ويعادل ١٤٠ رطلاً إنجليزياً أو ١٦٨ رطلاً (٧٥ كيلو جراماً) للأكياس المعبأة، وقد اصطلح البحارة الكويتيون على أن الأكياس ذات التعبئة بالمواد الخفيفة يكون المن فيها ١٤٠ رطلاً كالفحم والقمح والشعير والبصل ونحوها، أما المواد الثقيلة مثل السكر والرز والطحين والماش والملح ونحوها فإن المن فيها يكون مقداره ١٦٨ رطلاً. وقد بدأ التداول بالمن كوحدة من عيارات الأوزان في ١٨ مايو ١٩٣٧م وسمي بالمن وهي لفظة هندية (maund) وقد انتهى التعامل بالمن في مارس ١٩٦٤م علماً بأن البحارة الهنود قد اصطاحوا بأن يكون المن عندهم مقداره مائة رطل دون التفريق بين المواد الخفيفة والثقيلة - الموسوعة الكويتية المختصرة - حمد محمد السعيدان - الجزء الثالث - ص ١٥٧٧.

(٢) رجال في تاريخ الكويت - الجزء الثالث - الكويت.

تسعة خيول^(١) إلى بومباي وبالفعل شحنها واستطعت بذلك الحصول على مبلغ جيد من المال من تلك الرحلة وهو تسعمائة (٩٠٠) روبية، لكل حصان مائة (١٠٠) روبية، واستطعت بذلك توفير الحاجات الرئيسية للرحلة، وكذلك احتياجات البحارة ومستلزماتهم. وحيث إن السفينة لم تكن مجهزة البتة لنقل مثل هذا النوع من البضاعة فقد بدأت بإعداد العدة لتهيئتها لتلك المهمة الجديدة عليها.

فقد ذهبت إلى المرحوم عبدالله بن محري الذي كان موجودًا بأمالك الصقر بالبصرة، وأخذت منه "طين" ليكون أرضية للخيول، وركب معنا أيضًا سايس للخيول خلال الرحلة، كما ملأت ما كان لدينا من تواني (خزانات) بالماء العذب لتشرب الخيول، وبعد كل هذه الإجراءات غادرنا ميناء البصرة. وأذكر ونحن في عرض البحر خلال هذه الرحلة أن شعر سايس الخيول بالدوار، فسقط على سطح السفينة وأسرع إليه أحد البحارة، وأخذه إلى - تانكي - الماء فغسل وجهه ورش على رأسه بعض الماء حتى بدأ يستعيد عافيته، وبعد أن أصبح السايس قادرًا على الكلام كانت أولى كلماته لنا: "شلون زلم إنتو يا أهل البحر، حتى ملابسني شلتوها وغسلتوني ولبستوني هدومي .." وشكرنا على ما قمنا به من رعاية له بعد الذي تعرض له.

وبعد وصولنا كانت الكويت ومنطقة الخليج عامة تعيش حالة من الفقر والمجاعة، فالناس تطحن الشعير لتصنع منه الخبز وتأكله، والأطعمة غالية الثمن. حتى الملابس كانت شحيحة والأسواق وأسعارها مرتفعة، في وقت كانت فيها الظروف التجارية في بومباي أفضل مما كانت عليه خلال الحرب الثانية، فقد انخفضت أسعار السلع هناك وتوفرت أيضًا ووجدنا - كما يقول أبو فيصل - أنه من المناسب شحن مواد غذائية وأقمشة من بومباي إلى الكويت والبصرة لبيعها. وبالفعل قمنا بذلك كله وعدنا من بومباي إلى الكويت والبصرة حيث بعنا ما كان معنا من بضائع في تلك الرحلة".

ولئن كنا هنا في هذه المقدمة لسنا في معرض الاستطراد والتفصيل في رحلات أحد النواخذة من عائلة العثمان، إلا أننا سنفصل بعض الشيء مدى ارتباط هذا الرجل بالبحر حتى عشق سفينته وأصبحت جزءاً من أسلوب حياته، والنمط الذي اعتاده لطلب الرزق

(١) انظر سيرة النواخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان لاحقاً في هذا الكتاب لترى كيف حمل ضعف هذا العدد من الخيول على ظهر السفينة "تيسير".

الحلال. ولندع الحديث للأخ الفاضل الباحث في التراث الكويتي د. يعقوب الحجى ليروي لنا هذا المثال في حذق النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان كمثال لبقية النواخذة من أسرة العثمان الكريمة الذين ذكرناهم آنفاً، ومنعاً للتكرار نرجئ التفصيل فيها عندما نتحدث بالتفصيل عن النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان، وذلك في معرض حديثنا عن نواخذة العثمان (ص)

أما النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان فهو من نوادر النواخذة الكويتيين الذين يجرعون على دخول ميناء المنامة في البحرين ليلاً حيث تكثر الشعب المرجانية (القصاصير: جمع قصار بكسر القاف وتشديد الصاد مع فتحها)، وله في ذلك موقف مشهور بين أهل الكويت سنتعرض له بالتفصيل لاحقاً في ثنايا هذا الكتاب.

وكذلك قدرته على سبق أفضل النواخذة الذين كان يخشى معايرتهم له بسبقه في الوصول إلى أهدافه البحرية من الكويت أو إليها، وهذا ما سنفصله لاحقاً في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولعله من المناسب في ختام هذه العجالة التي تناولت الحديث عن حذق النواخذة من عائلة العثمان الكريمة أن نشير إلى مثال من دقتهم والتزامهم بالعرف البحري - الذي يلزم النواخذة الجادين به أنفسهم - وهو كتابة يوميات السفر وأهم تفاصيله من حيث الوجهة والمسير فيما يسمى باسم "الروزنامة" وهي سجل يومي مفصل بأحداث الرحلة ومسارها ووقوفها.

ولقد وثق الأخ الفاضل د. يعقوب الحجى روزنامة النوخذة عيسى عبدالله عبدالعزيز العثمان وهي تتسم بالدقة المتناهية في الوصف لتفاصيل السفر البحري خلال السفر أو التوقف في الموانئ المختلفة. ورغم توثيق د. يعقوب الحجى روزنامات أخرى لنواخذة آخرين عملوا في السفر الشراعي إلا أن المتصفح لها جميعاً في آن واحد يلحظ الفارق الواضح بينها وبين روزنامة النوخذة عيسى العثمان من حيث الحجم وجزالة المحتوى.

وفي هذه الروزنامة وصف تفصيلي دقيق لخمس عشرة رحلة بحرية للنوخذة عيسى عبدالله العثمان منذ أن كان متعلماً في سفينة والده النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان في سبتمبر عام ١٩٣٧م إلى آخر رحلة له كنوخذة في سبتمبر عام ١٩٥١م بمعدل رحلة سنوياً.

ويقع الكتاب في أربعمئة وثلاثين صفحة مليئة بالتفاصيل والخرائط الموضحة لكافة البنادر (المراسي)، التي يمكن التوقف بها عند الحاجة، ابتداءً من بنادر شط العرب وبر فارس

مروراً بالكويت وسواحل الخليج العربي ثم جميع بنادر سواحل جنوب إيران على المحيط الهندي حتى الوصول شرقاً إلى بنادر الهند كلها، وكذلك غرباً إلى بنادر سواحل إفريقيا مروراً بسواحل اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية، وقد انتقينا قلة منها هنا للتدليل والبيان. والآن نعود إلى بداية ما أردنا تأكيده في هذه الإستشهادات وهو حذق النواخذة من عائلة العثمان الكريمة لصناعة ركوب البحر. ولعل المؤشر الأوضح على ذلك هو ضخامة عدد السفن التي امتلكوها وأهمها^(١):

- ١- مساعد: وهي أول سفينة امتلكها النوخذة عبدالعزيز بن عثمان عميد عائلة العثمان بعد قدومه من نجد إلى الكويت واستقراره بها وتعلمه ركوب البحر، وركبها النوخذة فلاح الخرافي عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) ثم سرعان ما تعلم النوخذة عبدالعزيز العثمان قيادة السفينة فتسلمها ليقودها بنفسه.
- ٢- موافج (الأول): عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) وحمولته ١٤٠٠ من.
- ٣- موافج (الثاني): الذي تم بناؤه على إثر غرق موافج الأول قبالة ساحة المهرة في اليمن وذلك عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م)، وقد كان من أفضل خشب^(٢) الكويت وأطولها عمراً.
- ٤- تيسير: وقد تم بناؤه في بداية الحرب العالمية الأولى، وهو من أكبر سفن الكويت آنذاك حيث كانت حمولته ٥٠٠٠ "مَن" تقريباً.
- ٥- فتح الكريم.
- ٦- فتح الرحمن: عام ١٩٣٦م وحمولته ٤٠٠٠ من.
- ٧- العثماني: وحمولتها ٢٥٠٠ من.
- ٨- فتح الباري: وحمولتها ٢٣٠٠ من.
- ٩- الباز.

(١) كثيراً ما يتكرر مسمى السفن لأكثر من مالك، فالتسمية اختيارية، ولا يوجد سجل تجاري رسمي آنذاك يمنع تكرار الأسماء مثل ما هو حاصل الآن حتى للقوارب الصغيرة حيث يضطر أصحابها إلى اللجوء إلى تسميتها بأسماء غريبة أو طريفة. ومن الملاحظ أن أسماء السفن تأخذ في غالبيتها الطابع الديني مثل: فتح الخير، وفتح الرحمن، وفتح الكريم، أو تيسير، وهي كلها أسماء لخشب العثمان، ومن غير خشب العثمان: أمل الرحمن، والمحمدي، والهاشمي، والعلوي والمهلب، والميمون (أي المأمون)، والفاروق، وطارق، وقتيبة، والتوكلي، وزباد، والمثنى، وأسامة. ومع ذلك فإن كثيراً من السفن الكويتية كانت تحمل أسماء أصحابها أو أسماء مشتقة منها مثل منصور والناصري.

(٢) الخشب: السفن، وربما أطلق هذا الاسم على السفن لكونها مصنوعة من الخشب بشكل كامل حيث لم تدخل المعادن سوى في صناعة أجزاء بسيطة جداً منها وأهمها المسامير.

١٠-المحمدي (الأول).

١١-المحمدي (الثاني).

١٢-السالمي.

١٣-سهيل.

فضلاً عن بعض أبوام الماء التي لم يحفظ التاريخ أسماءها لأنها كانت تستخدم لجلب الماء من شط العرب إلى جون الكويت، وهي مسافة بسيطة إذا ما قيست بالمسافات التي تقطعها سفن السفر التجاري. وهنا نكون قد ختمنا الحديث عن الجانبين اللذين توفرا بحمد الله وتوفيقه في نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان الكريمة ونلخصهما فيما يلي:

١- الصدق وحسن النية.

٢- الحذق والمهارة البحرية.

وعندما يجتمع الاثنان، تُرى ماذا يحمل التاريخ عن رحلات نواخذة السفر من أفراد هذه العائلة الكريمة في السفر؟

لقد حفظ التاريخ لنا أنه قلما تعرض أحدهم - رغم كثرة عددهم - إلى حادث كبير له قيمة تذكر طوال عمله في مهنة السفر. وعندما نقول ذلك فإننا نعلم ما حفل به التاريخ من أحداث جسام تعرض لها غيرهم في عرض البحر.

وأهم أنواع هذه الحوادث الجسيمة ما يلي:

- غرق السفينة (الطبعة).

- انكسار سارية السفينة (الصاري - الدقل).

- تمزق الشراع.

- اصطدام السفينة بالصخور أو الشعاب المرجانية (القصاصير والفسوت) في المناطق الضحلة التي لا ترى فيها هذه العوائق الطبيعية.

- تسرب المياه إلى جوف السفينة بشكل أكبر من المعدل المعتاد، والذي يقوم بحارة السفينة بنزفه (أي بنزحه) بشكل رتيب ضمن فقرات برنامجهم اليومي المحدد كجزء من إجراءات الأمن والسلامة، وصيانة السفينة .

- إصابة السفينة بخروق صغيرة تحت سطح الماء بسبب اصطدام سمك من نوع معين مدبب الرأس بقوة في جسد السفينة، وهو سمك معروف بمقدمته الحادة القوية التي قد تشبه أحياناً في حدتها وقوتها "المسمار" ويسمى "السلسال".

وهذه هي أهم الحوادث الطبيعية التي تحدث لأسباب فنية طبيعية.

وقد تتعرض السفينة لنوع آخر من الحوادث، وهي الحوادث المفتعلة مثل:

- أعمال القرصنة عند شط العرب أو في عرض البحر (ما تعرض له النوخذة علي النجدي - على سبيل المثال)، وخصوصاً قراصنة البحر في الفترة التي ترسو فيها السفن الكويتية أياماً وليالي قد تصل إلى أسبوعين أو شهر انتظاراً لتجهيز التمور لتحميلها، وبيعها في الهند أو اليمن أو إفريقيا، وقد كان الكويتيون يسمون هؤلاء القراصنة باسم "الدقاقة" بتشديد القاف الأولي وفتح الثانية.

- ضرب السفينة من قبل غواصات الجيوش المتحاربة إبان الحرب العالمية الثانية في أعماق المحيط الهندي (ما تعرض له النوخذة محمد الجار الله على سبيل المثال).

إن المتأمل في السجل الكامل لصناع التاريخ البحري الكويتي من نواخذة السفر الشراعي يلحظ بجلاء ووضوح كثرة أسماء النواخذة من عائلة العثمان، فضلاً عن بعض العائلات الكويتية الأخرى مثل القطامي والعيسى والعسوسي والإسماعيل والمبارك والشاهين^(١).

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على التواصل بين أجيال هذه العائلات والمتمثل في حمل الرسالة، ووراثة المهنة أباً عن جد، وأخاً عن أخ، ولقد أقرأ من هذه المواقف قراءات كثيرة:

إنني أقرأ من ذلك الوفاء بينهم... فمن تمتع بعلم وخبرة لا يبخل به أبداً عن أقرانه من أقربائه وغيرهم، فعلموا بعضهم حتى تخرجت الأجيال على يد الأجيال التي سبقتها، كما أقرأ الإيثار بالعلم وعدم حبسه عن الآخرين، وبالنسبة للتدريب كذلك. وهكذا يسلم كل جيل راية قيادة السفن إلى الجيل الذي يليه من خلال التدريب العملي والاحتكاك اليومي والمعاشية المباشرة. كما أقرأ من ذلك الإقبال الشديد على مهنة "التنوخذ" من قبل رجالات هذه العائلات وبالتالي تشجيع أهلهم إياهم على تعلم هذه المهارة وامتلاك هذه الملكة.

(١) لمعرفة تفاصيل أسماء النواخذة من العائلات الأخرى يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم في هذا المجال "نواخذة السفر الشراعي في الكويت" د. يعقوب الحجى - شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية - الكويت ١٩٩٣م.

وإذا أتينا بشيء من التفصيل على أسماء النواخذة من عائلة العثمان لوجدناهم ستة عشر
نوخذة هم (حسب ترتيب تاريخ الميلاد) كما يلي:

- ١- النوخذة عبدالله بن عثمان (١٨٤٢م)
- ٢- النوخذة عبدالعزيز بن عثمان (١٨٤٥م)
- ٣- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان (١٨٦٧م)
- ٤- النوخذة محمد سليمان العثمان (١٨٧٠م)
- ٥- النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان (١٨٧٢م)
- ٦- النوخذة عبدالرحمن داوود سليمان العثمان (١٨٩٢م)
- ٧- النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان (١٨٩٥م)
- ٨- النوخذة غانم علي العثمان (١٩٠٠م)
- ٩- النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان (١٩٠٦م)
- ١٠- النوخذة يوسف محمد سليمان العثمان (١٩١٠م)
- ١١- النوخذة علي سليمان علي العثمان (١٩١١م)
- ١٢- النوخذة إبراهيم عبدالرحمن إبراهيم العثمان (١٩١٩م)
- ١٣- النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان (١٩٢٣م)
- ١٤- النوخذة عيسى عبدالله عبدالعزيز العثمان (١٩٢٣م)
- ١٥- النوخذة سليمان غانم علي العثمان (١٩٢٦م)
- ١٦- النوخذة داوود عبداللطيف سليمان العثمان (١٩٣٠م)

وليس بغريب لهذا السبب أن يتعارف الناس على تسمية عائلة العثمان هذه باسم العثمان
النواخذة تمييزاً لها عن العائلات الأخرى التي تشتهر بالاسم نفسه، وذلك لكثرة من ظهر
من بينهم من كبار نواخذة السفر الشراعي في تاريخ الكويت منذ بداية قدومهم من نجد إلى
الكويت واستقرارهم بها.

توافق عجيب

قليلاً ما تحدث في هذه الحياة موافقات واضحة تشد إليها الناظرين وتلفت انتباههم لأن مفردات الحياة وأحداثها كثيرة جداً ولا تأتي أحداثها بالضرورة على نسق واحد. غير أننا في حالة نواخذة السفر الشراعي من أسرة العثمان الكريمة أمام حالة لطيفة وعجيبة من حيث التوافق الذي سنحاول تقديم تفسير منطقي وواقعي له.

فمن الجدير بالذكر هنا أنني قد وجدت تزامناً يستحق الوقوف، وتوافقاً يقتضي التأمل بين أن عائلة العثمان قد ضمت أكبر عدد من نواخذة السفر الشراعي وبين أن رجالاتها ونساءها على السواء قد بنوا أكبر عدد من المساجد في الكويت، تبنيتها شخصيات من عائلة واحدة، وهذه مناطق الكويت تشهد لهذه العائلة ببذلها في سبيل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن ضمن ما أمكننا حصره من بيوت الله تعالى التي بناها آل عثمان الكرام في الكويت ما يلي: (مرتبة حسب تاريخ الإنشاء):

- ١- مسجد عبدالعزيز العثمان بمنطقة القبلة.
- ٢- مسجد عبداللطيف سليمان العثمان في ضاحية عبدالله السالم.
- ٣- مسجد عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان في جامعة الكويت بمنطقة الخالدية.
- ٤- مسجد طيبة عبدالوهاب العثمان بمنطقة الري.
- ٥- مسجد بيبي عبدالعزيز الرشيد البدر زوجة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بمنطقة الصباحية.
- ٦- مسجد عيسى عبدالله العثمان بمنطقة خيطان القديمة.
- ٧- مسجد عيسى عبدالله العثمان بمنطقة قرطبة.
- ٨- مسجد عيسى عبدالله العثمان بمنطقة الخالدية.
- ٩- مسجد موزي عبداللطيف العثمان زوجة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بمنطقة الأندلس.

وكذلك أمكننا حصر المساجد التالية خارج الكويت والتي بناها عبدالوهاب العثمان:

١- مسجد شيخة السبيعي والدة المرحوم النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان (في السودان).

٢- مسجد المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان بمنطقة سيفة الشيخ في عمان.

٣- مسجد المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان في مسقط.

ولعل السبب في كثرة المساجد التي بناها آل عثمان واضح وجلي، فالتنوخذ^(١) ملكة قيادية غالباً ما ينمو معها طبع الأصالة والكرم وحب الخير والريادة بين الناس، ولا خلاف على أن في بناء بيوت الله تعالى تيسيراً للشعائر التعبدية للناس، وهو أكبر دليل على هذا الحب.

وليس بغريب علىّ أبداً عزيزي القارئ أن يتوافق كون عائلة العثمان من أكثر العوائل التي ظهر منها نواخذة سفر، وظهر منها أيضاً من بنى بيوتاً لله تعالى، فكان عدد ما بنته من بيوت الله تعالى في الكويت أكبر عدد للمساجد بنته رجالات ونساء من عائلة واحدة في الكويت كما أسلفنا آنفاً،

سجل حافل لعائلة العثمان لا نستطيع حصره في هذه العجالة وقد لخصنا ما تيسر من كريم مناقبها وأصيل رجالاتها، وكم أخرج رحم الكويت من عائلات عريقة قدمت للوطن رجالات حققوا الإنجازات فكانت الكويت الماضي، وكويت الحاضر، وستكون الكويت المستقبل إن شاء الله.

(١) حرفة قيادة السفينة (مهنة النوخذة).

.. وتوافق أعجب

لم يكن التوافق الذي أشرنا إليه آنفاً بين كون عائلة العثمان قد قدمت للمجتمع الكويتي أكبر عدد من نواخذة السفر الشراعي وكونها أيضاً قد بنت أكبر عدد من المساجد بنته عائلة واحدة، هو التوافق الوحيد، بل لدينا توافق آخر قد يكون أجدر بالملاحظة والتوثيق، حيث إن التوافق المشار إليه أعلاه قد يُعزى - كما أشرنا في ذلك الموضوع - إلى التوافق بين الملكة القيادية في شخصية النواخذة وبين حبه للخير والريادة بين الناس في عمل الخير والسبق إليه.

وهذا ما يمكن أن يتيسر للنواخذة باعتبار أن طبيعة عمله تؤدي في الغالب إلى رفع مستواه المعيشي بالنسبة لأقرانه، حيث إن المردود المادي من حاصل السفينة بالنسبة للنواخذة أفضل بشكل واضح من المردود المادي بالنسبة لبقية البحارة وطاقم السفينة، كما سنبين بالتفصيل لاحقاً في هذا الكتاب (انظر ص).

ولا توجد في سهولة الربط بين النواخذة في عالمي الغوص والسفر، والطواویش في عالم الغوص، وملاك السفن في عالم السفر، وبين وجهاء البلاد وأعيانها والميسورين من أهلها، إنهم في الغالب يشكلون الشريحة نفسها.

أما التوافق الآخر الذي نحن بصدده في هذا السياق فهو توافق لا يقتضي بالضرورة الارتباط، بل هو في العادة مدعاة للاختلاف لا للتوافق مع ما هو ملحوظ في حالة عائلة العثمان.

فحين يرتفع المستوى المعيشي للفرد - أي فرد - في المجتمع قد يكون أكثر تفرغاً للولوج في عالم السياسة بشتى مشاربها ومذاهبها، فإما أن تستقطبه السلطة التنفيذية بحقيبة وزارية أو يستطيع الوصول إلى السلطة التشريعية إذا ما تيسرت له الظروف لأن يكون نائباً في مجلس الأمة.

لكن المستغرب في حالتنا هو كون عائلة العثمان من العائلات الميسورة منذ أن فتح الله على كبيرها وعميدها المرحوم النواخذة عبدالعزيز بن عثمان ثم على ابن أخته عبداللطيف ومحمد ثم على ابنه عبدالله وعبد الوهاب، ولكنها مع ذلك لم يستقطبها عالم السياسة البتة، لا من حيث تسلم أحد الحقايب الوزارية أياً كانت، ولا من حيث ولوج أحد رجالها باب السلطة

التشريعية، ولا حتى النزول (الترشيح) في انتخاباتها،^(١) رغم الحضور الاجتماعي الكبير لرجال هذه العائلة الكريمة.

ولعلنا نبحث عن تفسير لهذه الظاهرة قليلة الحدوث في المجتمع الكويتي، فيندر أن نجد عائلة بهذا الحجم العددي، والمكانة الاجتماعية والمستوى المادي لم يلج أحد أفرادها عالم السياسة من أي أبوابها رغم كثرة هذه الأبواب، ووجود النزاع النفسية المشروعة للجميع في ولوجها من باب تحقيق المراد وإثبات الذات ونيل حظ النفس ومرادها.

ولو فعل هؤلاء فلا غضاضة ألبته ولا حرج، فهو حق مشروع كفله الدستور الكويتي لجميع المواطنين الكويتيين، غير أنهم أعرضوا عن ذلك .

وقبل أن نتعرض إلى أسباب ذلك الإعراض نثبت هنا في هذا السياق أننا لا نجامل أو نبتغي مصلحة من أحد من هذه العائلة الكريمة، ولطالما امتدحناهم في ثنايا هذا الكتاب ولم نأت بغير ما فيهم، بل وصفناهم بما هو واقع قد تواتر على ذكره وإقراره أهل الكويت جميعاً ممن عرفهم وخالطهم.

ولقد أحببناهم لوجه الله تعالى بما عملوا وأنجزوا للوطن فلم يجمعنا بهم سوى حب الكويت، ولن نبليهم مبلغ الكمال الملائكي الجبلي، فهم بشر كغيرهم قد يعترهم ما يعثور سائر البشر، إلا أن الأمور تقاس بالأغلبية والعموم ولا يكفي لفرد أو فردين في عائلة كريمة ضخمة العدد واسعة الانتشار أن يكسر القاعدة، ولعلنا نستعير هنا المفهوم الفقهي عندما نقول إن الماء الجاري لا يكدره الخبث، والمفهوم الأصولي عندما نقول تقاس الأسرة بحسناتها وسيئاتها فإن غلبت حسناتها جبت سيئاتها.

نقول وبالله التوفيق - أن سبب هذا الإعراض عن ولوج السياسة بشتى صورها هو إيثارهم البعد عن المشكلات، وتفضيلهم تجنب القيل والقال الذي لا يسلم منه كل من يتصدى للسياسة، وقد انشغلوا في الوقت نفسه بالأعمال التجارية الحرة وبالتحديد انشغل معظمهم في

(١) للدقة والأمانة والتاريخ نذكر استثناءً واحداً من ذلك وهو ترشيح المرحوم النوخدة يوسف محمد سليمان العثمان في انتخابات مجلس الأمة الأول عام ١٩٦٣م، وكان ترتيبه في تلك الانتخابات "الإحتياطي الأول".

تجارة العقار وتفرغوا لها بعد توقف السفر الشراعي في الكويت بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ولم تكن أجيالهم المتقدمة تحرص على المناصب ولا تتكالب عليها.

ولم يكن ذلك عن ضعفٍ أو قصور، ففيهم المتميزون والنجباء من طبيب ومهندس وسفير وقاضٍ ومحامٍ وتاجر ومدير ومصرفي وسائر مجالات التميز، غير أن الأجيال الحالية قد توارثت حب العمل الصامت المنتج بعيداً عن الاحتكاك ومجالاته وما أكثرها في عالم السياسة.

وفي الختام أود أن أؤكد أن في مثل هذه التركيزية المجردة مسؤولية جسيمة على الأجيال اللاحقة من هذه العائلة الكريمة، لكي تحافظ على هذا الإرث المبارك من السيرة الحسنة والعصامية والريادة بين الناس، ولعلها تشكل لأبنائها وكذلك بناتها قيمة عالية للحفاظ على هذا السيرة الحسنة، وتوصيل الرسالة إلى أجيالها اللاحقة كما استلمتها ناصعة جميلة من أجيالها السابقة.

ولعل هذا ما يمكن توجيهه كذلك إلى كثير من شباب العائلات الكويتية الكريمة.

**التعريف بنجد
الموطن الأصلي لعائلة العثمان**

عرّفنا في صدر الكتاب بما سمعناه من شهادات واضحة للعيان نطقت بها أمواج البحر وهي تتكسر على صخور نقعة العثمان على "سيف"^(١) منطقة القبلة.

لقد قدمنا هذا التعريف بالريادة البحرية لنواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان الكريمة لكي نبرز مكانتهم ودورهم، لأن المرء يعرف أول ما يعرف بأعماله وإنجازاته، مصداقاً لقول الشاعر العربي:

إن الفتى من قال: ها أنا ذا ليس الفتى من قال كان أبي

والآن نخرج على التاريخ والجغرافيا في حياتهم، وكثير من الناس من له تاريخ وجغرافيا يذكرها ويتناقلها لكن بدون إنجازات تذكر، صحيح أن له بالفعل تاريخاً وجغرافيا ولكنه كان على هامشهما، ولم يكن له جهد في صناعتها ولا أثر.

وإن تاريخ عائلة العثمان وجغرافيتها ينبعان من موطنها الأصلي "سدير" في منطقة نجد، وهذا شأن سائر العائلات الكويتية ذات الأصول العربية، والقبائل العربية التي تحضرت واستقرت في الكويت، فكلها قدمت من نجد، حيث استقرت في أنحاء شبه الجزيرة العربية منذ القدم، قبل الإسلام وبعده، وتشابكت أنماط هذا الاستقرار في كل مناطقها بين تجمع قبلي أو إقليم معين، وبين اختلاط القبائل بالمصاهرة والتجارة والمصالح المشتركة في المنطقة نفسها، وهو حراك اجتماعي متنوع لم يحالفه الحظ بالدراسة والتحليل الكافيين، والسبب الرئيس هو عدم الاهتمام بتوثيق تفاصيل الحياة الاجتماعية، فضلاً عن السياسية في الفترات السابقة. ولعله من المناسب في البداية - وقبل الحديث عن تاريخ عائلة العثمان - أن نعرف بمنطقة نجد التي قدمت منها، ثم نخرج بصورة مركزة بشكل أكثر على موطنها الأصلي "سدير" مسقط رأس أجدادها.

ونحن في هذا السياق نستعين بأدبيات الموضوع مستفيدين من البحوث المركزة والدقيقة في هذا الباب، ومنها البحثان الرائعان اللذان كتبتهما كل من الباحث الأستاذ فهد عبدالعزيز الكليب في كتابه الموسوعي "الزلفي - أصالة الماضي.. وإشراق المستقبل"^(٢) وسماحة الشيخ

(١) السيف (بتشديد السين مع كسرهما): شاطئ البحر.

(٢) ص ٢٣ - ٢٥ من مقدمة الموسوعة.

عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح البسام في موسوعته المكونة من ستة أجزاء والمعنونة باسم "علماء نجد خلال ثمانية قرون" (١) على الترتيب.

التعريف الجغرافي والتاريخي

نجد هضبة وسط شبه الجزيرة العربية بين الحجاز والدهناء، تحف بها الصحراء من جهاتها الثلاث: فالربع الخالي يحيط بها من الجنوب، والنفود الكبرى تحدها من الشمال، وتفصلها عن بلاد الشام والعراق. والدهناء تحدق بها من الشرق، أما من جهة الغرب فتحجزها جبال الحجاز عن البحر، وهي تتصل بها وتلتصق فيها (٢).

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجدٍ؟ لقد زادني مسراكِ وجداً على وجدي

وكلما تذكرت نجداً، تذكرت أبيات الصّمة الفشيري، التي يودّع بها نجداً:

وقل لنجدٍ عندنا أن يودّعنا	قفا ودّعنا نجداً ومن حلّ بالحمى
وما أحسن المصطاف والمتربعا	بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرّبا
وجعت من الإصغاء ليّتا وأخدعا	تلفت نحو الحي حتى وجدتي
على كبدي من خشية أن تصدعا	وأذكر أيام الحمى ثم أنتهي
عليك ولكن خل عينيك تدمعا	وليست عشيات الحمى برواجع

ونجد: بفتح أوّله وسكون ثانيه، قال النضر: النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف، والجماعة النجاد، ولا يكون إلا قفاً أو صلابة الأرض في ارتفاع من الجبل معترضاً بين يديك، يرد طرفك عما وراءه.

قال الأصمعي: هي نجد عدة، منها: نجد برق، وادٍ باليمامة، ونجد خال، ونجد كبكب، ونجد مريع، ويقال: فلان من أهل نجد، وفي لغة هذيل والحجاز: من أهل نجد، قال أبو ذؤيب: في عانة بجنوب السّي مشربها غور ومصدرها عن مائها نجدُ قال: كل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، فهي ترعى بنجد وتشرب بتهامة.

(١) ص ٧ - ١٤.

(٢) شبه الجزيرة العربية - محمود شاعر - ص ١٣.

ويقول صاحب معجم البلدان^(١): إنه لم يذكر الشعراء أكثر مما ذكروا نجداً وتشوقوا إليها من الأعراب المتضمرة:

أكرر طرفي نحو نجد وأنتني
حنيئاً إلى أرضٍ كأن ترابها
بلاد كأن الأقحوان بروضة
أحن إلى الأرض الحجاز وحاجتي
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعي

إليه، وإن لم يدرك الطرف، أنظرُ
إذا مُطرت عود ومسكٍ وعنبرُ
ونور الأقاحي وشي بردٍ محبرُ
خيام بنجد دونها الطرف يقصرُ
أجلُ لا، ولكني إلى ذلك أنظرُ

وقال أعرابي آخر:

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
وريح صبا نجد إذا ما تنسمت

إذا هضبته بالعشي هواضبُهُ
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبُهُ

وقال الصمة القشيري:

سقى الله نجدًا مع ربيع وصيف
وماذا يرجى من ربيع سقي نجدًا؟

يقول عبدالله بن خميس في معجمه^(٢): قديماً كانت نجد جزءاً من اليمامة، وكانت اليمامة تشكل القسم الغربي من العروض، وما كان خلف اليمامة من الشرق مما نسميه الآن: (المنطقة الشرقية) هو العروض، ويبدو أنه سمي كذلك لاعتراض اليمامة حول جبلها من الشمال إلى الجنوب، واعترضوا أقاليم المنطقة الشرقية كذلك، وما بين هذه وهذه داخل فيها فسمي الكل عروضاً، وقد تغير مدلول هذه الأسماء بمرور الزمن واتسع أخيراً مدلول (نجد). وتضم منطقة نجد بلداناً وقرى ونخيلاً ومزارع وأودية وجبالاً ومناهل.

التعريف السكاني

وبعد هذا التعريف التاريخي والجغرافي الموجز بمنطقة نجد لعله من المناسب أن نرجع إلى التعريف السكاني بأهلها، مسلطين الضوء على الأصول والتطور في الحياة السكانية التي شهدتها منطقة نجد، مستفيدين من البحث الذي أشرنا إليه آنفاً لسماحة الشيخ ابن بسام.

(١) معجم البلدان - ياقوت الحموي - ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) معجم اليمامة - عبدالله بن محمد بن خميس - الطبعة الأولى - الجزء الأول - ص ٣١.

يقسم العلماء العربَ إلى ثلاثة أقسام: بائدة، وعاربة، ومستعربة. وكل الأقسام الثلاثة سكان الجزيرة العربية.

فأما البائدة: فأخبارهم قليلة، وتحديد زمانهم فيه غموض، والأخبار التي تنقل - على قلتها - عنهم أشبه شيء بالأساطير إلا ما جاء القرآن الكريم بذكره من ذكر عاد وثمود.

وأما العرب العاربة: وهم "قحطان الكبرى" فمساكنهم منذ قديم زمانهم في جنوب الجزيرة العربية، ثم أخذت تلك القبائل تنزح من جنوب الجزيرة إلى شمالها وشرقها وغربها، ومن ذلك سكنت جرهم وخزاعة مكة وما حولها، وسكنت قبائل قضاة غرب الجزيرة مما يلي سواحل البحر الأحمر، وسكنت الأوس والخزرج المدينة، وسكنت قبيلة طيء شمال الجزيرة، وسكنت المناذرة حدود العراق، والغساسنة حدود الشام، وهما من الأزدي، وهذا مطابق لما جاء في كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني من أن قبيلة طيء لم تنتقل من جنوب الجزيرة إلى شمالها إلا بعد انتقال الأزدي.

وذكر الذهبي في "العبر" أن خروج طيء من اليمن كان بعد خروج الأزدي، ولما انتقلت منه قبائل الأزدي سكن كثير منها في شمال الجزيرة وشرقها، ومن تلك الأيام صار القسمان الشمالي والشرقي من الجزيرة مسكونين من قبيل قبائل قحطان وعدنان.

وأما العرب المستعربة: فهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وابتدأ تاريخهم في الجزيرة من حين وضع إبراهيم الخليل عليه السلام طفله إسماعيل وأمه في مكة المكرمة في جوار البيت الحرام.

فلما شبَّ إسماعيل عليه السلام صاهر قبيلة جرهم القحطانية فنشأ أولاده في مكة، ثم كثرت ذرية إسماعيل فصاروا قبائل عديدة منها: قبائل ربيعة ومضر، وبعض هذه القبائل لا يزال في جوار مكة، وأكثرهم نزحوا إلى أرياف نجد ورياضها الفسيحة.

ونجدٌ منذ انتقلت إليها القبائل القحطانية من الجنوب وزحفت إليها القبائل العدنانية من الحجاز وهي ممر للموجات البشرية التي تنحدر إليها ثم تقيم فيها ما شاء الله أن تقيم، ثم تولى وجهها نحو الشرق حتى تصل إلى سواحل الخليج العربي وضايف دجلة والفرات فتقيم فيها زمناً على عاداتها العربية وطباعها البدوية، حتى إذا تأثرت وانطبعت بطابع تلك البلاد

ابتلعتها تلك الحواضر والمدن. وحاضرة نجد في الماضي والحاضر هي من تحضّر من تلك القبائل.

وأما عن تاريخ نجد منذ أقدم العصور فهي مسكونة، إلا أن هناك غموضاً كثيفاً في تاريخ هؤلاء السكان القدامى وأحوالهم، بل إن هذا الغموض يشمل الجهل بأجناسهم. ونستطيع أن نقسم الفترات التاريخية في نجد حسب الظهور والخفاء إلى أربعة أدوار:

أولاً: دور سكان نجد الذين سبقوا انتقال قحطان من جنوب الجزيرة ووفرة عرب عدنان بالتوالد والانتشار. هؤلاء السكان نجعل زمانهم كما نجعل أنواعهم من الأمم، عدا الأخبار القليلة عن سكنها من العرب البائدة. أما الذي نجزم به فهو أن نجداً سكنت قبل الأمة العربية، وأن سكانها كانوا على قسط كبير من المدنية والحضارة، فإن ما ظهر من آثار عمرانهم يدل على أنه عاشت فيها أمة أو أمم متحضرة متمدنة متقدمة في مدنيّتها وحضارتها، ولعل التنقيب يكشف عن ذلك، فيكتب تاريخهم من جديد.

ومن تلك المناطق الأثرية:

الفاو: في جنوب نجد، فأثارها الظاهرة الآن تدل على سكنها بأمم لها حضارة ولها مدنية عريقة.

ضفتا وادي الرمة التي من القصيم: في هذه المنطقة آثار عجيبة لا يمكن أن تكون من قبائل بدوية، فإنه تشاهد قطع أوانٍ مطلية وعليها نقوش وصور وزخارف لا تجيدها إلا أيدي متقدمة في فن الرسم والتصوير، ويمكن أن يقال إنها حملت إليها من بلاد أخرى لو لم تكشف الحفريات البسيطة عن وجود أسواق تجارية ومبانٍ منسقة منظمة.

ثانياً: حين كثرت العرب قبيل البعثة المحمدية، تلك الكثرة التي ملأت صحاريها وقفارها من القبائل العدنانية والقحطانية، وقامت فيها أسواقهم التجارية والأدبية، والتحت فيها أيامهم وحروبهم. هذه فترة واضحة ظاهرة عرفت بها أيامهم ومقاتل أبطالهم، واشتهر فيها شجعانهم وفرسانهم، ونبغ فيها شعراؤهم وخطباؤهم، ونقلت إلينا أخبارهم، ودونت عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم.

والفضل في وضوح أخبار وأحوال هذه الفترة يرجع إلى الرواة الذين حرصوا على نقل هذه الأخبار ثم أملوها على مدوّني الآداب والتاريخ، كما يرجع الفضل فيها إلى الشعر الذي حفظ الكثير من أخبار وأسماء تلك الحقبة، حتى صح أن يقال: "الشعر ديوان العرب" وهذه الفترة

هي مادة الأدب العربي الذي يدرس هذا العصر وإلى أن يشاء الله. فمؤرخ هذه الفترة من قبل عصر النبوة بنحو مئتي سنة إلى نهاية حروب الردة، لا يعجزه أن يجد في بلاد نجد مادة لتاريخه ودراسته وبحثه من الأيام المشهورة والمجالس العامرة والقبائل المنسوبة والأشعار والخطب والأمثال والحكم.

ثالثاً: لما انتقلت العاصمة الإسلامية إلى خارج جزيرة العرب وصارت عواصم الدول الإسلامية هي دمشق، ثم بغداد، ثم تعددت العواصم بين بغداد والقاهرة والأندلس وحلب وغيرها، ضعف الاهتمام بالجزيرة العربية عدا الحرمين الشريفين اللذين احتفظا ببعض مكانتهما السياسية والاجتماعية والعلمية لتعلق الشعائر الدينية بهما، وكونهما مبعث الهداية والنور، كما أن الخلفاء من الأمويين والعباسيين يرجعون في أنسابهم وموطنهم إلى مكة والمدينة.

أما نجد فقد عدت العناية بها من الدول الإسلامية إلا بقدر تأمين طرق الحجاج من قطاع الطرق أو وضع علامات على مسالك الطرق وعمل مصانع لتوفير المياه للحجاج المجتازين، ورحل عنها النابهنون من شعرائها وأدبائها وزعمائها وساداتها وفرسانها فأقاموا بالقرب من الخلفاء والأمراء، فقد سكنوا البصرة والكوفة وبغداد وبلاد فارس وبلاد الشام ومصر والأندلس، وانتقل الأدب والشعر والأخبار معهم، ومن ذلك التاريخ صارت نجد في زوايا المهملين وبعدت عن أمكنة التدوين والرواية، وصار سكانها المقيمون فيها هم بقايا النازحين إلى الفتوحات وأحفاد المهاجرين ممن لا يقرؤون ولا يكتبون، ويعيشون في القرى الصغيرة والحقول البسيطة.

امتدت هذه الفترة القائمة أكثر من عشرة قرون حتى جاءت الدعوة السلفية الإصلاحية التي قادها المجدد المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى. كل هذه الفترة التي سبقت هذه النهضة الإصلاحية والبلاد تعيش في سبات عميق وظلامٍ دامس، إلا أننا نجزم يقيناً أن هذه الفترة التي سُكنت فيها نجد من قبائل معروفة صار فيها شعر وأدب، وظهر فيها علماء وزعماء، وأنشئت فيها قرى وبلدان، وصار فيها حرب وسلام، وجرت فيها حوادث وأمور مهمة، إلا أنها لم تلق عناية في التدوين ولم تجد الاهتمام بالنقل فضاعت أخبارهم وأشعارهم وذهبت أدراج الرياح.

ولم يبق ممن يحفظه إلا صُمُّ الجبال وذرات الرمال العائمة في مجاهل الصحارى والقفار، وهذه الفترة لا يجدي فيها التنقيب ولا تُسَعَف فيها الحفريات إلا أن يكون أثرها الصافي لا يزال يحمل في موجاته أنغام الحداة وأسمار المجالس وأحاديث الرعاة وصليل السيوف وقراع الأبطال ومحمة الجياد، ولعل العلم يتمكن يوماً من الأيام إذا أراد الله أن ينطق النسيم ليحدثنا عما وعاه من أحاديث القوم.

رابعاً: الطور الحاضر. ويبتدئ من قيام الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - بدعوته السلفية الإصلاحية في نصف القرن الثاني عشر الهجري. هذه الفترة هي أوضح وأظهر ما وصل إلينا من أخبار نجد الحديثة لقبها مناً، ولأنه حصل لها بعض العناية من علمائها ومؤرخيها، والحركة الكبيرة التي صاحبت قيام الدعوة من إعداد الجيوش والغزوات الكبيرة وفتح البلدان، وما صاحب ذلك من موالاته أصحاب الدعوة ومعاداة من آخريين قبل دخول الجزيرة العربية تحت لواء واحد.

وبجانب حركة الحرب والسلام صارت حركة الجدل بالقلم واللسان، فصنفت الكتب والرسائل والردود من الطرفين، فصارت هناك حرب كلامية راجت فيها سوق التأليف والكتابة.

كما قام الشعر بدور كبير في هذا المضمار سواء الفصيح منه أو العامي، فصار للدعوة أعوان ولخصومها أنصار، فخلدت بذلك أحداث الحركة، كما وعت صدور الناس الكثير من أخبار هذه الحقبة لأهميتها لديهم وضخامة حوادثها وتفتح الوعي فيهم، وكتب بعض مؤرخي نجد عنها، وكذلك كتب عنها الأجانب بغير اللغة العربية وبالعربية أيضاً، وصارت في أيامنا القريبة دراسات ومؤلفات عنها، إلا أن الدارسين والمؤلفين المعاصرين أكثرهم من غير أهلها، وهؤلاء مهما حاولوا تقديم الحقيقة فإنه يفوتهم الشيء الكثير، ولا يستطيعون إيفاء الموضوع حقه من الدرس والتقصي، أما المؤرخون من أهلها فتنقصهم المراجع الكافية.

وما زالت هذه الحركة الإصلاحية الكبيرة - التي جعلها الله سبباً لضم أجزاء جزيرة العرب تحت راية واحدة - في حاجة إلى الدراسة والبحث وإعطاء القراء صورة واضحة عنها، وعمّا أتت به من نتائج طيبة. كما أن هذه التواريخ لم تُعَنَ بأخبار البادية وقبائل نجد ولا بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعمرائية، ولم تكتب عن العلماء والأمرء والشعراء والأبطال والزعماء، وإنما هي أخبار الحروب الحاضرة، وأخبار ناقصة، وذكر بعض وفيات الأعيان على وجه الإجمال. ولذا فإن تاريخ نجد حتى الآن لم يُكتب الكتابة الكافية.

هذه الإمامة موجزة عن أطوار نجد التاريخية في ظهورها وخفائها. انتهى هنا كلام الباحثين المشار إليهما في صدر الحديث التعريفي جغرافياً وتاريخياً وسكانياً بمنطقة نجد. انتهى هنا كلام الباحثين المشار إليهما في صدر الحديث التعريفي جغرافياً وتاريخياً وسكانياً بمنطقة نجد.

والآن دعنا عزيزي القارئ نتعرف بإختصار على أوجه الحياة في نجد من جوانبها المختلفة.

الحياة الاجتماعية في نجد^(١)

كانت الحياة الاجتماعية قديماً تتسم بطابع البساطة واليسر في جميع المجالات، وكان هذا سبباً لأن تتميز بخصائص إيجابية منها: الصدق، والوفاء، وحسن التربية، والإخلاص والطاعة، واحترام الصغير للكبير وتوقيره وغير ذلك من فضائل ومكارم وأخلاق، ونلاحظ أن ما كان يحدث مخالفاً لتلك الصفات من حوادث، كان يعتبر شاذاً، إذ كان أمراً نادراً وغير معهود، والنادر مما يتعلق دائماً في الأذهان، وكانت حكايته من قبيل التنديد به والتشهير بفاعليه، واستتكار وقوعه.

وكان كبير العائلة يحتل مكانة مرموقة ويحظى بقدر كبير من التبجيل والاحترام من جميع أبناء العائلة، وهو الذي يتولى جمع شمل المختلفين منهم، ويوفق بينهم، ويخضع الجميع لرأيه، ويقبلون حكمه عن رضا وقناعة، لأنه لا يصدر عنه إلا بعد أن يأخذ مشورة العقلاء من قومه وعائلته، وبذلك يصدر الحكم منصفاً للطرفين، لأنه يراعي فيه مصلحتهما، هذا في الخلافات العائلية اليسيرة، أما في الأمور الشرعية أو المنازعات المالية فيلجأ الجميع للشرع أو يستفتون العلماء.

وغالباً ما كانت ترتفع نسبة المنازعات بين السكان أثناء خرص النخيل، وهو عملية جني ثماره. ولهذا كان قضاة البلدان ينتقلون كثيراً من بلدة لأخرى، خلال موسم الحصاد، للفصل بين الناس وفض الخصومات بين المتنازعين.

كان رب الأسرة في البيت الصغير، له الكلمة المطاعة بين الأبناء أو الإخوة الصغار الذين يعولهم، وقلما كان يعارضه أحد، أو يخالفه الرأي، لكنه كان غالباً يطرح آراءه في قالب المشورة، ثم يستمع لما يبذونه من آراء، وفي النهاية يكون هو صاحب الرأي.

(١) روضة سدير - عبدالله بن محمد أبطاطين - ص ٦٦.

الحياة الاقتصادية في نجد^(١)

يعتمد الاقتصاد في نجد على الزراعة، التي تمثل النشاط الأول لسكان نجد على مر العصور منذ العصر الجاهلي إلى وقتنا الحاضر. وتمثل الحرف نشاط فئة من السكان، أما التجارة فتأتي في المرتبة الثالثة.

وأهم الأشجار والنباتات هناك هي النخيل والقمح والذرة والدخن، كما تزرع الخضار والفواكه، ولكن سكان البلدة يعتمدون في معيشتهم على النخلة وسنبلة القمح. أما التمر فيحفظونه في أبنية خاصة به تسمى "الرميلة" والتي يوضع فيها التمر المعد للبيع، و"الجصة" ويوضع فيها التمر المعد لقوت السنة و"المنقولة" وهي إناء يوضع فيه التمر المخصص للضيوف. وللنخلة منزلة عالية عند سكان البلدة حتى إن من يملك ٥٠٠ نخلة أو أكثر يكون من المقدمين اجتماعياً في القرية.

وأما القمح فأنواعه: الحب، والصَّماء، واللقيمي، ويحفظ في أحواض. وأما أنواع الحبوب الأخرى مثل الدخن والذرة والشعير فالاعتماد عليها أقل.

والحرف الموجودة هي:

- ١ - الحياكة.
- ٢ - النجارة.
- ٣ - الحدادة.
- ٤ - الخرازة.
- ٥ - الجزارة.

والعمل في التجارة محدود ولكن فئة من السكان تعتمد عليها حيث يتعاملون مع البدو الذين يفتدون لشراء حاجاتهم. وحياة السكان المعيشية متقاربة وإن كان الفلاح يأتي في المقدمة من ناحية توافر الغذاء.

والغذاء اليومي يتكون من:

- ١ - فكوك الريق: وموعده طلوع الشمس ويعد عند الموسرين من اللبن والزبد والقرصان بالإضافة إلى الحليب والقهوة والشاي.

(١) عودة سدير - د. عبدالعزيز بن محمد الفيصل - ص ٤٥ - ٤٧.

- ٢ - الغداء: وموعده الضحى وهو وجبة رئيسة من الوجبات المطبوخة.
٣ - العشاء: وموعده بعد صلاة العصر وهو من الوجبات الرئيسة المطبوخة أيضاً .

الحالة السياسية في نجد

كانت القرى النجدية منذ القدم تحكم نفسها، فلم تُعرف دولة هيمنت هيمنة كاملة على نجد قبل قيام الدولة السعودية. وكانت تجمع سكان هذه القرى النزعة الوطنية وليست القبلية، فالدفاع عن البلدة يتم من منطلق وطني.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن كل أسرة في البلدة يمثلها رجل منها يعرف برجاحة العقل، وهؤلاء الذين يمثلون الأسر مدونة أسماءهم في ورقة تعرف بقائمة الجماعة، وهؤلاء هم الذين ينتخبون الأمير ثم يرفعون اسمه لحاكم الدولة، فإذا وافق عليه أصبح أميراً للبلدة.

أما في الحالات التي لا توجد فيها دولة مهيمنة فإن أمير البلدة المنتخب هو الأمير والحاكم في الوقت نفسه، ويولي منصب الأمير في الأهمية منصب النظراء وهم رجال ينتخبون من قبل ممثلي الأسر للإشراف على شؤون البلدة من بناء أسوار أو حفر آبار أو تسوية طرق أو غير ذلك، وحق التمثيل ينحصر في الأسر القبلية .

الثقافة الدينية في نجد

ثقافة سكان نجد في عمومها ثقافة دينية، فهي منذ القدم تشتهر بمدارسها الدينية والكتاتيب. ففي المدرسة الدينية (الكتاب) يتعلم الفتيان القراءة والكتابة، وقراءة القرآن وحفظه، بالإضافة إلى تعلم شيء من علوم الدين مثل التفسير والتوحيد والفقهاء.

ومما يدل على إقبال السكان على التعليم الديني أن عامة الناس يلزمون بقراءة رسالة تحتوي على المبادئ الدينية بعد صلاة العشاء.

وقد ساعد انتشار الثقافة الدينية على التقليل من نسبة الأمية في نجد، فقد كان القارئون للقرآن الكريم في المصاحف يمثلون نسبة عالية من المصلين .

ولعله من المناسب الآن أن نتعرف - باختصار - على الموطن الأصلي لعائلة العثمان.

التعريف بجنوبية سدير (الجنوبية)...

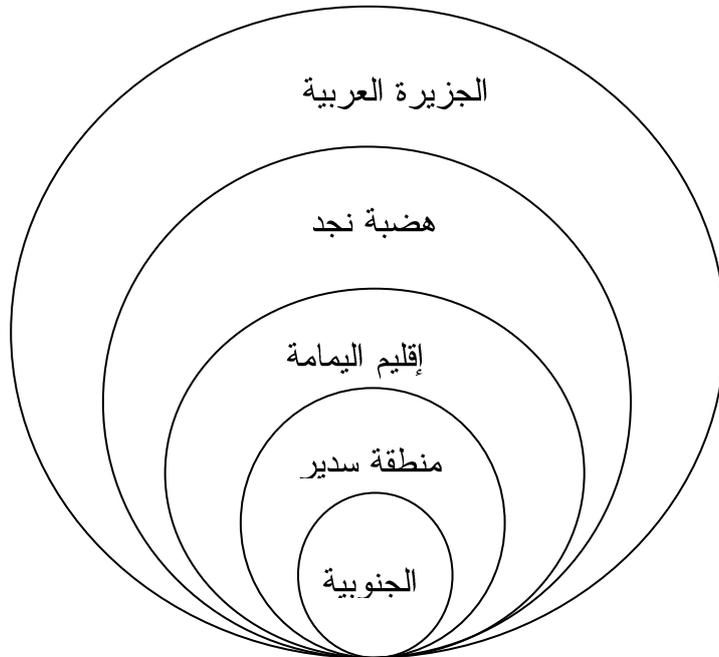
مسقط رأس عبدالعزيز بن عثمان

لكي نلقي الأضواء على مسقط رأس كبير عائلة العثمان في الكويت المرحوم النوخذة عبدالعزيز بن عثمان فإنه من المناسب أن نبدأ بنظرة شمولية ذات تدرج تبدأ بالأعم ثم الأخص.

فهي خمس حلقات كبيرة ثم متوسطة ثم صغيرة، تتدرج جغرافياً من حيث الحجم، ويلقي هذا التدرج الجغرافي الأضواء لفهم الخلفية التاريخية لتلك القرية (المدينة حالياً).

ففي البداية نلقي الضوء على الجزيرة العربية ثم نعرّج على هضبة نجد التي تضم إقليم اليمامة المشتمل في مركزه على منطقة السدير وفي جنوبها قرية (مدينة) "جنوبية سدير" المسماة "الجنوبية".

ولئن جاز لنا التشبيه باستخدام رسم نموذجي لهذه العلاقة المتدرجة، فسنعبر عنها بالدوائر المتداخلة التالية:



الجزيرة العربية^(١)

تتميز الجزيرة العربية بموقعها الديني والجغرافي والتجاري. أما موقعها الديني فقد فضلها الله سبحانه وتعالى على غيرها بعدة أمور، منها أن تربة خاتم الأنبياء وأفضل الرسل نبينا محمد ﷺ كانت منها، وأن آخر الرسالات السماوية كانت فيها، وأن القرآن الكريم نزل بلغة أهلها، وأن أفضل الأمم هي أمة محمد ﷺ وأفضل أمة محمد ﷺ هم أهل الجزيرة لأنهم هم الذين نشروا الدين، فضحوا في سبيل ذلك بأنفسهم وأولادهم وأموالهم حتى عم نور الله تعالى أرجاء المعمورة.

وقد كافأهم الله بأن أعطاهم ما لم يعط غيرهم ومنَّ عليهم بأطهر بقاعه في الأرض: مكة المكرمة والمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكان يقصدهما جميع سكان المعمورة للحج أو العمرة أو للتجارة أو لطلب العلم، ولا يزالون إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله تعالى.

أما موقعها الجغرافي فقال عنه أبو الفوز محمد أمين السويدي: اعلم أن مساكن العرب في ابتداء الأمر كانت بجزيرة العرب الواقعة في أواسط المعمورة وأعدل أماكنها وأفضل بقاعه^(٢).

ولقد كان موقع الجزيرة العربية - ولا يزال - بين أعظم بلاد الدول وأقدم الحضارات، فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس، وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر، وإلى غربها الجنوبي - وراء البحر - الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند.

وكان من نتائج هذا الموقع أن اشتهرت جميع بلدان وقرى تلك الجزيرة ولا سيما القرى التي كانت تقع على طريق القوافل التجارية التي تنقل تجارتها من الهند عن طريق اليمن في الجنوب إلى الشام والعراق وفارس في الشمال، فكانت لهذه القوافل محطات تستريح فيها وتبيع وتشتري ما تحتاجه البلدان المتجهة إليها تلك القوافل، وقامت على إثر ذلك أسواق تجارية مثل سوق حجر في اليمامة والتي تقع فيها بلدة المجمع وحرمة.

(١) المجمع وحرمة من العصر الجاهلي إلى العصر الحاضر - عبدالعزيز الحقييل - ص ٧.

(٢) سبائك الذهب - أبو الفوز محمد أمين السويدي - ص ٧.

هضبة نجد

ولقد تحدثنا في البند السابق عنها تحت عنوان "التعريف بنجد ... الموطن الأصلي لعائلة العثمان" في الصفحات من إلى لذا نكتفي بإحالة القارئ الكريم إليها تجنباً للتكرار.

إقليم اليمامة^(١)

تسمى اليمامة "جواً" وتسمى "العروض" وتسمى "القرية" وقد اشتهرت بها الزرقاء بنت سَهْم بن طَسْم حيث كانت حادة البصر فضرب بها المثل فسميت زرقاء اليمامة، وللعرب في حدة بصرها أشعار حُفظت ونُقلت في كتب الأدب، ومن هؤلاء النابغة الذبياني والمتبني، كما اشتهر باسمها عرّاف اليمامة، وهو عراف بن كحلة، ومن الشعر الذي قيل فيه:

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجران هما شفياني

وكذلك محكم اليمامة، وهو محكم بن الطفيل بن سبيع صاحب مسيلمة الكذاب والقائم بأمره، والذي قتل في حروب الردة السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه.

وتقع حدود اليمامة ضمن زاوية منفرجة، قاعدتها ملتقى الدهناء بالربع الخالي جنوباً تحت الأفلاج وخلف البياض نحو الجنوب الشرقي، ويمتد ضلعها أحدهما الربع الخالي ذاهباً غرباً، والثاني الدهناء ذاهباً شمالاً، وضمن زاوية أخرى قاعدتها رمل (السياريات) مما يلي الأمغر عند طرف جبل مجزل من الشمال، ويمتد ضلعها أحدهما الدهناء مجنبة حتى قاعدة الزاوية الأولى، والآخر رمل الثويرات يمتد مغرباً حتى أطراف القصيم.

ونستطيع أن نقول أن هذا المربع - وضلعه الغربي وهمي - خضع لحدود مختلف فيها، فبعضهم يوصلها إلى عالية نجد، والبعض الآخر يقف بها عند منطقة عرض شمام وماسامتها جنوباً وشمالاً حتى محاذاة ضلعي المربع شمالاً وجنوباً.

هكذا حدود اليمامة من الشرق والشمال والجنوب، أما حدودها من الغرب فمختلف فيها لدى علماء المنازل والديار، فالبكري يرى أن نجداً كله من اليمامة، وتوسع صاحب "بلاد العرب" فشمّل في تحديدها جزءاً من اليمن وجزءاً من الحجاز وجزءاً من البحرين والعراق والشام.

(١) تاريخ اليمامة: مغاني الديار وما لها من أخبار وأثار، الجزء الثالث - عبدالله بن محمد بن خميس، ص ٧ - ١٢.

وتوسط البعض فألحق بجبلها وما يسيل عليه غرباً وشرقاً مناطق الوشم وعرض باهلة شمام
والسر وما حوله.. هذه المناطق وماسامتتها شمالاً وجنوباً، وحددتها شرقاً بحدود الأحساء.
وسبب هذا الاختلاف في التحديد، ما كان يناط بوالي اليمامة من مناطق وبلدان قلة وكثرة
وامتداداً وانكماشاً.

وجبل طويق هو العمود الفقري لليمامة وهيكلها الرئيس ويسمى "اليمامة":
فأعرضت اليمامة واشمخرتُ
كأسيافٍ بأيدي مصلتينا
ويسمى طويقاً:

ولو أن قلب طويق باح بسره
لم يعد ما هو شف عنه مجلجلا
ويسمى العارض:

وأكاد من شغفي بما أنشدته
أطوي إليك تهامة والعارض
هذا الجبل الأشم العملاق ينتصب وجهه الغربي فارعاً، بارزاً، مشمخراً، وتقوم فيه أنوف
ورعان وقمم إذا استقبلتها الشمس فكأنها صفحات المزن متأبئة متألقة سامقة بيضاء، يطل
هذا الجبل من عل على من حوله مُدلاً متعظماً:

وأراك معتدل المناكب سامقاً
تبدو بك الشم الرعان مواثلا
وكان عمراً خالها إذ أعرضت
مثل السيوف المصلتات نواحلا
بالأمس لم تمض القرون ولم تبد
في سفحها للقاطنين معاقلا

يمتد هذا الجبل من منطقة الزلفي شمالاً إلى الربع الخالي جنوباً، بما يزيد على ألف كيلو
متر، ومن الغرب إلى الشرق يأخذ في الانحدار التدريجي حتى يلامس السهول الشرقية بما
يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين كيلو متراً، وتسيل منه أودية عظيمة نحو الشرق تضم
مدناً وقرى ونخيلاً ومزارع وبلداناً عامرة وغامرة، وتدفع أوديته بعد أن ينحسر عنها الجبل
في سهول وسهوب، ورياض عظيمة ومدافع ومرابح وخمائل في منتهى الخصب والوفرة
والكثرة.

ويسيل من صفحته الغربية أودية غير ذات شهرة ولا كثرة لانتصاب وجهه وعدم امتداد
أوديته وعدم إمعانها في سطحه، وفيه فجاج تفتتعه من الغرب إلى الشرق وبالعكس سبلاً
للمارة، ومنافذ للسيول، وفيه طرق، وثنايا، وعقبات، وتعرضنا لها ذكراً أو بسطاً في معجم
اليمامة.

وقد ذكر بعض المؤرخين بلاد اليمامة ووصفوا أرضها، وما بها من خيرات. يقول القزويني في كتابه: آثار العباد وأخبار البلاد "وأكثرها خيراً ونخلاً وشجراً".

ويقول أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان: "والحجر^(١) مدينة اليمامة" وهي أكثر نخيلاً من سائر الحجاز.. وبها الحنطة والشعير كثير.. ثم قال: "واسم اليمامة في القديم جوا".

ويقول المؤرخ الطبري: "إن اليمامة من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً، فيها صنوف الثمار ومعجبات الحقائق والقصور الشامخة"

ويقول صاحب كتاب معجم البلدان: "وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر، وتسمى اليمامة جوا والعروض، بفتح العين وكان اسمها قديماً جوا، فسميت اليمامة باليمامة بنت سهم بنت طسم".

وباليمامة رياض غناء إذا جادها الغيث تأرج عبيرها، وتضوع شيحها وخزامها، ورندها، وعرارها، واختلفت أزهارها وغنت أطيّارها.

وفيها بهجة يعجز الوصف عن أن يجلوها أو يحيط بمحاسنها. فلعمري ما شاهدت^(٢) فيما شاهدت أرضاً تتبرج بالجمال، وتضحك طبيعتها فاتنة متألقة مثلما شاهدت في رياض نجد، ورياض اليمامة منها في القمة، فلقد خصصتها ببحث مستقبل، إذ يزيد عددها على سبعين روضة.

وتحيط باليمامة رمال ذهبية من جميع جهاتها، فلقد سبق أن حددناها جنوباً برمال الربع الخالي، وشمالاً برمال السيارات والثويرات، وشرقاً برمال الدهناء، أما رمالها الغربية فمجزأة بين رمل الرغام (عريق البلدان) الذي يبدأ من الشمال قبل رمال الثويرات ويذهب مجنباً حتى يقف أمام جبل عريض بمحاذاة غرب المحمل وجنوب الوشم ويسمى "طُرَيْفَ الحَبَلِ ويقارب طوله مائة وخمسين كيلو متراً.

ويقوم بمحاذاته من الغرب - بينه وبين صفراء الوشم، رمل الوركة - نفود قنيفذة أو نفود الغزير كما يسمونه، وهذا يقوم شمال غرب بلدة مرارة، ويذهب مجنباً حتى يقف أمام فوهة

(١) الحجر هي مدينة الرياض حالياً.

(٢) لا يزال الحديث هنا متصلاً لابن خميس (تاريخ اليمامة).

نساح من الغرب بميل إلى الجنوب بما تقدر مسافته بما يزيد على مائة كيلو متر، وبعد فاصل يقدر بحوالي خمسين كيلو متراً يقوم رمل الدّحي - الدبيل قديماً - بمحاذاة فوهة برك من الغرب، ويذهب مجنباً حتى أسفل (وادي الدواسر) أمام (عقيق عقيل) قديماً، وفيه فواصل بعضها طويل، يقوم بعد ذلك رمل يلقب بالساقية جنب وادي الدواسر ويذهب مجنباً متقطعاً حتى يندفن جبل اليمامة في الربع الخالي حيث ما يسمى "المندفن".

هذه سلاسل رملية تلازم جبل اليمامة من الغرب تبعد عنه أحياناً وتدنو أحياناً أخرى، ويظل ما بينها رياضاً، ومستقرات مياه وسواقي وخلف هذه السلسلة الرملية من الغرب رمل متصل يقبل من الشمال من حوالي القصيم ورمل السر (نفود السر).

وتشتمل (منطقة اليمامة) على عدة أقاليم هي:

- ١ - العارض: وقاعدته الرياض العاصمة. وهذا الإقليم هو أكبرها عمراناً وأكثرها سكاناً، وأقدمها حضارة، وأوفرها نمواً.
- ٢ - الخرج وقاعدته السّيح: وهو إقليم زراعي، وأسّ حضارة، ودولة عمران.
- ٣ - الفرع: وبه إمارة (الحوطة) و(الحريق) وتقعان في جوف جبل اليمامة.
- ٤ - الأفلاج: وقاعدته لَيْلى، وهو إقليم زراعي ويقوم على أنقاض حضارة وأطلال عمران.
- ٥ - السليل: أحد أقاليم الجنوب، وله أهمية بصفته ملتقى طرق، وعلى مقربة جداً من الربع الخالي.
- ٦ - وادي الدواسر: وقاعدته الخماسين، وهو إقليم زراعي غني بالمياه ومركز مرعى وتربية ماشية.
- ٧ - إقليم الشعيب: وقاعدته حريملاء، وهو وادٍ غني بالنخيل وذو تاريخ أثير.
- ٨ - المحمل: وقاعدته ثادق، وهي مجموعة بلدان متعلقة بلهزوم في قلب العارض وهو إقليم زراعي.
- ٩ - إقليم سدير: وقاعدته المجمع، وهو ذو بلدان كثيرة وأودية متعددة وزرع وحرث، وكله في قلب اليمامة.
- ١٠ - إقليم الزلفي: وقاعدته الزلفي، وهو كثير القرى والمزارع خصب التربة طيب المرعى.
- ١١ - إقليم الوشم: وقاعدته شقراء، وهو منبسّط من الأرض يشقه رمل (الرغام)، وفيه بلدان وقرى، خصبٌ منبت منتج.

ولقد اتفق أكثر المؤرخين على أن من سكن اليمامة هما طسم وجديس:

قال الطبري في تاريخه^(١): "وحدثت عن هشام بن محمد وحدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق وغيرهما من علماء العرب أن طسماً وجديساً كانوا من ساكني اليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً لهم فيها صنوف الثمار ومعجبات الحدائق والقصور الشامخة"^(٢)

وطسم وجديس: ذكر بعض المؤرخين أن نوحاً عليه السلام هو الأب الثالث لهما، فقد ذكر السويدي أنه طسم بن لاوذ بن سام بن نوح، وجديس بن إرم بن سام بن نوح.^(٣) وقد ذكر ابن هشام أن طسم وعملاق وأميمة بن لاوذ بن سام بن نوح لكن ذكره لثمود وجديس جعل نوحاً عليه السلام الأب الرابع لهما وهما أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح.^(٤)

منطقة سدير

أوردنا ما تيسر لنا من معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية عن نجد. ولما كان عبدالعزيز بن عثمان - كبير عائلة العثمان - قد جاء من سدير وبالتحديد جنوبية سدير وتسمى تخفيفاً "الجنوبية"، فسوف نلقي نظرة سريعة على سدير، ثم نفرد لجنوبية سدير حديثاً مختصراً يليه.

يعتبر وادي سدير^(٥) الذي كان معروفاً قديماً باسم "وادي الفقي" من أبرز المعالم الطبيعية، والأثرية والتاريخية أيضاً، ففي كتب الجغرافيين العرب الأوائل إشارات واضحة ونصوص صريحة على قدم هذا الوادي، وعلى الأشجار التي نمت على ضفافه، والبلدان التي أنشئت حوله من قديم، والقبائل التي نزحت إليه، وعاشت حوله، وبنيت الدور التي تكاثرت وتحولت إلى بلدان عامرة بأهله، وبمختلف أنواع الزراعة والتجارة.

(١) المجمع وحرمة العصر الجاهلي إلى العصر الحاضر - عبدالعزيز الحقي، ص ٨ - ٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك - الطبري - ج ١ - ص ٦٩٢.

(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - أبو الفوز محمد أمين السويدي - بيروت - ص ١٣.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ - ص ٤٠.

(٥) روضة سدير - عبدالله بن محمد أبطاطين - ص ٦٦.

وقد ذكر الحسن بن أحمد الهمداني (المولود عام ٢٨٠هـ)، في كتابه "صفة جزيرة العرب" (١) طرفاً من أخبار قرى وادي الفقي. يقول:

".. ثم تقفز من العتك في بطن ذي أراط، ثم تسند في عارض الفقي، فأول قراه جماز، وهي ربابية ملكانية عدوية، من رهط ذي الرمة. ثم تمضي في بطن الفقي، وهو وادٍ كثير النخيل والآبار، فتلتقي قارة بني العنبر، وهي مجهلة، والقارة أكمة جبل منقطع، في رأسه بئر على مائة بوع، وحواليها الضياع والنخيل.

قال راجزهم:

إنا بنينا فارة وسط الفقي من الدبابيب (٢) ومن سحّ المطي
ومن أمير جائر لا يرعوي لا يتقي الله ولا يرثي شقي

ويحد إقليم سدير (٣) من الجنوب العتك، ومن الغرب مرتفعات جبل طويق ومنحدراته الغربية، ومن الشمال المرتفعات والقفاف المشرفة على روضة السبلة وما حولها شرقاً وغرباً، ومن الشرق جبل مجزل. ويلحق بالإقليم إدارياً ما وراء هذه الحدود شرقاً وغرباً مما يحاذيها (٤).

قال الحفصي: ذو سدير: قرية لبني العنبر. قال عمر بن الأهم:

وقوفاً بهم صحبي على مطيهم يقولون لا تجهل ولست بجهال
فقلت لهم عهدي بزيب ترتعي منازلهم كم ذي سدير فذي ضال (٥)
وفي سدير قال إبراهيم بن جعيثن:

ووراط يحيى به حلال مهازيل حيث هو اللي ينطح السيل جاله
واللي انحدر يضي على العودة السيل وتمير ومجزل تملأ هجاله
ووادي الفقي زين البساتين ونخيل في القيط يسقي صافي من زلاله
كداهم كنه على ساحل النيل تسمن معاويده وتكثر عياله
يرجع سدير ويكثرن المحاصيل تلقى به التاجر ينمي حاله

(١) تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، وإشراف حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة ص ٢٨٥.

(٢) وردت هذه الكلمة "الدبابيب" بدلاً من "الدبابيب" في تاريخ الماضي، ص ١٦.

(٣) حوطة سدير - عبدالله بن الكريم المعجل - ص ١٦.

(٤) معجم اليمامة ١٨/٢ - ١٩.

(٥) معجم البلدان ٢٠٢/٣.

غرايس يا زينها طلعة سهيل يفرح بها اللي جايعين عياله
وتعتبر المجمع هي عاصمة سدير، ففيها الإمارة والإدارة الرئيسية التي تنظم شؤون بقية
المدن والقرى في منطقة السدير، ويبلغ عدد هذه المدن والقرى والهجر ١١٨ يمكن حصرها
فيما يلي^(١):

حوطة سدير، روضة سدير، جلاجل، التويم، عودة سدير، عشيرة، تمير، العطار، الداخلة،
الحصون، الجنوبية، الجنيفي، حرمة، جوى، المعشبة، الحاير، الرويضة، مقبلة، معاوية،
ظلماً، أشي، أم الجماجم، أم رجوم، الأرتاوية، العزيزية، الخيس، العمار، الخطامة، مبايض،
بوضاء، جراب، الفروثي، القاعية، الحفنة، الشعب، رويغب، تميرية، الوسيعة، السلاح، أم
عشرة، البتراء، النزيه، العلاوة، فردينات، الخويش، العود، فريهيدية، الكلي، مشاش عوض،
مشرفة، حويمضة، برزان، النخيل، البرزة، أم طليحة، النفيق، السحيمي، أمصدة، مشلح،
العقلة، أم سديرة، شرفة زهرة، حنيدر.

وفيما يلي المسافات (بالكيلو متر) التي تفصل بعض هذه المدن والقرى عن مركز إقليم
سدير، وهو مدينة المجمع واتجاهاتها بالنسبة للمجمع^(٢):

حرمة: ٣ كم باتجاه شمال شرق.

جلاجل: ٣٥ كم باتجاه الجنوب.

روضة سدير: ٤٧ كم باتجاه الجنوب.

حوطة سدير: ٥٤ كم باتجاه الجنوب.

الجنوبية (جنوبية سدير): ٥٧ كم باتجاه الجنوب الشرقي.

عودة سدير: ٦٠ كم باتجاه الجنوب الشرقي.

عشيرة: ٨٠ كم باتجاه الجنوب الشرقي.

التويم: ٤١ كم باتجاه الجنوب.

الأرتاوية: ٧٠ كم باتجاه الشمال.

أم الجماجم: ١١٠ كم باتجاه الشمال.

أم سديرة: ١٠٧ كم باتجاه الشمال.

(١) المجمع - فهد بن إبراهيم العسكر - ص ٣١ - ٣٥.

(٢) وزارة المالية والاقتصاد الوطني بالمملكة العربية السعودية الشقيقة - مصلحة الإحصاءات العامة - حصر الخدمات

بالمدين والقرى - الدليل لثامن - ١٤١٠هـ - ص ١٤٢٤ - ١٤٩٣.

جنوبية سدير (الجنوبية)

بعد الحديث المتسلسل عن الجزيرة العربية وهضبة نجد ثم إقليم اليمامة وبها منطقة سدير، يصل حديثنا إلى مركزه وهو القرية (المدينة) التي ولد فيها عبدالعزيز بن عثمان كبير عائلة العثمان في الكويت، وهي الجنوبية (جنوبية سدير).

يقع مركز الجنوبية بسدير في الشمال الغربي لمدينة الرياض، وتبعد حوالي ١٤٥ كم عنها. ويقع المركز على الوادي المشهور (وادي الفقي)، ويسمى وادي سدير، وهو معروف بغزارة المياه الجوفية فيه وخصوبة أراضيه، وقد تحدثنا عنه بالتفصيل في الصفحات السابقة.

وقد سميت جنوبية سدير بهذا الاسم بسبب قيام أول بنيان لها جنوب قارة بني العنبر (قارة صباحا) الموجودة حتى يومنا هذا في موقع يسمى حالياً (الهدام)، لانهدام وسقوط المنازل به واندثارها وتحويله إلى مزارع للأهالي.

تعتبر قارة بني العنبر أشهر مَعْلَم تاريخي، وهي عبارة عن جبل مرتفع كان يعيش فيه بنو العنبر من تميم، وكانوا يحمون مُلكهم ويحتمون فيه من اللصوص والعصابات لموقعها المتميز.

وقد كان المركز قديماً في شكل مجموعات من المزارع والنخيل، حيث كان سكان قارة "صباحا" المذكورة يشتغلون بالزراعة، وكانوا ينزلون منها إلى الجنوبية، وذلك عبر جسور ثلاثة تمتد من القارة وتقطع وادي الفقي غرباً إلى الجنوبية، وعند انهيار القارة بسبب نشوب الحروب بينهم في القرن الحادي عشر الهجري - تقريباً - رحل من رحل هرباً من تلك الحروب، ثم بدأت تتكون البلدان التي بجوار القارة المذكورة.

أما موقعها بالنسبة للمجمعة، وهي مركز (أو عاصمة) منطقة سدير، فهو ٥٧ كم جنوب شرق المجمعة، وبشكل عام فإن موقعها على الخريطة يتحدد بالضبط عند ملتحى خط الطول رقم: ٧٣٤ " ٣٦ ° ٤٥ شرقاً، وخط العرض رقم: ٢٣ " ٣٥ " ٢٥ شمالاً.

عائلة العثمان ... بين التاريخ والجغرافيا

في قرية الجنوبية بمنطقة السدير ولد عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالله بن عبدالوهاب بن عبدالعزيز بن إبراهيم بن ناصر بن عبدالرحمن البراهيم^(١)، وهو عميد عائلة العثمان. حيث كان أول من هاجر إلى الكويت واستقر بها من عائلته الكريمة التي عُرفت بالاسم الذي اشتهر به "عبدالعزیز بن عثمان" عام ١٨٥٧م.

ولقد كان هذا شأن العائلات الكويتية والخليجية بشكل عام حين تشتهر نسبة إلى أحد أجدادها رغم وجود أجداد معروفين قبله، أو إلى اسم المنطقة (مدينة كانت أو قرية) التي جاءت منها هذه العائلة أو استقرت بها، أو إلى اسم المهنة التي امتنها أجداد هذه العائلة، وهكذا تتعدد الأسباب في التسميات التي تميل إلى التعريف بالشهرة المتعارف عليها بين الناس لكل عائلة.

لقد كان لإبراهيم الجد الرابع لعبدالعزیز بن عثمان ثلاثة أبناء هم: عبدالله وعبدالرحمن وعبدالعزیز. فمن عبدالله جاءت عائلة البراهيم ويقطن بعض أفرادها في الموطن الأصلي لأجداد العائلة في قرية (مدينة) الجنوبية من منطقة سدير والمسماة باسم "جنوبية سدير"، والبعض الآخر انتقل إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية الشقيقة.

ومن عبد الرحمن كانت عائلة الناصر التي انتقلت إلى مدينة الزبير شمال الجزيرة العربية وجنوب العراق، ثم انتقل بعض أفرادها إلى المدينة المنورة واستقر البعض الآخر في مدينة الرياض.

وأما عبدالعزيز بن إبراهيم بن ناصر بن عبد الرحمن البراهيم فقد كان الجد الثالث لعميد عائلة العثمان في الكويت وهو عبدالعزيز بن عثمان والد النوخذة عبدالوهاب العثمان والنوخذة عبدالله العثمان.

لقد انتقل المرحوم عبدالعزيز بن عثمان إلى الكويت عام ١٨٥٧م - وكان عمره آنذاك اثني عشر عاماً - في معية أخيه الأكبر "عبدالله" وأخته "هيا" بعد المجاعة والقحط الذي حل في إقليم نجد عامة ومنطقة سدير خاصة بسبب شح الأمطار في تلك الفترة (عام الجلوة).

(١) لعل أصلها "الإبراهيم"

وقد زاد من وطأة الظروف الطبيعية القاسية المتمثلة في هذا الجفاف والفقر وجود أسباب بشرية أخرى هي أشد فتكاً وأبلغ أثراً وهي الحروب والمنازعات التي شهدتها المنطقة بين القبائل والأمراء.

ولقد كان انتقاله إلى الكويت في عهد الشيخ جابر بن عبدالله بن صباح (جابر العيش)^(١) رحمه الله، الحاكم الثالث للكويت في الفترة من (١٨١٣-١٨٥٩م).

ولم يتردد عبدالعزيز وعبدالله ابنا عثمان بن عبدالله بن عبد الوهاب بن عبدالعزيز بن إبراهيم في بيع البيت الذي كانا يسكنان فيه في جنوبية سدير مع أختهما هيا بمبلغ متواضع لينتقلوا جميعاً إلى الكويت بحثاً عن الرزق الحلال والكسب الشريف.

ولا يزال ذلك البيت المصنوع من الطين قائماً على أصوله المتواضعة في منطقة الجنوبية في سدير، وقد تكرم المرحوم سليمان العلي الزامل بمرافقة ثلة من أبناء وأحفاد المرحوم عبد الوهاب العثمان إلى بيت جدهم عبدالعزيز الملاصق لبيت جده، وقد وثق هؤلاء هذه الزيارات بالتصوير التلفزيوني والفوتوغرافي.

ولعله من الجدير بالذكر في هذا السياق - وقبل الحديث عن المرحوم عبدالعزيز بن عثمان وانتقاله إلى الكويت - أن نذكر أن له أختاً ثانية اسمها "شمة"، تزوجت من أحد أفراد عائلة العزاز، واستقرت وزوجها في منطقة الزبير، لذا كان النوخدة عبد الوهاب العثمان يزور عمته دائماً كلما ذهب إلى شط العرب ليحمل التمور في سفينته إلى الهند، حيث كانت عملية التحميل هذه تستغرق من أسبوع إلى أسبوعين في المتوسط شاملة عملية شراء التمر بعد حسن اختياره، وتحمله باستخدام الإبلام الصغيرة (التشاشيل: جمع تشالة)^(٢).

وقد أنجبت شمة ابنة أسمتها هيلة، ثم أصبحت هيلة العزاز جدة لأحفاد ناصر الإبراهيم، وكذلك جدة لأحفاد حسن الجريوى وجدة لأحفاد محمد الناجم.

(١) سمي المرحوم الشيخ جابر بن عبدالله بن صباح حاكم الكويت الثالث (جابر الأول) باسم "جابر العيش" لكرمه الشهير وتوزيعه العيش (الرز) على الفقراء، والعيش كان ولا يزال الوجبة الرئيسية في الكويت، وقد كان خدامه يقومون وقت الأكل بالمناداة بالأسواق لكي يأكل الناس من هذا الطعام الذي اشتهر باسم الشخص الذي يطبخه وهو "ابن عمير" حتى سمي هذا الطعام باسم "عيش بن عمير" وقد تولى الحكم في ٢٦ فبراير ١٨١٥م، واستمر حكمه حتى عام ١٨٥٩م.

(٢) التشالة: سفينة شراعية صغيرة الحجم تشبه "البوم" في المقدمة والمؤخرة، وكانت تستخدم لنقل البضائع بين السفن التجارية الضخمة والموانئ التي ترسو بها خصوصاً عند ضحالة المياه قرب هذه الموانئ.

وقد وردت لأبناء وأحفاد المرحوم عبدالوهاب العثمان رسالة من السيد عبدالعزيز الناصر البراهيم وهو أحد أقربائهم من الجد الرابع وهو ممن استقروا في المدينة المنورة واهتموا بالتاريخ والإنسان والقبائل العربية أورد فيها شجرة العائلة التي توضح الأصول والفروع للأقسام الثلاثة من الأسرة.

كما ذكر فيها اتصال هذه الشجرة بفروع قبيلة تميم حيث يقول: "إن أسرة آل إبراهيم (جنوبية سدير) من بني تميم القبيلة العربية المشهورة من بني العنبر بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن معز بن نزار بن معد بن عدنان بن ثابت بن نبينا إسماعيل بن إبراهيم عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وقبيلة بني تميم هي من القبائل العربية المشهورة وقد وردت أحاديث عن نبينا محمد ﷺ في ثنائه عليها. أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: "لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: هم أشد أمتي على الرجال، وكانت فيهم سبيّة عند عائشة فقال: "اعتقها فإنها من ولد اسماعيل"، وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قومي" (١)

هذا ومما يذكر أنه سبق لعبدالعزيز بن عثمان أن زار الكويت مع والده عثمان عدة مرات قبل أن يستقر فيها بصفة نهائية. ويبدو أن والد عبدالعزيز بن عثمان كان يفكر بصورة جدية في كل زيارة له للكويت بموضوع هجرته من نجد واستقراره فيها ولكنه لم يحسم هذا التفكير بشكل نهائي، إلا أنه أوصى أولاده من بعده أن يهاجروا إلى الكويت ويستقروا فيها إن لم يكن في حياته فليكن بعد مماته، وقد تحقق ذلك على يد ابنه عبدالعزيز وعبدالله وابنته هيا. وقد تزوجت هيا من سليمان بن غانم العثمان وهو أحد أقارب عبدالعزيز بن عثمان وانجبت كلاً من عبداللطيف ومحمد وشيخة والدة عبدالرحمن إبراهيم العثمان. كما رزق سليمان من زوجة أخرى كلاً من علي وداوود، أما علي فقد رزق بسليمان وغانم، وأما داوود فقد رزق بعبدالرحمن.

ومن عبدالوهاب بن عبدالعزيز الجد الثالث لعبدالعزيز بن عثمان جاء إبراهيم، ومن أحفاده عبدالرحمن بن إبراهيم العثمان، ومن أحفاده كذلك محمد عبدالرحمن العثمان الذي رزق

(١) رواه البخاري - ج ٥ - حديث رقم ٢٥٤٣ - كتاب العتق (١٣).

بثلاث بنات: طيبة وتزوجها عبدالوهاب المفلح، ولطيفة وتزوجها حمود العنجري، ومنيرة وتزوجها محمد موسى، وقد ولد محمد عبدالرحمن العثمان في نجد عام ١٨٨٠م، وتوفي عام ١٩٦٠م في الكويت بعد أن استقر بها منذ صغره، وهو عم النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان.

أما عبدالله بن عثمان الأخ الأكبر لعبدالعزیز بن عثمان فقد كان نوخذة "قطاعة"، وقد توفي في العراق في إحدى رحلات السفر. ولم يرزق إلا ببنتٍ واحدة تزوجها محمد سليمان العثمان. وأما عبدالعزیز بن عثمان مؤسس العائلة وعميدها الأول فقد أنجب عثمان وعبدالله وعبدالوهاب.

وهكذا اجتمع الأقارب وتكاثروا وتأسست عائلة جديدة في الكويت متفرعة من عائلة البراهيم في جنوبية السدير من نجد، فنشأت أجيال جديدة من أبناء وأحفاد الرواد الأوائل لعائلة العثمان، التي أنجبت ١٦ من نوخذة السفر البحري، جابوا خلالها سواحل الهند واليمن وإفريقيا. ومما يذكر كذلك أن هناك الكثير من النوخذة الآخرين من غير العائلة سافروا بأبوام العثمان.

كانت هذه نبذة تاريخية وجغرافية لعائلة العثمان في موطنهم الأصلي "سدير" وفي البلاد التي أبدعوا فيها وتميزوا: الكويت .. فكانوا نعم الرواد.

أهل نجد ... والبحر

ليس بغريب على الإنسان أن يتبع العيش الكريم أينما كان، وأن يبتغي الرزق الحلال ولو من بين أنياب الأسد إذا ما اضطر إلى ذلك.

لقد كانت البيئة الصحراوية في نجد طاردة لكثير من أهلها الذين هاجروا طلباً للرزق الحلال وهروباً من القحط والجفاف حتى اصطدموا بالبحر، فلما أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا، وإما أن يعبروه ويسيروا أغواره رغم أهواله ومتاعبه، فإن أعطوه من أنفسهم أعطاهم من أعماقه اللؤلؤ وهو مصدر رزق وفير، وإن عبروه وامتطوا سهوة أمواجه جلبوا ما وراءه من خيرات حسان من أقاصي الأرض في حينها: الهند شرقاً وإفريقيا غرباً، وبذلك يكونون قد غطوا الغوص على اللؤلؤ من جهة والسفر الشراعي التجاري من جهة أخرى، وهما المصدران الرئيسان للرزق بلا منافس.

ولقد قدمنا في صدر هذا الكتاب كيف كانت الكويت آنذاك رئة تجارية تنفس بها المنطقة بأسرها لوجود أسطول بحري كبير، وصل الشرق بالغرب في حركة تجارية دؤوبة، الأمر الذي جعل الرجال من سكان معظم مدن نجد وقراها ينحدرون سنوياً إلى الكويت في رحلات تجارية سنوية معروفة باسم "الحدرة"^(١) (بفتح الحاء وتسكين الدال). وكان من أبرز ما ينقلونه إلى مدنهم المواد الغذائية التي لا تزرع في الجزيرة العربية وتستجلب من الهند مثل الشاي والأرز والسكر والتوابل.

ولكن أئى لأهل نجد من الذين لم يروا البحر بأعينهم مرة واحدة في حياتهم لأن يقتحموا كل ذلك؟ بحيث لا تقتصر الحركة التجارية في الكويت على رحلات البر، بل تتعداها إلى رحلات البحر.

وكذا الحال بالنسبة لأهل البادية الذين انشغلوا بالترحال جرياً وراء الكلاً والزرع لترعى دوابهم وهي المصدر الرئيس لمواردهم المادية. ومن اللطيف أن كلا الشريحتين اتقنتا صناعة ركوب البحر غاية الإتقان.

(١) لا أستبعد أن يرتبط هذا الاسم بطبيعة البيئة التي كان يعيشها هؤلاء. فمن المعروف أن نجد هضبة فيها ارتفاع عن سطح البحر، والكويت منخفضة عنها بشكل واضح، وقد كانوا يعدون لهذه "الحدرات" عدتهم من الاستعداد وأخذ الحيطة والحذر من قطاع الطرق، واصطحاب فرد معروف من كل قبيلة ستمر قوافلها في أراضيها ليكون صمام أمان لهم عند مرورهم هذا، وكان هذا الشخص يسمى "الرَّقُق" ويعطى أجره الكامل مقابل هذه الصحبة في السفر.

ويقال إن أحد النجادة عندما وصل إلى الكويت آتياً لتوه من نجد لم يجد أمامه إلا الأعمال البحرية التي لم يمكن يعرف عنها شيئاً، فتقدم إلى أحد النواخذة طالباً منه العمل معه في السفينة ابتغاء كسب الرزق الحلال، فقال له "ليس لدينا عمل إلا الغوص"، وهذا يتطلب على الأقل أن تعرف كيف تسبح في البحر، وأنت لم يمر على قدومك من نجد إلا أيام قليلة، بل لم تشاهد البحر في حياتك ولو لمرة واحدة، فرد عليه النجدي معبراً عن استعداد له هذا العمل وتعلمه. فأجابته النوخذة - وهو بذلك يريد أن يصعب الأمور على هذا النجدي:

"ماذا تريد أن تعمل: سيب أم غيص؟" فأجابته النجدي متسائلاً أيهما يتقاضى أجراً أكثر؟ فقال له النوخذة: الغيص طبعاً، فرد عليه: النجدي إذاً أريد أن أكون غيصاً.

فما كان من النوخذة إلا أن وافق أمام هذا الإصرار، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وضوح الهدف وقوة الإيمان لدى هؤلاء النجديين ولقد كان ذلك سبباً لبراعتهم في دروب البحر حيث تفوقوا على نظرائهم من أهل الخليج، كما يذكر المؤرخون.

كان عبدالعزيز بن عثمان عميد عائلة العثمان في الكويت هو أحد هؤلاء النجديين الذين برعوا في البحر ودروبه، حيث وصل إلى الكويت مع أخيه عبدالله وأخته هيا عام ١٨٥٧م، وكان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة. وقد استقر فيها، وباستقراره في الكويت نشأت عائلة العثمان واستقرت فيها.

ومن اللطيف بل العجيب ذلك العزم الذي بدأ فيه حياته العملية، حين ركب البحر متعلماً ومنتبهاً لفنونه وهو عازم على الريادة في مجال صناعة ركوب البحر، فلما طلب منه أهله أن يتزوج ويستقر إذ لا تعارض بين العمل والزواج - قال كلمته المشهورة: لن أتزوج حتى أربط "البري"، والبري حبل يربط بمؤخرة السفينة، ويثبت بوتر على الأرض من خلفها حتى لا يتحرك مع ارتفاع ماء المد، وفي كلمته هذه كناية عن امتلاكه سفينة وحده.

ومن الألفظ والأعجب من ذلك أنه عندما امتلك السفينة عرض عليه الأهل والأحباب الزواج مرة أخرى، ولم يكن قد امتلك حينها البيت الذي يسكن فيه فأجابهم بكلمة معبرة قائلاً: "ليس قبل أن يكون لي قبر في هذه الأرض"، ومعنى القبر هنا أنه المكان الوحيد الذي لا ينازعه فيه أحد فكذاك البيت الملك، فلم يتزوج المرحوم النوخذة عبدالعزيز بن عثمان حتى امتلك السفينة "مساعد" عام ١٨٧٩م، وأسس البيت عام ١٨٨٥م تقريباً وكان ذلك هو تاريخ بداية تأسيس فريج العثمان بمنطقة القبلة.

فريج (حي) العثمان

(١٨٨٥م)

كانت مدينة الكويت القديمة تتكون من ثلاث مناطق رئيسية هي القبلة والشرق والمرقاب، بالإضافة إلى مناطق متاخمة لها أصغر منها مثل الوسط والصالحية وأم صدة والمطبة والمقوع ودسمان والصوابر وغيرها.

أما منطقة القبلة فتقع في اتجاه القبلة بالنسبة لبقية المناطق في مدينة الكويت أي في القسم الغربي منها، وتبدأ من موقع المستشفى الأمريكي (مستشفى الإرسالية الأمريكية) حتى "البهيتة" ويراد بها الأرض المرتفعة الواقعة قرب قصر السيف في المنطقة بين الشارع الجديد والصفاء وقصر نايف حتى درواسة (بوابة) الجهراء.

أما منطقة الشرق فتتمدد على ساحل جون الكويت^(١) من البهيتة أمام قصر السيف إلى منطقة العاقول عند ديوان الملا صالح. بين منطقتي القبلة والشرق تقع منطقة الوسط على جون الكويت ما بين القبلة حتى درواسة العبد الرازق (ملتقى شارع الجهراء ودسمان حالياً) والشرق الذي يفصله عن الوسط شارع الميدان^(٢).

وقد تميزت هاتان المنطقتان: القبلة والشرق بأنهما كانتا أكبر المناطق مساحة وأرقاها سكاناً، إذ كان المتعارف عليه قديماً أنه كلما قرب السكن من البحر زادت قيمته، وما زال هذا متعارفاً عليه إلى الآن، ومن ثم كانت منطقتا القبلة والشرق في المرتبة الأولى سكنياً.

وهناك ظاهرة أخرى وهي أن معظم المساكن التي كانت تنتشر على السيف (شاطئ البحر) ذات مساحة كبيرة وتسكنها العائلات الكبيرة والغنية، وقد كان لأكثر هذه العائلات نقعات أو "نقع" (جمع نقعة) وهو ما يشبه الموانئ الصغيرة التي ترسو فيها السفن، أو تبنى، أو تقف ريثما تتم صيانتها.

أما المرقاب - وهي ثالث أكبر منطقة في مدينة الكويت القديمة - فهي منطقة مرتفعة جنوب مدينة الكويت وفيها تل يسمى "المرقب" ومنه كان جند ابن صباح يراقبون هجمات الأعداء وتحركاتهم، ويسارعون بإبلاغ الأهالي لأخذ الاحتياطات اللازمة. وقد كان ذلك المرقب مدخلاً من مداخل المدينة، وبعد أن بُني السور وحلَّ الأمن بالمدينة أخذ السكان يبنون تلك المنطقة، التي سميت حينئذ باسم "المرقاب".

(١) جون الكويت: هو خليج الكويت، وهو على شكل هلال، وأقصى طوله من الشرق إلى الغرب حوالي ٢٠ ميلاً.

(٢) مختصر تاريخ الكويت - راشد الفرحان - القاهرة ١٩٦٠م - ص ٥١.

وبذا يكون كل اسم من الأسماء الثلاثة (القبلة - الشرق - المرقاب) له من الدلالة ما برر اختياره علماً على مُسماه، فإذا كان الشرق قد أُطلق على الجهة الشرقية من الكويت، فإن اسم القبلة قد أُطلق على الجهة الغربية لأن قبلة الكويتيين ناحية الغرب^(١).

وحين نتأمل هذه التسمية من زاوية أخرى، فإننا نخلص إلى معنى كاشف عن الفطرة الإسلامية المركوزة في أهل الكويت. فقد كان ممكناً مثلاً أن تسمى هذه المنطقة باسم آخر مشتق من الجغرافيا، كما اشتق اسم الشرق، أو من الوظيفة، كما اشتق اسم المرقاب من المراقبة، إلى غير ذلك مما يمكن تلمسه عند التسمية.

ولكن اختيار لفظ "القبلة" بعينه علماً على هذا الحيِّ بعينه يُشير إلى قدسية تلك الجهة التي جعلها المصلي أمامه في الصلاة، حين يولي وجهه شطر المسجد الحرام حيثما كان. يقول تعالى: "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ"^(٢).

والقبلة في اللغة هي الجهة، يقال "ما لكلامه قبلة" أي جهة. والقبلة أيضاً "المُصَلِّي"، قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"^(٣)، جاء في تفسير "الجلالين": تبوء أي اتخذوا، وقبلة أي مصلى تصلون فيها لتأمنوا الخوف، وكان فرعون قد منعهم من الصلاة.

وبشكل طبيعي تحتوي كل منطقة من هذه المناطق على أحياء وتسمى فرجان (أحدها: فريج) ويخدم كل مجموعة من هذه الفرجان مسجدٌ يبنيه أهل الفريج عادة أو أحد الأغنياء منهم أو بعضهم. ورغم قصر المسافات بين المساجد إلا أنها كانت بالكاد تكفي لسكان كل حي تقع فيه لتزاحم المساكن في كل حي وتباعد الطرق بينها لوجود التفاف في كثير من الشوارع في هذه الأحياء حول المساكن فيها، ووجود بعض الأزقة (السكيك جمع سكة) المغلقة وتسمى في هذه الحالة "سكة سد".

(١) تاريخ الكويت - عبدالعزيز الرشيد - ص ٣٨.

(٢) البقرة - ١٤٤.

(٣) يونس - ٨٧.

وقد تبين ذلك بجلاء بعد تثمان كثير من المساكن وهدمها فانكشفت المسافات الصغيرة جداً بين المساجد، وعلى سبيل المثال لا الحصر يبعد الآن مسجد هلال (براك الدماج) عن مسجد العتيقي (المطران) بضع خطوات هي موقف للسيارات الآن رغم أنهما كانا مزدحمين سابقاً بالمصلين، وكان المسجدين بعيدان عن بعضهما سابقاً.

وهنا نقترّب من الحديث عن فريج العثمان، وموقعه حالياً مشغول بمبنى مجلس الأمة الذي احتل موقع فريج العثمان في أجزاء كثيرة منه.

وفريج العثمان يحده من الشرق بيت المبارك وبيت العبد الجليل الذي اشتراه غانم العثمان ومدرسة عمر بن الخطاب ثم بيت ثنيان الغانم وفريج الصقر (البدر)^(١). ويحده من الغرب بيت فهد المرزوق الذي اشترى جزءاً من بيت حامد النقيب، ثم يليه بيت أحمد العبدالله الصقر ثم خالد الزيد الخالد ثم بيت أحمد الخرافي. أما من الجنوب فيحده بيت سيد محمد سيد أحمد صالح الرفاعي وبيوت عبدالعزيز ويوسف ومحمد الحميضي وبيت الصانع، وبيت محمد عبدالرحمن البحر وبيت بورحمه.

عندما هاجر عبدالعزيز بن عثمان مع أخيه الأكبر عبدالله وأخته هيا سكنوا عند أحد معارفهم من بيت المعجل في فريج سعود، ثم اشترى عبدالعزيز بن عثمان بيتاً هناك في المنطقة نفسها، وبعد ذلك انتقل إلى ما سمي فيما بعد بفريج العثمان في آخر منطقة القبلة من مدينة الكويت، حيث كانت معظم البيوت والأراضي هناك مملوكة لعائلة المبارك وعائلة المزيد، بالإضافة إلى أراضي فضاء.

واشترى عبدالعزيز بن عثمان أحد بيوت عائلة المبارك الذي أصبح فيما بعد بيت العثمان، وهناك سكن الجميع (عبدالعزيز بن عثمان وأولاده عبدالله وعبدالوهاب وأولادهم). وكذلك سكن معه محمد ابن أخته هيا، وأما عبداللطيف فقد سكن مع والدته هيا، وذلك بعد أن توفي والدهم سليمان بن غانم العثمان، وكذلك اشترى المرحوم عبدالعزيز بن عثمان بيت السيد خلف بن السيد عبدالرحمن النقيب.

(١) يسميه البعض "فريج الصقر" بينما يسميه البعض الآخر "فريج البدر" لكثرة مساكن العائلتين في ذلك الحي (الفريج).

وعندما كبرت العائلة رأى عبدالعزيز بن عثمان أن الوقت قد حان لكي يقسم الحلال بين أولاده من جهة وأبناء أخته من جهة أخرى. وقد كانت هذه القسمة محل إعجاب ورضا الجميع لما سادها من عدل وإنصاف، حيث احتفظ عبدالعزيز بن عثمان ببيت العثمان والديوانية، وعندما توفي عام ١٩٣٥م اقتسم أبناء عبدالله وعبد الوهاب الحلال بينهما حيث احتفظ عبدالله ببيت العثمان الأول وجزء من العمارة على البحر، واحتفظ عبدالوهاب بالديوان على البحر والجزء الآخر من العمارة، ثم اشترى عبدالوهاب بيت أحمد محمد الغانم وهو بيت كبير يحتوى على ديوانية.

وبعدما انفصل كل من عبداللطيف ومحمد عن خالهما عبدالعزيز بن عثمان، اشترى عبداللطيف ومحمد سليمان العثمان بيت أسماء (أسومة) بنت طالب النقيب بتسعة آلاف روبية، وسكن فيه محمد وسليمان ويوسف وعبدالرزاق وعبدالله، أما عبداللطيف فكان يسكن مع والدته هيا ومع أخته شيخة في بيت قرب بيت العائلة.

ولما اشترى عبداللطيف ومحمد بيت حامد النقيب بثلاثين ألف روبية، سكنا في هذا البيت، وعندما انفصلا عن بعضهما صار بيت النقيب والديوان لعبداللطيف، وبيت أسماء النقيب وحوطة كبيرة يحدها من القبلة بيت فهد المرزوق ومن الشرق الشارع مقابل مسجد العثمان لمحمد، والعمارة والنقعة مناصفة بينهما: جهة الشرق لمحمد وجهة الغرب لعبداللطيف.

وبعد وفاة عبدالعزيز بن عثمان أصبح للعثمان ديوانان: ديوان عبداللطيف العثمان وديوان عبدالوهاب العثمان، بالإضافة إلى ديوان غانم بن عثمان الذي اشترى بيت العبد الجليل الملاصق لفريج العثمان، كما أصبح لكل منهم منزله الخاص وعمارته الخاصة به، وقد استمر ذلك إلى أن تم تتمين هذه البيوت والانتقال إلى ضواحي العاصمة في بداية الستينيات.

وعندما تم التتمين لم يبق من بيوت عائلة المبارك في فريج العثمان إلا بيتان هما بيت النوخذة يوسف جاسم المبارك وبيت خالد المبارك، وسكة واحدة كان يطلق عليها سكة المزيد، فيها جميع بيوت هذه العائلة الكريمة.

وعلى أية حال، فإن تسمية الحي (الفريج) لم تكن تصدر بقرار رسمي من السلطات الحكومية آنذاك، بل إنها نشأت قبل إنشاء دائرة البلدية التي أنيطت بها لاحقاً عملية تسمية الشوارع. لقد تعارف الناس على تسمية الحي (الفريج) تبعاً لاسم العائلة التي تسكن أكثر مجموعة من البيوت في هذا الحي، أو أكبر البيوت حجماً وأكثرها سكاناً بما يجعلهم هم الأغلب بين سكان هذا الحي. ولعل هذا يفسر ببساطة تسمية ذلك الحي باسم "فريج العثمان".

نقعة العثمان

(م١٨٩٥)

ترتبط النقعة غالباً بالفريج (الحي) من حيث كونها هي الامتداد البحري لذلك الحي؛ لأنها في العادة متاخمة للحي الذي تشغل معظمه بيوت أفراد العائلة التي تسمى النقعة باسمها.

والنقعة بتشديد النون وكسرهما وتسكين القاف، هي حوض ترسو به السفن لحمايتها من الأمواج أو لإصلاحها أو صيانتها، وهذا اللفظ عربي الأصل حيث إن النقع هو الماء المتجمع وكل ماء مجتمع يسمى "نقع" والجمع نقعان بضم النون، ومن هذا اللفظ جاء استخدام مسمى "المستنقع" للماء الراكد.

وفيما يلي أسماء النقع بالترتيب الجغرافي من الغرب - في منطقة القبلة - إلى أقصى الشرق في منطقة الشرق^(١):

أولاً: القبلة:

- ١- نقعة السائر.
- ٢- نقعة سعود المطيري.
- ٣- نقعة أحمد عبدالمحسن الخرافي.
- ٤- نقعة عبداللطيف ومحمد سليمان العثمان.
- ٥- نقعة عبدالعزيز العثمان.
- ٦- نقعة علي المبارك.
- ٧- نقعة يوسف الصقر.
- ٨- نقعة محمد ثنيان الغانم.
- ٩- نقعة آل عبدالجليل (نقعة غانم العثمان فيما بعد).
- ١٠- نقعة حمد عبدالله الصقر.
- ١١- نقعة علي المانع.
- ١٢- نقعة ناصر البدر.
- ١٣- نقعة فلاح الخرافي.
- ١٤- نقعة الخالد.
- ١٥- نقعة المرزوق.

(١) تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي - سيف مرزوق الشمالان - ص ٢٣١، أسواق الكويت القديمة - محمد عبدالهادي جمال - ص ١٢٥.

- ١٦- نقعة بودي.
- ١٧- نقعة سيد ياسين الرفاعي.
- ١٨- نقعة سعود (نسبة إلى سعود الصباح).
- ١٩- نقعة آل غنيم.
- ٢٠- الفرضة.

ثانياً: الشرق:

- ١- نقعة الإبراهيم (نسبة إلى الشيخ يوسف بن عبدالله الإبراهيم).
- ٢- نقعة الشيوخ (نسبة إلى الأسرة الحاكمة).
- ٣- نقعة الشاهين.
- ٤- نقعة معرفي.
- ٥- نقعة الخميس (نسبة إلى عبداللطيف الخميس).
- ٦- نقعة بوقماز.
- ٧- نقعة شمالان (نسبة إلى شمالان بن علي آل سيف).
- ٨- نقعة العسوسي.
- ٩- نقعة النصف.
- ١٠- نقعة علي الفضالة.
- ١١- نقعة محمد صالح التركيت.
- ١٢- نقعة ناصر النجدي.
- ١٣- نقعة هلال (نسبة إلى هلال بن فحجان المطيري).
- ١٤- نقعة مشاري عبدالله الروضان.
- ١٥- نقعة أحمد المناعي.
- ١٦- نقعة جاسم محمد العماني.
- ١٧- نقعة عبدالرحمن العسوسي.
- ١٨- نقعة علي أبو ونيان.
- ١٩- نقعة راشد بورسلي.
- ٢٠- نقعة جاسم الغانم.

٢١- نقعة أحمد القضيبى.

٢٢- نقعة عبدالله بن غيث.

٢٣- نقعة السيد هاشم النقيب.

٢٤- نقعة ابن معنوق.

٢٥- نقعة الشيخ خزعل.

٢٦- نقعة دسمان.

ولقد أقام التجار من أهل الكويت هذه النقع على حسابهم الخاص تسهيلاً على سفنهم وطواقمهما من أجل أداء أفضل في المواسم التجارية اللاحقة.

ويتراوح ارتفاع سور النقعة^(١) - الذي يسمى "قاف"^(٢) - ما بين متر ونصف بالقرب من الساحل إلى أربعة أمتار أو أكثر داخل البحر، حسب عمق النقعة وبُعد سورها الداخلي عن الساحل، ويبلغ عرض السور عند قاعدته حوالي سبعة أمتار أو أكثر، يقل تدريجياً إلى أن يصل إلى حوالي متر ونصف أو مترين عند سطحه، ويساعد ذلك على تقوية السور وبقائه أطول فترة ممكنة لمقاومة الأمواج العاتية التي تنكسر على جدرانه، وبذلك يحمي السفن الراسية في النقعة من آثارها.

وللنقعة عادة فتحتان؛ شرقية، وغربية، تسمى الواحدة منها "فاتق"، وتستخدم لدخول السفن إلى النقعة والخروج منها، ويساعد وجود فتحتين متقابلتين أو أكثر في النقعة على تجدد مياهها وعدم تكون "الصيانة"، وهي ترسبات طينية وعضوية تنتج عن ركود الماء وعدم تبدله مما يؤدي إلى تجمع الأوساخ ووجود روائح ننتة.

وتتسع بعض النقع لعدد كبير من السفن، وكان معظمها يأوي سفن الغير أيضاً دون مقابل، بينما يتقاسم أصحاب السفن التي ترسو في النقعة نفسها تكاليف صيانتها، بدفع مبلغ معين من المال سنوياً مقابل كل سفينة، وذلك لتغطية مصاريف الصيانة وإعادة بناء أسوارها في حالة تدهورها، أو إصابتها بالثلف نتيجة للأمواج العاتية والرياح الموسمية القوية، التي تهب على

(١) أسواق الكويت القديمة - محمد عبدالهادي جمال - ص ١١٦، ص ١١٩.

(٢) يقوم ببناء "القاف" أسانذة بناء متخصصون، ويستخدم صخر البحر في بناء القاف (أو السور)، وتنطق القاف هنا ميماً مصرية.

الكويت خلال الفترة الممتدة من منتصف شهر مايو إلى أواخر شهر يونية، والتي تسمى "رياح البوارح".

وكانت بعض النقع تستقبل السفن القادمة من موانئ الخليج وبحر العرب لإصلاح سفنهم الكبيرة في الكويت. ويحل أصحاب السفن من ميناء "صور" بعمان وغيره من الموانئ التي تتوجه إليها سفن الكويت، ضيوفاً على أصحاب النقع أثناء فترة تواجدهم في الكويت، حيث يستضيفهم هؤلاء في بيوتهم ودواوينهم، نظراً لعلاقة الصداقة التي كانت تربطهم، ويبقى هؤلاء في الكويت إلى أن تنتهي مهمتهم، المتمثلة في بيع بضائعهم أو إصلاح سفنهم، حيث يقوم مضيفوهم بتقديم كافة أنواع المساعدة لهم لإنجاز أعمالهم.

وتظل السفن الشراعية الكويتية راسية في النقع أثناء فترة توقف العمل بانتظار قدوم الموسم التالي، ويتم تغطيتها بعرشان من الحصير والبوارح لحفظها من حرارة الشمس والعوامل الجوية الأخرى.

ولا تخلو النقع في معظم الأحيان من السفن المتوقفة نظراً لاختلاف مواسم العمل للسفن الرئيسية التي تستخدمها، وهي سفن السفر التجاري وسفن الغوص؛ إذ يبدأ موسم السفر التجاري إلى الهند مع بداية توافر التمور في العراق في شهر يوليو.

فتغادر تلك السفن النقع بعد صيانتها وتنظيفها وتجهيزها للسفر، وتتوجه إلى العراق لشراء التمور من هناك وتحميلها، تمهيداً لنقلها إلى الهند أو اليمن وإفريقيا، وتستمر سفن السفر في رحلتها إلى الهند وإفريقيا مدة تتراوح ما بين ثمانية أشهر وتسعة أشهر، لتعود بعدها إلى النقعة في شهر مايو.

ولقد أسس الحاج النوخذة عبدالعزيز بن عثمان نقعة العثمان في حوالي عام ١٨٩٥م بالتعاون مع ابني أخته عبداللطيف ومحمد، وتقع هذه النقعة في طرف منطقة القبلة بمدينة الكويت، مقابل مبني مجلس الأمة الحالي، وقريبة من نقعة العبدالجليل ونقعة الصقر، التي أعيد صيانتها وتأهيلها لاستقبال السفن.

ولم يبق من نقعة عبدالعزيز العثمان إلا بعض الصخور، بعدما كانت من أكبر النقع في الحي القبلي، حيث كانت أبعادها ٨٠٠ ذراع طولاً و ٨٠٠ ذراع عرضاً^(١)، وكانت النقعة تضم بين صخورها والشاطئ أكثر من ستين سفينة مملوكة لعائلة العثمان عبر التاريخ البحري لهذه العائلة.^(٢)

ومما يذكر أن هذه الأرض تم تخصيصها من قبل الشيخ مبارك الصباح حاكم البلاد في ذلك الوقت للحاج عبدالعزيز بن عثمان الذي خصص مبلغاً كبيراً من ماله الخاص لإنشاء هذه النقعة وصيانتها.

وقد استمرت العائلة بصيانتها لأكثر من ٧٠ عاماً على حسابها الخاص. ويحد النقعة من الشرق نقعة المبارك، أما من الغرب فتحدها اليسرة ونقعة الخرافي. أما من الجنوب فيحدها عمائر العثمان ثم فريج العثمان.

واليسرة هي قطعة صخرية كبيرة بارزة على شاطئ البحر في الموقع المذكور، وقد تميزت صخورها بالصلابة الشديدة مما يستعصي على أقوى العمال في ذلك الزمان لكسر موضع ولو صغير فيها، لذا تعامل معها الكويتيون كمعلم طبيعي لا يسهل تغييره، فاستفادت منه بذلك عشرات النساء الكويتيات اللاتي كن يحملن أكوام الملابس على رؤوسهن لغسلها على صخور اليسرة، لاستوائها وسهولة الحركة فوقها واتساعها من جهة، ولبعد الرجال عنها في أقرب نقعة إليها من جهة أخرى، وقد دفنت الآن واعتلاها حالياً مبنى مجلس الأمة الذي شغل مواقع في جهتي البر والبحر كانت من أكثر المواقع حركة ونشاطاً.

ولعله من المناسب هنا أن أورد مقترحاً وجيهاً من أبناء المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان: "ترجو من الحكومة الكويتية أن تحافظ على ما تبقى من هذه النقعة من ضمن الواجهة البحرية، وأن تُسمى كل نقعة باسمها الأصلي، وخاصة في الحي القبلي لمدينة الكويت، الذي تم هدم معظمه، وقد ضاعت بذلك معالم الفرجان وأساؤها ودواوينها.

وقد كان يجب أن يحتفظ كل فريج باسمه الأصلي وحدوده القديمة، مع وجود الأبنية الجديدة المقامة عليه، تذكيراً بأصل هذا المكان، كجزء من تراث الكويت وأهل الكويت الذين حافظوا عليها يوم لم يكن هناك من يطمع فيها بسبب شظف العيش وصعوبة الحياة".

(١) حسب رواية العم عيسى عبدالله العثمان.

(٢) حسب رواية العم سعود فهد السميط - رحمه الله.

عمائر العثمان

قبل الحديث عن عمائر العثمان دعنا - عزيزي القارئ - نتعرف عن العمائر بشكل عام كمرافق تجارية لعبت دوراً مهماً في تاريخ صناعة البحر، مستعنيين بالبحث اللطيف عن العمائر، الذي أورده الأستاذ محمد عبدالهادي جمال في كتابه "أسواق الكويت القديمة" (ص ١٢٨ وما بعدها).

يقول الأستاذ عبدالهادي جمال: "ضم الطريق الموازي لساحل البحر على جانبيه عدداً كبيراً من المتاجر والمخازن وبائعي مواد البناء والمواد المستخدمة في صناعة السفن، وتسمى تلك المتاجر "عمائر" ومفردتها "عمارة" والعمارة عبارة عن بيت عربي كبير أو حوش يستخدم كمخزن لوضع هذه المواد فيه، ويوجد لكل عمارة عادة مدخل متصل بالمتجر المواجه للبحر في معظم الأحيان، والذي تعرض فيه نماذج من البضاعة أمام الباب وداخله.

ويجلس صاحب العمارة في المتجر لاستقبال المشترين، أو تبادل الأحاديث مع أصدقائه، الذين يقضون أوقاتهم معه أثناء ساعات العمل؛ ويستخدم كل صاحب عمارة عمارته لأغراض تتناسب مع طبيعة عمله؛ فمثلاً يستخدم كبار التجار وأصحاب السفن الشراعية - سواء منها أبوام السفر أو أبوام الغوص - عماراتهم لتخزين البضائع والمواد الخاصة لاستخدامات اسطول السفن التابع لهم، كما تصنع لبعض السفن في تلك العمائر.

وهناك من أصحاب العمائر تجار يتعاملون ببيع المواد بالمفرق على عملائهم من القلائف وصيادي الأسماك وأصحاب السفن الأخرى. كما يملك بعض أساتذة القلائف عدداً من العمائر لخرن الأخشاب المستخدمة لبناء السفن فيها، حيث يقوم بعضهم ببناء السفن في تلك العمائر. وتبدأ العمائر من أقصى منطقة الشرق بالقرب من دسمان، وتمتد إلى منطقة "الوطية" في أقصى الغرب من مدينة الكويت "القبلة".

ومن أهم المواد التي تباع في العمائر الأخشاب بأنواعها والجنديل والباسجيل والأرماع^(١)

(١) تستخدم هذه المواد لكثير من الأغراض وأهمها دهان الأخشاب؛ فمثلاً يستخدم "الطاري" - وهو الزفتة - في صبغ الباسجيل والجنديل المستخدم لأسقف المنازل، ويستورد من الهند، أما "الدامر" فهو على شكل صخور توضع على النار لتصهر وتدهن بها جدران السفن، و"الصل" مادة سائلة تستورد من عدن وتستخدم أيضاً في دهان جدران السفن الخشبية، وكذلك توضع بها فتائل القطن المستخدمة في سد الفتحات بين ألواح جدران السفن، و"الودك" هو السمن المستخرج من ذيل الخروف.

والبواري والحبال والطارى (السيالي أو الزفت) والصل والدامر والودك، وكل ما يتعلق بصناعة السفن وقطاع البناء من مواد تقريباً.

وغالبا ما تكون العماير قريبة من بيوت أصحابها ودواوينهم، حيث يفتح معظمها طوال النهار، وقد وضعت في مداخلها حبوب الماء (جمع حب)، ليشرب ويرتوي منها المارة. كما كانت بعض العماير تقدم الطعام للعابرين ناحيتها أثناء فترة الغداء، حيث يدعون ليحلوا ضيوفاً على أصحابها.

وفيما يلي أسماء العماير التي استطعنا^(١) الحصول عليها على جانبي شارع السيف في منطقتي الشرق والقبلة من خلال مقابلاتنا مع رجال الرعيل الأول والمهتمين بهذا المجال، كما بدت في فترة الأربعينيات وما قبل ذلك.

ولا يفوتنا هنا أن نؤكد إمكانية القصور - بل حتميته - في الحصول على كامل المعلومات الخاصة بالعماير - كما هو الحال بالنسبة للنقع - إذ أن الكمال ليس من صفات الإنسان.

١ - منطقة الشرق:

- عمارة الشاهين.
- عمارة عبدالكريم حسين أبو الملح.
- عمارة الحاج نجف بن غالب (اشتراها محمد حسن أبو البنات فيما بعد).
- عمارة الشيخ علي الخليفة (يوسف بو قريمز ثم عبدالعزيز الحمري).^(٢)
- عمارة الشيخ سلمان الحمود (موسى المزيدي).
- عمارة الحمد.
- عمارة براك الخميس.
- عمارة محمد علي معرفي.
- عمارة حسين معرفي (عبدالعزیز الحمري).
- عمارة صقر دعيح الفهد.

(١) لا يزال الحديث متصلاً للإستاذ محمد عبدالهادي جمال في كتابه "أسواق الكويت القديمة" - ص ١٣١.

(٢) الأسماء بين القوسين هي لمستأجري العماير من أصحابها المبينة أسماءهم قبلهم.

- عمارة محمد جواد معرفي.
- عمارة محمد رفيع معرفي.
- عمارة عبداللطيف الخميس.
- عمارة خالد الخميس.
- عمارة العميري.
- عمارة يوسف بن حيي.
- عمارة عبداللطيف بن عيسى.
- عمارة الفرحان.
- عمارة بو قماز.
- عمارة راشد بن صقر.
- عمارة الشمالان.
- عمارة بشر الرومي.
- عمارة ملا حسين.
- عمارة محمد بن حسين العسوسي.
- عمارة آل صادق.
- عمارة النصف.
- عمارة علي بن حمد الفضالة.
- عمارة محمد صالح التركيت.
- عمارة ناصر النجدي (اشتراها عبدالوهاب القطامي فيما بعد).
- عمارة هلال المطيري.
- عمارة مشاري الروضان.
- عمارة العماني.
- عمارة حسين العسوسي (اشتراها أبناء خليفة الشاهين فيما بعد).
- عمارة الونيان (اشتراها خالد الحمد فيما بعد).
- عمارة بورسلي.
- عمارة القضيبى.
- عمارة الغيث.

- عمارة المعتوق.
- عمارة آل قاسم.
- عمارة عبدالرسول الجمعة (اشتراها أحمد الأستاذ فيما بعد).
- عمارة الحاج عمران (اشتراها محمد حسين العليان فيما بعد).
- عمارة حسين بو حامد.
- عمارة الحاج حمود البدر.

٢ - منطقة القبلة:

- عمارة عبدالعزيز الجسار.
- عمارة يوسف النصر الله.^(١)
- عمارة محمد بن حيي.
- عمارة حمد بوقريص.
- عمارة يوسف الزين.
- عمارة ابراهيم الغانم.
- عمارة الصقر (الحدان).
- عمارة ناصر بن ناصر.
- عمارة الغنيم.
- عمارة علي الجوعان.
- عمارة عمران البنوان.
- عمارة درباس العمر.
- عمارة أمان.
- عمارة الياقوت (عبدالمحسن الفهد).
- عمارة المرزوق عمارة العبدالجيل.
- عمارة المباركي.
- عمارة حسن الشطي.

(١) الأسماء بين القوسين هي لمستأجري العمائر من أصحابها المبينة أسماؤهم قبلهم.

- عمارة أحمد الخشتي.
- عمارة المضاحكة.
- عمارة سيد ياسين.
- عمارة بودي (اشتراها الخالد فيما بعد).
- عمارة العيدان.
- عمارة فهد الفوزان.
- عمارة فلاح الخرافي.
- عمارة البدر.
- عمارة حمد الصقر.
- عمارة العبدالجليل (اشتراها يوسف الصقر فيما بعد).
- عمارة محمد ثنيان الغانم.
- عمارة غانم العثمان.
- عمارة علي المبارك.
- عمارة عبدالعزيز العثمان (عمارة عبد الوهاب عبدالعزيز العثمان وعمارة عبدالله عبدالعزيز العثمان فيما بعد).
- عمارة محمد سليمان العثمان.
- عمارة عبداللطيف سليمان العثمان.
- عمارة أحمد عبدالله الصقر.
- عمارة سعود المطيري.
- عمارة أحمد الخرافي.

وقد أنشأت أول عمارة لعائلة العثمان حوالي عام ١٨٨٥م، وتقع على البحر في فريج العثمان مقابل نقة العثمان، وقد كان يدير كل من العمارة والمكتب التجاري المرحوم سليمان عبداللطيف العثمان. استمر العمل في العماير منذ حياه النوخذة المرحوم عبدالعزيز بن عثمان إلى أن تمت القسمة بين أفراد العائلة، وانتقل كل من عبداللطيف ومحمد سليمان العثمان في بيت آخر. حيث أصبح لهم عمارة خاصة بهم بالقرب من العمارة الأصلية الأولى. تم تقسيمها فيما بعد وأصبح لكل واحد منهما عمارته الخاصة به، وقد بنى عبداللطيف وأخوه محمد ابنا أخته "نشالة" لهما بعد أن اشترى بيت النقيب (وما يقابله من السيف من عمارة ونقة).

بعد وفاه عبدالعزيز بن عثمان أنتقل عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان إلي بيت آخر في فريج العثمان وأصبح لكل من عبدالله العثمان وعبدالوهاب العثمان عمارته الخاصة به أيضا أما غانم العثمان فقد اشترى بيت العبدالجليل وعمارة العبدالجليل بالقرب من فريج العثمان.

وهكذا أصبح للعثمان عدة بيوت وأصبح لكل رب عائلة سفنه الخاصة به والتي تقف عادة أمام عمارته. وفي هذا كله دلائل واضحة على التمكن البحري والتفوق الإداري والمالي الذي كان نتيجة طبيعية للتفوق البحري لعائلة العثمان.

مسجد العثمان

(١٩٠٧م)

لقد ارتبط اسم المرحوم النوخذة القدير عبدالعزيز بن عثمان بالخير والحرص عليه، والريادة بين الناس بالمسابقة إلى الخير، ولقد مَثَّلَ بناء المساجد في كويت الماضي - التي اصطبغت بتدني المستوى المعيشي ونقص الدخل المادي بالنسبة للشعب والحاكم - مؤشراً قوياً على حب الخير بين الناس، وحب تيسير إقامتهم للشعائر الدينية، خصوصاً شعيرة الصلاة وفي جماعة من أهل الخير وعابري السبيل.

وفي ذلك امتثال لقول الله تعالى في غير موضع من القرآن الكريم، الذي يحث على إقامة الصلاة، ليس بالمعنى اللفظي لإقامتها، بل بالمحافظة على أدائها في أوقاتها، وأدائها في جماعة، وهذا هو المعنى الحقيقي لإقامة الصلاة، قال تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ (٤٣)" سورة البقرة.

لذا كان أول عمل خيري للنوخذة عبدالعزيز بن عثمان حين استقر في الكويت هو بناء مسجد لله تعالى، عسى أن يحظى - رحمه الله تعالى - ببيت في الجنة، متأولاً قول الرسول ﷺ: "مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ"^(١).

وذلك رغم أنه وضع ضمن أولوياته الاجتماعية بناء سفينة للعمل بها طلباً للرزق الحلال، وامتلاك بيت يأويه هو ووالدته وأخته هيا، لذا لم تكن هاتين الأولويتين وحدهما تشغلان بال النوخذة عبدالعزيز، فيحسب حسابهما في كسبه وشقائه، بل شغلته الأولوية الثالثة وهي بناء هذا المسجد.

ولقد قام عبدالعزيز بن عثمان بتأسيس هذا المسجد عام ١٣٢٥هـ الموافق عام ١٩٠٧م،^(٢) وكان يومها عمر ابنه النوخذة عبدالوهاب سنة واحدة.

ويقع مسجد عبدالعزيز العثمان على ساحل البحر في منطقة القبلة ويشغل موقعه الأول الجزء الشرقي من مواقف السيارات الرئيسية بمجلس الأمة، ثم تم نقله إلى موقعه الحالي شرقي مجلس الأمة على شارع الخليج العربي مقابل البحر.

(١) رواه ابن ماجه والترمذي.

(٢) كتاب: "مساجد الكويت القديمة" - عدنان سالم الرومي - الكويت ٢٠٠٢م، وقد تمت الإستعانة بالمادة التاريخية المذكورة فيه عن مسجد العثمان، وكذلك بعض الصور الواردة فيه والمتعلقة بالمسجد.

ولقد أفاد كل من النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان والسيد محمد يوسف البدر بأنه قد تم تجديد المسجد من قبل كل النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، وعبداللطيف سليمان العثمان، وأحمد محمد الغانم بمشاركة دائرة الأوقاف والشئون الإسلامية، والتي كانت تسمى حينئذ "دائرة الأوقاف العامة"، وذلك في العشرين من ذي القعدة عام ١٣٧١هـ الموافق الحادي عشر من أغسطس عام ١٩٥٢م، وقد بلغت تكاليف هذا التجديد ٨٧١٨٣ روبية. (١)

والمظهر الخارجي للمسجد يدل على قدمه، له بابان أحدهما غربي، وهو يؤدي إلى ردهة مستطيلة في نهايتها منارة المسجد، وهي شامخة الارتفاع تتراءى للناظرين من مسافات بعيدة، أما صحن المسجد فهو مستطيل الشكل فسيح يتسع لمئات المصلين، وبالجهة الغربية منه رواق محمول على ستة أعمدة من الأسمنت المغطى بالجص الأبيض الجميل، وبالحائط الغربي للرواق سبعة أبواب من الخشب العادي الذي كان يجتلب من البلاد الإفريقية في الفترة التي بُني فيها المسجد، والخلوة متوسطة المساحة، والمحراب والمنبر عبارة عن تجويف داخل الحائط، وكل منهما مُحلى بزخارف جصية رائعة للغاية.

وقد أوقف السيد حامد بن السيد رجب النقيب بيتاً واقعاً في محلة القبلة على إمام مسجد العثمان، وذلك بعد أن تُصرف من أجره هذا البيت على مصالحه من تعمیر وغيره، وما بقي فهو للإمام.

وقد قام بالإمامة فيه في البداية المرحوم الشيخ يوسف بن سليمان بن حمود، وهو من تلاميذ الشيخ عبدالله الخلف الدحيان رحمه الله، ثم تولى الإمامة من بعده تلميذه الشيخ محمد بن سليمان الجراح، الذي كان ينوب عنه أخوه الشيخ إبراهيم بن سليمان الجراح حين يذهب إلى الحج، الذي كان يستغرق آنذاك عدة أشهر.

ثم تلاهما في الإمامة الملا عثمان بن عيسى العصفور، ثم الشيخ درويش بن رحمة الذواوي، الذي انتقل إليه من مسجد عبدالله المرزوق المشهور باسم "مسجد الشرهان" نسبة إلى إمامه، وذلك بعد وفاة الملا عثمان بن عيسى العصفور.

(١) تاريخ دائرة الأوقاف العامة - دائرة الأوقاف العامة - الأمانة العامة للأوقاف - الكويت ١٩٩٥م.

ومن بعدهم جميعاً تولى الإمامة الملا أحمد الباحسين، الذي كان ضريباً ويملك دكاناً في بيته القريب من المسجد على أرض الشيخ يوسف بن حمود.

أما المؤذنون فقد كانوا على الترتيب حتى منتصف الخمسينيات كما يلي:
الملا محمد بن عبدالرحمن الحداري، والملا محمد بن خليل العوضي، والملا يوسف عيسى الشرف.^(١)

ولقد أعاد أبناء المرحوم عبدالوهاب العثمان بناءه في موقعه الجديد شرقي مجلس الأمة بعد هدمه في موقعه القديم، وذلك في السادس من فبراير عام ١٩٩١م، وهو الآن يشغل مساحة كلية مقدارها ١٤٨٢ متراً مربعاً، منها مساحة ١٣٠ متراً مربعاً مخصصة لمصلى النساء، بما يجعله يتسع لألف مصلٍ ومائة مصلىة تقريباً في آن معاً. وترتفع المئذنة حالياً لما يربو عن ٢٠ متراً، بما يكمل تميزه بعد أن كان يتميز منذ بداية بنائه بهذه المئذنة الطويلة التي تُرى من بعيد براً وبحراً.

ومن الجدير بالذكر أن خطبة الجمعة في هذا المسجد تقدم الآن للمصلين بلغات أجنبية، وعلى رأسها اللغة الإنجليزية، وبعض اللغات الآسيوية التي تمثل لغة أغلبية المصلين في هذا المسجد في صلاة الجمعة، وذلك بالتنسيق مع لجنة التعريف بالإسلام، التي تركز في عملها مشكورة على هداية الجاليات غير المسلمة الوافدة إلى الكويت، وتنشيط وتعليم المهتمين الجدد، وتستخدم في ذلك عشرات اللغات كتابةً وخطابةً، ولعلها صدقة جارية للمرحوم عبدالعزيز العثمان وكل من أكمل المسيرة المباركة من ورائه.

(١) تم استقاء هذه المعلومات عن أسماء الأئمة والمؤذنين من الشيخ محمد بن سليمان الجراح وأخويه إبراهيم وصالح، وكذلك من الشيخ عبدالرحمن عبدالله العبيدان والشيخ أحمد الغنام الرشيد، ومصادر الوزارة.

نواخذة العثمان

(١٨٧٩-١٩٥٠م)

لعل القارئ الكريم يلاحظ - وهو يجول في ثنايا هذا الكتاب - أنه تمحور حول أربعة محاور أساسية.

الأول: مقدمات الكتاب التي تشكل مدخلاً مهماً لموضوعه، وقد مهدت له بإلقاء الضوء على أهمية حرفة التتوخذ بحد ذاتها، وبالتالي الدور الحيوي الذي لعبه النواخذة في تاريخ السفر الشراعي، وبالتالي في رسم الملامح الرئيسية لتاريخ الكويت في الفترة الماضية، ومن ثم الدور الإستراتيجي الذي لعبته الكويت في المنطقة.

الثاني: التعريف بعائلة العثمان التي لعبت دوراً مهماً في استقرار الحياة الحضرية في مدينة الكويت وما حولها جنباً إلى جنب مع بقية العائلات الكويتية الأخرى، التي عملت في السفر الشراعي أو الغوص على اللؤلؤ، من حيث أصلهم الكريم وفريجهم (حيهم) وعمائرهم ومسجدهم.

الثالث: التعريف - عن كثب - بكل نواخذة من نواخذة العثمان بشكل مستقل من خلال استعراض ما تيسر لنا من سيرته الشخصية، مركزين على إنجازاته البحرية وأبرز المواقف التي تعرض لها.

الرابع: التعريف بشكل تفصيلي بشخصية المرحوم النواخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بشقيها:

الأول: المتعلق بمهارته البحرية.

الثاني: أوجه إحسانه.

وفيما يلي عزيزي القارئ تفصيل لما يشمله المحور الثالث من المحاور الأربعة المشار إليها أعلاه.

النوخذة عبدالله بن عثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٤٢ م.

تاريخ الوفاة: ١٨٦٥ م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٤ أعوام تقريباً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب وموانئ الخليج العربي.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: التمور والمواد الغذائية والمواد الاستهلاكية.

نبذة عن عمله البحري:

عمل النوخذة عبدالله بن عثمان في مجال السفر الشراعي على مستوى سواحل الخليج العربي وشط العرب والمسمى "سفر القطاعة" والذي تنقل من خلاله السفن الكويتية بضائعها من الكويت وشط العرب إلى سواحل الخليج، وبالعكس.

وقد قدم عبدالله بن عثمان من نجد مع شقيقه عبدالعزيز ولم يكن لهما أية خلفية بحرية البتة، حيث لا بحر فيها ولا نهر، بل صحراء قاحلة عدا بعض الواحات المنتشرة بين التلال والكتبان الرملية (النفود)، ولكنهما سرعان ما تعلّما صناعة ركوب البحر كبحارة ثم ما لبثا أن التقطتا فنون هذه الصناعة بنهم حتى تعلما فن قيادة السفن الشراعية، فأصبح كل منهما نوخذة يقود سفينته بشكل مستقل.

وقد توفي مبكراً في شبابه حين كان يحمل التمر في البصرة ليشحنه إلى الكويت وموانئ الخليج العربي، ولذا سمي أخوه عبدالعزيز ابنه البكر "عبدالله" إحياء لذكراه الطيبة، وقد كان عبدالله الصغير نوخذة حاذق، سنورد ذكره فيما بعد ضمن نواخذة العثمان، وكذلك بالنسبة لابنه النوخذة عيسى عبدالله عبدالعزيز العثمان.

ولقد زوج المرحوم النوخذة عبدالله بن عثمان ابنته منيرة لابن أخته هيا، وهو النوخذة محمد سليمان العثمان.

وهكذا تتشابك وشائج الرحم بين نواخذة هذه العائلة الكريمة علماً بأن ما بسطناه هنا هو بعض هذه الوشائج، أما بقيتها فسيتبين لنا بشكل أكبر في موضع لاحق من هذا الكتاب.

النوخذة عبدالعزيز بن عثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٤٥م.

تاريخ الوفاة: ١٩٣٥م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٤١ عاماً تقريباً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب والأحساء والخليج والهند وممباسا.
أهم البضائع التي كان يتاجر بها: التمور والمواد الغذائية والأخشاب والأقمشة.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة محمد المسجري.

- النوخذة عبدالرحمن العبد الجادر.

أبرز النواخذة الذين تدرّبوا على يده:

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

ركب بحاراً هو وأخوه عبدالله في سفينة من نوع البغلة للنوخذة محمد المسجري. وبعد مضي ثلاث سنوات ركبوا مع النوخذة عبدالرحمن العبد الجادر، حيث أصبح الشاب عبدالعزيز بحاراً له سهم كامل (قلاطة). لكن عبدالعزيز كان يطمح إلى شيء أكبر من مجرد البقاء بحاراً على سفينة شراعية.

وبعد مضي حوالي ١٥ عاماً - قضاها في العمل بجد وإخلاص وصبر - استطاع أن يجمع مبلغاً من المال، فقام بشراء منزل كبير له ولعائلته، وبناء سفينة صغيرة أسماها "مساعد"، وكان ذلك في حوالي العام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م). وبدأت رحلات "مساعد" إلى الهند أولاً بقيادة النوخذة فلاح الخرافي، ثم بقيادة الشاب عبدالعزيز العثمان.

وبعد مضي عدة سنوات استطاع أن يصنع لنفسه سفينة أخرى عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ذات حمولة تقدر بحوالي ١٤٠٠ منّ من التمر، وأسمها "موافج". وفي تلك الأثناء توفي أخوه الأكبر عبدالله في البصرة ودفن فيها.

ثم اشترى النوخذة عبدالعزيز سفينة من آل العنجري، وعلم ابنه أخته عبداللطيف ومحمداً أصول الملاحة وقيادة السفن الشراعية، فتسلم النوخذة عبداللطيف قيادة السفينة "مساعدة" في عام ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م). ثم بيعت السفينة "مساعدة"، كما فقدت السفينة "موافج" في حادثة غرق في البحر بالقرب من ساحل المهرة.

لكن النوخذة عبدالعزيز صنع لنفسه سفينة أخرى أسماها "موافج" أيضاً، أثبتت فيما بعد أنها من أفضل خشب الكويت ومن أطوله عمراً، وكان ذلك في العام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) وتولى قيادتها النوخذة عبدالعزيز ذاته حتى عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م)، ثم تسلم قيادتها النوخذه عبداللطيف وأخيه محمد.

وفي بداية الحرب العالمية الأولى صنع النوخذة عبدالعزيز لنفسه سفينتين أخريين إحداهما بوم ماء والثانية هي البوم "تيسير" التي أصبحت من أشهر خشب الكويت.

واستمر النوخذة والتاجر عبدالعزيز في بناء السفن، يصنعها له الأستاذ الكبير حسين بن منصور حتى توفي في الكويت في عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)، بعد أن خلفه أبناء أخته عبداللطيف ومحمد وولداه عبدالوهاب وعبد الله، وأصبحوا بدورهم من نواخذة الكويت الكبار.

أما نشأته وبنائه لنفسه ابتداءً من لا شيء - بعد أن قدم صغيراً من سدير في نجد - فقد فصلناها جيداً في صدر هذا الكتاب تحت عنوان "عائلة العثمان... بين التاريخ والجغرافيا" في الصفحات من إلى ، ونحيل القارئ الكريم عليها تجنباً للتكرار.

ولقد وقفنا على وثيقة تؤرخ نشاط المرحوم النوخذة عبدالعزيز بن عثمان بعد فراغه من ركوب البحر والعمل كنوخذة على ظهور السفن، وهذا ما نشره الباحث في التراث الكويتي والإسلامي الأستاذ محمد إبراهيم الشيباني في جريدة القبس^(١) من استعراض لأوراق ووثائق للخان بهادر عبدالله القناعي، وقد كانت إحداها عبارة عن تعهد يبرز النشاط البري الذي مارسه المرحوم عبدالعزيز بن عثمان بعد فراغه من النشاط البحري.

وهو تعهد قد كتبه المسيو باكليه رون كير وهو أحد رجالات الدولة البريطانية الممثلين لها في الكويت في بدايات القرن العشرين.

(١) العدد ١٠٢٠٨ - الجمعة غرة رمضان المبارك ١٤٢٢ هـ الموافق ١٦/١١/٢٠٠١ م.

وبنظرة تحليلية لأهم التواريخ في حياته يمكن أن نربط بين تاريخ كتابة هذه الوثيقة (عام ٩١٢م) وبين تاريخ فراغه من ركوب البحر في بدايات القرن العشرين، الأمر الذي يدل على الإطمئنان إلى نسبة هذه الوثيقة إلى المرحوم النوخدة عبدالعزيز بن عثمان، علماً بأن حاولنا استجلاء كل الأسماء الموجودة في ذلك الوقت والمطابقة لإسمه فكانت لأشخاص لم تتناسب نسبة هذه الوثيقة إليهم مع أحداث حياتهم الأمر الذي يزيد الإطمئنان إلى صحة نسبة هذه الوثيقة إلى المرحوم عبدالعزيز بن عثمان عميد عائلة العثمان المترجم له في هذا السياق.

النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٦٧ م.

تاريخ الوفاة: ١٩٧٣ م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٣٣ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب والخليج والهند وزنجبار.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: التمور والمواد الغذائية والأخشاب.

أبرز النوخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبدالعزيز بن عثمان.

أبرز النوخذة الذين تدربوا على يده:

- النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان.

- النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان من كبار نوخذة الكويت، وهو أحد أشهر النوخذة الكويتيين بالخبرة الملاحية والحكمة وسعة الصدر. وقد ساهم في بناء سور الكويت هو وأخوه محمد.

رعاه خاله عبدالعزيز العثمان ودّربه على قيادة السفن الشراعية حتى أصبح بعد ثلاث سنوات قائداً للدفة (سكوني) مع خاله عبدالعزيز. ولما أتم الثامنة عشرة من عمره أصبح نوخذاً، يقود سفينة صغيرة للقطاعة داخل الخليج.

وفي مقابلة تليفزيونية تاريخية معه تحت عنوان (صفحات من تاريخ الكويت)، تحدث عن إحدى رحلاته البحرية مع خاله عبدالعزيز حين هاجمهم قراصنة في شط العرب يعرفون

باسم "الدقاقة"، وكيف أن الله سلّمهم من شرهم فعادوا إلى أهلهم بسلام بعد تبادل إطلاق النار معهم.

تسلم النوخذة عبداللطيف قيادة سفن خاله عبدالعزيز مثل "موافج" و"تيسير". ولعل رحلات النوخذة عبداللطيف على البوم "تيسير" من الرحلات التاريخية الموفقة. فقد قاد هذه السفينة بكفاءة ومهارة، ووصل بها إلى معظم موانئ الهند الغربي. وكان خلال رحلاته هذه يدرّب أقاربه على فنون الملاحة وقيادة السفن الشراعية، حتى أصبح هؤلاء من نواخذة الكويت المتميزين. وكانت السفينة تيسير مدرسة آل العثمان البحرية.

يصف عبداللطيف محمد الشاهين الغانم النوخذة عبداللطيف العثمان بأنه رجل حكيم ومتأنٍ وذو شخصية متميزة".

كما يصف الأستاذ علي عبدالرسول النوخذة عبداللطيف بأنه حكيم ويحرص على سلامة البحارة والسفينة. فإذا ما أقبل الليل أمر بإنزال الأشرعة تاركاً الشراع "العود الرئيس"، وترك البحارة يأخذون قسطاً وافياً من الراحة إذ لم يكن ممن يسابق غيره من السفن - كما يفعل الكثيرون - بل يقود محمله بتعقل ومهارة.

كما يصف أحد بحارته أخلاقه بأنها طيبة، فإذا ما أراد أن يصدر أمراً بتغيير اتجاه الشراع (الخابور)، فإنه يقف أمام "القائم" ثم "يتحنح" وكأنه يستعد للكلام فيعرف البحارة ما يريد ويستعدون للعمل، فلا هو ممن يكثر الكلام والمزاح، ولا هو ممن يحيط نفسه بعزلة عن البحارة". وهو نوخذة ومعلم يعرف أصول الملاحة وأسرارها.

كما أنه راوية للتاريخ جيد، تدل على ذلك المقابلة التلفزيونية التي أجريت معه عام ١٩٦٦م وما فيها من معلومات قيمة ذكرها النوخذة عبداللطيف، حتى طريقة جلوسه على المقعد في هذه المقابلة تشعرك بوضوح أنك أمام رجل غير عادي، يفرض عليك احتراماً قل من يفرض عليك مثله من المتحدثين، وعلى رأسه عقاله "الشطفة" الأنيق.

وهو يروي في هذه المقابلة قصة حدثت له عندما ترك السفر الشراعي وكان راجعاً في باخرة مع صديقه محمد ثنيان الغانم. فقد التبس الأمر على قبطان الباخرة، وهو بالقرب من

البحرين، فلاحظ ذلك النوخذة عبداللطيف الذي همس في أذن صديقه محمد ثنيان، فما كان من صديقه إلا أن أرسل من يقول للقبطان إنه مخطئ في مساره، ولما وصل التحذير للقبطان أرسل في طلب النوخذة عبداللطيف، وعندما تحدث معه عرف أنه أمام ملاح ماهر وحاذق، فقد ثبت صحة ما قاله بعد ذلك.

ويضيف النوخذة عبداللطيف أنه لم يكن بوده أن يتدخل في شؤون القبطان، لكن صديقه محمد ثنيان، أصر على ذلك وطلب منه أن يذهب للقبطان للتباحث بهذا الشأن.

وفي وصفه لأحوال أهل الكويت آنذاك، ولحبهم للسفن والبحر، يروي النوخذة عبداللطيف (في المقابلة المذكورة) أن أهل الكويت حين يسمعون أن واحداً منهم وفقه الله وبدأ يبني لنفسه سفينة، ويمد قاعدتها (البيص)، فإنهم يذهبون إليه في ديوانه ويباركون له بدء العمل في بناء السفينة، ثم يقدمون له المساعدة، فبعضهم يعطيه قماشاً للشراع، وآخر يعطيه "قرمن" لحمل الشراع، وغير ذلك من أدوات السفينة التي تحتاجها قبل أن تبحر من الكويت.

وفي الوقت الذي لم تكن قد ظهرت فيه المحاكم إلى الوجود، كانت هناك لجان أهلية من ذوي الخبرة والدراية تقوم بالنظر في القضايا ذات الاختصاص، وكان يطلق على اللجنة اسم "أهل الصنف".

ولقد كان للمرحوم عبداللطيف العثمان دور في عضوية لجنة "الخلافات" التي قد تقع بين النوخذة والبحارة أو بين تجار اللؤلؤ أنفسهم، فقد اكتسب خبرة ودراية وثقة الناس به نتيجة السمعة الطيبة التي كان يتمتع بها كسائر أعضاء اللجان الأخرى.. ولم تكن مثل هذه اللجان ذات صفة رسمية، لكنها كانت محل اعتزاز وثقة وقبول في كل ما تقضي به من أحكام بين المتخاصمين.

كما كان - رحمه الله - رائداً في عمل الخير والإنفاق في سبيل الله تعالى، خصوصاً في المناطق الفقيرة، فقد بنى في الزبير مسجداً للفلاحين والسكان غير المقتدرين على إقامة مسجدٍ يقيمون فيه صلاة الجمعة والجماعة، وقد أوقف عليه سبعة دكاكين.

وأسس كذلك مسجداً آخر في منطقة الفاو.

كما أدرك - رحمه الله - بناء السور وشارك في بنائه للدفاع عن الكويت من هجمات المعتدين.

وقد استطاع عبداللطيف سليمان العثمان، أن يملك أكثر من سفينة "سفر" إلى الهند وزنجبار و عدن تحمل الأخشاب والتمور والأقمشة وغيرها من البضائع بين الكويت والموانئ الأخرى.

ويعتبر بوم عبداللطيف العثمان الذي يحمل اسم "فتح الرحمن" من أشهر أربعة مراكب كانت ملكيتها تعود إليه في عام ١٩٣٦م. وبه نوحذا وبحارة يعملون لصالح مالكه، كما أنه كان لدى عبداللطيف العثمان مركب آخر اسمه.. "فتح الخير".. بالإضافة إلى سفينتين للسفر، ومن أشهر النواخذة في هذه المراكب حسن الشطي، وعبد الرحمن الداود وعبدالرحمن الإبراهيم، الذي كان نواخذة في البوم "العثماني" ولم تكن لديه سفن للغوص.

استمر النوخذة عبداللطيف يقود السفن الشراعية التابعة للعائلة حوالي ٣٣ عاماً ترك بعدها قيادة السفن في عام ١٩٣١م، وتسلم النوخذة عبدالوهاب قيادة البوم "تيسير" بدلاً منه، بينما تفرغ النوخذة عبداللطيف لترتيب الأمور التجارية للعائلة، فكان يسافر إلى البحرين حين يعلم بوصول سفنهم ويخلص أمورها التجارية، ويودعها في رحلة العودة إلى الكويت.

وحين بدأ السفر الشراعي في التوقف، لزم النوخذة عبداللطيف ديوانه في حي القبلة يستقبل أصدقاءه ويقدم المشورة للناس.

ولما بدأ هدم المنازل القديمة في المدينة وترحيل السكان إلى منازل في مناطق خارجها، لزم النوخذة عبداللطيف منزله ولم يشأ أن يتركه إلا مضطراً، حتى وفاته في أغسطس عام ١٩٧٣م بعد تركه منزله القديم بسنوات قليلة، وكان عمره حوالي ١٠٦ أعوام.

النوخذة محمد سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٨٠م تقريباً.

تاريخ الوفاة: ١٩٤٥ م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٢٥ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب والخليج والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الاستهلاكية الأخرى.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبدالعزيز العثمان.

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

أبرز النواخذة الذين تدربوا على يده:

- النوخذة يوسف محمد العثمان.

- النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان.

- النوخذة عبدالرحمن داوود العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

تدرب على يد أخيه النوخذة عبداللطيف العثمان، كما تعهده خاله عبدالعزيز بالرعاية حتى شبّ وأصبح من نواخذة السفر الشراعي في الكويت، وتسلم قيادة بوم العثمان المعروف باسم "تيسير" في أولى رحلاته عام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م). وقام بقيادة هذه السفينة حتى تسلمها منه النوخذة عبداللطيف، فركب في قيادة سفينة خاله عبدالعزيز "موافج" الأولى التي غرقت بالقرب من ساحل اليمن.

ولما صنع البوم "موافج" الثاني عوضاً عنه، تسلم قيادته لسنتين طويلة وكان يذهب إلى الهند محملاً التمر ويعود محملاً الأخشاب. وكان يركب معه خلال هذه الرحلات النوخذة عبدالرحمن العثمان ليتعلم أساليب التنوخذ منه. فلما ترك النوخذة محمد البوم "موافج" تسلمه منه النوخذة منصور الخارجي ثم ابنه النوخذة يوسف، ثم النوخذة يوسف العثمان بعد ذلك. وقد تفرغ بعدئذ لاستقبال سفن العائلة في كراتشي وبوربندر وبرأوا لتصريف حمولتها من

التمور في تلك الموانئ والمدن ثم تحميلها من جديد بالبضائع المختلفة إلى الكويت، كالأخشاب والتوابل والشاي وسائر المواد الغذائية والإستهلاكية.

وبالمقابل كان أخوه المرحوم النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان مسئولاً عن استقبال سفن العائلة في النيبار لتصريف حمولتها الواردة، ثم تحميلها بالأخشاب والقهوة والحبال وغيرها من المواد الاستهلاكية والغذائية.

ولقد كان المرحوم النوخذة محمد سليمان العثمان يستقبل سفن العائلة في مسقط لشراء التمور "والسلوق" وبيع المواد المستوردة من الهند في عمان والعجبر والبحرين.

وقد كان يحل ضيفاً على المرحوم خالد السعدون والمرحوم بدر السابر عندما يزور البحرين، حيث كانا مشرفين على عمارة يملكها المرحوم هلال فجحان المطيري ويسكنان فيها، وكانت تسمى "البلدينج" نسبة للتسمية الإنجليزية (bulding)، وكان من أصدقائه في البحرين المرحوم صالح النفيسي.

وقد روى كل من المرحوم صالح العبدلي وعبدالرحمن الزامل أن النوخذة محمد سليمان العثمان استملك لاحقاً مع أخيه النوخذة عبداللطيف بيتاً للسكن في البحرين عند حضورهما إليها.

يوصف النوخذة محمد بأنه واسع الصدر، لا يجهد البحارة ولا السفينة. وقد استمر في رحلاته الشراعية حتى وفاته عام ١٩٤٥م.

وقد ساهم - رحمه الله - في بناء سور الكويت الذي تكاتف أهل الكويت لبنائه دفاعاً عن وطنهم من المعتدين.

النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٦٦م تقريباً.

تاريخ الوفاة: ١٩٦٢م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٤٠ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب والخليج والهند واليمن.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والمواد الغذائية.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان

أبرز النواخذة الذين تدربوا على يده:

- النوخذة عيسى بشارة بصفة معلم.

- النوخذة أحمد السبيعي بصفة معلم.

نبذة عن عمله البحري:

هو شقيق النوخذة عبدالوهاب، ومع أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يصبح من نواخذة الكويت المشهود لهم بالنزاهة والصدق وحب الخير.

ركب شاباً مع قريبه النوخذة عبداللطيف العثمان ومنه تعلم أصول قيادة السفن الشراعية حتى أصبح سكونياً. وحين أتم الخامسة والعشرين من عمره سلمه والده سفينة شراعية ليقودها إلى موانئ الهند.

ولم يكن النوخذة عبدالله معلماً وخبيراً بقياس مواقع السفينة، لكنه تحلى بخبرة وثقة في نفسه وإيمان بالله كبير. وكان يصحب معه ابنه الشاب عيسى لكي يتعلم منه مبادئ قيادة السفن الشراعية، وكذلك آداب المعاملات التجارية وأساليبها.

ويتحدث ابنه عيسى عن أحد هذه الدروس قائلاً: "كنت مع الوالد في بومباي نحاول بيع التمر هناك، ولما عرض علينا السعر من قبل تاجر يسمى عبدالشكور لم يعجب الوالد فذهبنا إلى المسجد لصلاة العشاء، وحين خرجنا من المسجد أقبل علينا "دلال" آخر يعرض سعراً للتمر

أعلى مما عرضه الدلال الأول، لكنني فوجئت بالوالد يرفض السعر الأخير، ويخبر الدلال أنه باعه للدلال الآخر الذي سبقه في عرض السعر، فلما قلت للوالد إن سعر الدلال الثاني أعلى، قال لي "اسمع يا ولدي: إحنا ناس نروح ونيجي في هالبحر، ونخاطر بأنفسنا وحلالنا، ورأس مالنا الحقيقي هو النية السليمة، وقد قررت بيع التمر على الدلال الأول (عبدالشكور) حين كنت في المسجد، ولن أغير نيتي حتى ولو حصلت على سعر أعلى".

ركب النوخذة عبدالله في قيادة سفينته عدة سنوات، وكان يركب معه أحياناً النوخذة عيسى بشارة ليساعده على قياس مواقع السفينة في البحر، كما ركب معه النوخذة أحمد السبيعي، وقام بالمهمة ذاتها. ومع ذلك كان النوخذة عبدالله يتمتع بحافظة قوية ساعدت مثل هؤلاء "المعالمة" في مهمتهم هذه نظراً لمعرفته الجيدة سواحل الهند واليمن.

وحين اكتملت لدى ابنه عيسى الخبرة في قيادة السفن الشراعية، سلم قيادة سفينته "فتح الكريم" له، وترك السفر. لكنه استمر في تجارته.

وكان آخر حياته مؤمناً بالله أشد الإيمان وبقضائه وقدره، وكان يردد هذه المقولة: " من لا يرزقه الله تعبان". وكان كذلك قانعاً بما عنده.

وفي اليوم الثاني من شهر يونيو عام ١٩٦٢م، توفي النوخذة عبدالله العثمان في منزله في حي القبلة في مدينة الكويت، بعد أن أفل نجم السفر الشراعي في الكويت، وترك ابنه عيسى ركوب البحر كما تركه غيره من نواخذة الكويت.

يقول الأستاذ محمد الرشيد الذي عاصر النوخذة عبدالله العثمان: " إن النوخذة عبدالله رجل فاضل، فاضل جداً، وصاحب ذمة، رحمة الله عليه".

ولقد سطر التاريخ البحري على أسنة رجاله ما نقل عن النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان من موقف يدل على الحنكة البحرية والدراية، رغم كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وبالتالي لا يستطيع استعمال الأداة البحرية المعروفة (الكمال) لقياس موقع السفينة في عرض البحر.

وتتلخص الحادثة المشهورة التي وقعت له أنه عندما كان متوجهاً بسفينته البوم من شط العرب إلى اليمن محملاً التمر، عبر مسقط، وقد كان معه من أهل الكويت نوخذا شراع (أي مساعد للنوخذة) و"معلم" (أي متخصص - كما سبق أن أسلفنا - في استخدام الأجهزة المتاحة لقياس الاتجاهات والمسافات والأبعاد بناءً على تحديد خطوط الطول والعرض).

وقد استخدم المعلم أجهزته وحسب حساباته المعتادة فقال للنوخذة بكل ثقة: "عم بو عيسى .. بكرة المغرب بتشوف البر" فقال النوخذة عبدالله العثمان: "يصير خير".

فلما بلغت الساعة الحادية عشرة في الوقت الغروبي (العربي) أي قبل الغروب^(١) بساعة. ورفُع طعام العشاء، قال النوخذة عبدالله لأحد البحارة المعروفين بحدة البصر: "يا فلان.. قوم اركب الدقل..". (أي اصعد الصاري الكبير) في إشارة إلى تحريّ البر، حين كان البحارة يعتمدون في اكتشافهم للبر على العين المجردة، حيث لا أجهزة تذكر ولا اتصالات لاسلكية ولا أقمار صناعية، ويتحرى الرائي للبر قبل الغروب لأن الشمس تكون في الأفق فيسهل رصد الأسطح الملاصقة للأفق، إن اختلفت قيد أنملة عن سطح الماء المستوي.

فقال البحار: "هذا البر يا عم بو عيسى"، فرد عليه النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان: "هريا غزال، الحمد لله على السلامة" (أي وصلنا اليمن)، وهنا أخذت النوخذة المعلم ردة الفعل حيث سبق له أن حدد لهم مساء الغد للوصول، فقال للنوخذة عبدالله العثمان: "يا عم بو عيسى .. إذا طلع هذا البر وهذي اليمن .. أنا بكسر الكمال"، أي سأقوم بتكسير جهاز الكمال الذي أستخدمه، لأنه لم تعد له فائدة، فرد عليه النوخذة عبدالله العثمان بكل حكمة وروية: "لا يا ولدي خله ينفكك السنة الآتية".

ولما هدأ وتفهم الوضع وتيقن أنها اليمن، سأل النوخذة الكبير: "ولكن قل لي بالله عليك، كيف عرفت أننا وصلنا إلى البر ولم تستخدم جهازاً لذلك"، فأجابه بكل بساطة وبداهة: "عندما ذهبت إلى الزوئي^(٢) ضُحى اليوم رأيت "الحمسة" (أي السلحفاة)، وهي لا تذهب إلى أعماق البحر وتظل قريبة من اليابسة، وبالتالي فإن ظهورها قرب السفينة هو مؤشر واضح على قربنا من اليابسة".

ومن هذا الموقف تتجلى حنكة النوخذة عبدالله عبدالعزيز العثمان وذكاؤه وخبرته العميقة بالبحر.

ولقد شهد له أهل الخبرة والدراسة في شئون البحر أنه يكاد لا يسبقه في عبور البحر أحد، وذلك لطيب نيته وصفاء سريرته بالإضافة إلى حنكته البحرية التي أشرنا إليها آنفاً.

(١) بموجب التوقيت الغروبي (العربي) تضبط الساعة على الثانية عشرة تماماً على غروب الشمس، أما في التوقيت الزوالي (الأفريقي) فعلى زوالها من كبد السماء (أي الظهرية).

(٢) الزولي: هو مكان قضاء الحاجة في طرفي السفينة.

النوخذة عبدالرحمن داود سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٠٧م.

تاريخ الوفاة: ١٩٥٥م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٤ أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج والهند واليمن.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والمواد الاستهلاكية والصل.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

ركب النوخذة عبدالرحمن داود سليمان العثمان متعلماً - وهو صغير السن - مع كل من النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان والنوخذة محمد سليمان العثمان، فتعلم منهما أصول صناعة البحر، حيث كان الإخوان عبداللطيف ومحمد مدرسة بحرية خرجت كثير من النواخذة، سواء من عائلة العثمان أو من غيرها.

ثم سافر مع اثنين من رواد الجيل اللاحق لهما من عائلة العثمان، وهما النوخذة يوسف محمد سليمان العثمان والنوخذة أحمد عبداللطيف العثمان، فقد تخضرم على يد الجيلين: الإخوان عبداللطيف ومحمد، وابناهما أحمد ويوسف على الترتيب.

ولقد كان من أهم السفن التي ركبها "مطيران" و"مساعد" و"السالمي".

النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان

تاريخ الميلاد: ١٨٩٥م

تاريخ الوفاة: ١٩٦٠م

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ١٣ عاماً تقريباً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الاستهلاكية المختلفة.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان.

أبرز النواخذة الذين تدرّبوا على يده:

- النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

تعلم النوخذة عبدالرحمن العثمان أساليب الملاحة وقيادة السفن الشراعية من النوخذة عبداللطيف العثمان. فقد ركب معه سنوات عدة في البوم "تيسير"، وتعلم أصول الملاحة منه. ثم ركب بعد ذلك مع النوخذة محمد العثمان، شقيق النوخذة عبداللطيف في السفينة موافج. فاكمل بذلك تدريبه على قيادة السفن الشراعية، واستلم سفينة للعائلة يقودها إلى الهند وقد ركب بوم العائلة "العثماني".

وفي إحدى رحلاتها - وكان عائداً من كراتشي، يرافقه النوخذة خالد المبارك في سفينته (سنيار) - اصطدمت سفينته بإحدى القصاصير المنتشرة في بحر العدان (منطقة جزر کران وكرين قرب ساحل المنطقة الشرقية (الأحساء) مقابل منطقة الجبيل)، ولم يتمكن من إنقاذها، فعاد بآلتها^(١) إلى الكويت، باعتبار أنها قد انكسرت وصعب إصلاحها أو قطرها.

وفي الموسم التالي صنعت له سفينة أخرى هي البوم "فتح الكريم"، فاستلم قيادته عدة سنين. وكان خلال الرحلات يدرّب ابنه الشاب إبراهيم على أساليب التنوخذ حتى أصبح فيما بعد واحداً من نواخذة الكويت المعتبرين، ثم ما لبث أن أصابه العمى فلم يستطع إكمال مسيرة التنوخذ.

(١) آلة السفينة هي أهم أجزائها المنقولة، ومن أهمها: الدقل (الصاري) العود (الكبير) والقلمى (الأصغر منه)، وكذلك الشراع والفرمن والجامعة.

النوخذة غانم علي العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٠٠م تقريباً.

تاريخ الوفاة: ١٩٦١م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: عشرون عاماً تقريباً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج واليمن وإفريقيا والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور وغيرها.

أبرز النواخذة الذين تدريبوا على يده:

- النوخذة علي سليمان العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

تعلم النوخذة غانم قيادة السفن الشراعية من أقاربه آل العثمان وهو أحد النواخذة الذين جاء ذكرهم في كتاب "أبناء السندباد" عندما كان في رحلة إلى السواحل عام ١٩٣٨، وكان في قيادة سفينة تابعة له هي البوم "الباز" الذي صنعه الأستاذ حسين الغضبان. يقول القبطان ألن فاليرز الأسترالي في كتابه المذكور هذا (ص ٢٧٥) عن وصولهم ميناء ممباسا على ساحل إفريقيا الشرقي:

"وسرعان ما انتهى الطبيب من فحص المركب، وسمح لنا بالرسو على اعتبار أنه لم يكن عليه أي مرض سار، وأخذت أنظر حولي مرة ثانية، وبينما كانت أمتع البصر بجمال ذلك الميناء في ذلك المساء الاستوائي، أتى لزيارتنا عدد من النوخذة الكويتيين، وكان من بينهم غانم بن عثمان، قبطان البوم الكبير المسمى "الباز" الذي كنا نرسو معه سوياً في حيفون".

هذا ما شاهده القبطان ألن في ممباسا، لكن الرحلة لم تكتمل بعد، فقد كان على النوخذة غانم الإبحار في سفينته إلى دلتا الروفيجي لشراء "الجنديل"، وهذه رحلة في حد ذاتها من أصعب الرحلات التي قد يقوم بها النواخذة الكويتيون أو غيرهم، وقد قام بها النوخذة غانم في بومه الكبير "الباز" وعاد سالماً إلى الكويت.

استمر النوخذة غانم في قيادة السفن، ولما شعر أنه قاد سفينته بما فيه الكفاية، ولم يعد قادراً على الاستمرار في هذا العمل ترك قيادة السفن، لكنه امتلك عدة سفن أخرى وجعل في قيادتها نواخذة آخرين ثم بدأ بصره يضعف فلم يستطع أن يشرف على سفنه، إلى أن كف بصره، وكسد سوق النقل البحري الشراعي، فلزم منزله حتى توفي رحمه الله.

ويصف الأستاذ علي عبدالرسول الذي صنع إحدى السفن للنوخذة غانم العثمان، يصفه بأنه رجل عاقل، حسن المعاملة، لا يخطئ بحق أحد ولا يتفوه بكلمة واحدة سيئة بحق أحد.

النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٠٦ م.

تاريخ الوفاة: ١٩٨٧ م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ١١ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة وشط العرب وسواحل بر فارس والخليج والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والأقمشة وكثير من المواد الغذائية. أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان

أبرز النواخذة الذين تدرّبوا على يده:

- النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان.

- النوخذة أحمد السبيعي

نبذة عن عمله البحري:

ولد النوخذة عبدالوهاب العثمان في منزل والده في منطقة القبلة عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م)، ودرس عند السيد هاشم الحنيان، والملا سعد بن شرهان، والشيخ يوسف بن سليمان بن حمود، والملا عبدالعزيز العنجري.

وحين بلغ السادسة عشرة من عمره ركب مع النوخذة محمد العثمان سنة واحدة، ثم مع النوخذة عبداللطيف أربع سنوات في يوم العثمان "تيسير"، تعلم خلالها أصول الملاحة وقيادة السفن الشراعية من هذا النوخذة الكبير.

ولما أتم الواحدة والعشرين من عمره (عام ١٣٤٤ هـ) أصبح نوخذة وتسلم قيادة "تيسير" إحدى عشرة سنة متصلة كان يقود فيها هذه السفينة إلى موانئ ساحل الهند الغربي، حتى جعلها من أشهر خشب الكويت.

ولقد كانت رحلاته هذه تحظى بالكثير من التوفيق والعناية الإلهية، حتى إن النوخذة عبدالوهاب لم يستخدم شراع "التركيت" في سنتين متتاليتين^(١).

(١) يستخدم شراع التركيت (الصغير) عندما تشتد الرياح يخشى الربان (النوخذة) من استخدام الشراع الكبير، الكفيل بانكفاء السفينة عند اشتداد الرياح.

لكنه ذكر للباحث في التراث البحري الكويتي الأخ الفاضل د. يعقوب يوسف الحجى أنه تعرض مرة لعاصفة بالقرب من ساحل فارس فأمر بإنزال الأشرعة وجعل السفينة "تيسير" تحت رحمة الرياح والأمواج "مدبرة"، ولما أتى عليهم صباح اليوم التالي كانوا بالقرب من جزيرة "أرزنة" بالقرب من دولة قطر فمكثوا في البندر حتى تحسنت الظروف الجوية فأبحروا عائدين للكويت. ولكن لم يحدث أن تمزق له شراع أو انكسر "قرمن" أو صار للسفينة. ولقد كانت جميع رحلات النوخة عبدالوهاب للهند، ولم يذهب قط إلى ساحل إفريقيا الشرقي، أو ساحل اليمن. ولم ينسَ النوخة عبدالوهاب (خلال حديثه للكاتب) رجاله من بحارة الكويت الذين ركبوا معه في "تيسير" بل إنه كان يتحدث عن جميع بحارة الكويت، حين قال:

"لا تنسَ البحارة، هم أهل أمانة وذمة وصلاح وصدق.. يفنون أنفسهم في سبيل سفينتهم وكأنها حلالهم.. لهم الشهادة والحق.. أهل صدق ووعد لا يتأخرون عن موعد السفر، تراهم دائماً على أتم الاستعداد للسفر، ودائماً هم مخلصون، لهم الفخر دائماً، نقول ذلك أمامهم وفي غيابهم.. وحين جربنا غيرهم عرفنا فضلهم أكثر".

وقد ركب معه بحارة كثيرون منهم النوخة عبدالله إبراهيم إسماعيل، والمجدي فهد بن صالح الطراروة، والنهامة عبدالعزيز الدويش وزايد المرطبة، والسكوني عبدالله خميس الخشتي. ليس في الإمكان وصف جميع الرحلات البحرية التي قام بها النواخذة عبدالوهاب، لكن في إحدى هذه الرحلات (١٣٥٧ هـ، ١٩٣٨ م) أبحر من البصرة وعلى سطح السفينة "تيسير" ١٨ جواً عربياً في طريقها للهند (تستخدم للسباق هناك)، وقد بقيت واقفة على سطح السفينة طوال الرحلة، وكان البحارة يعتنون بها حتى وصلت سالمة، ولم تكن هذه البضاعة عادية أبداً ولا يسهل نقلها في السفن الشراعية. وقد كان رحمه الله من رجالات الكويت القلائل الذين جمعوا بين ثلاث إمكانات ومواهب من حيث كونه نوخدة، وتاجر، ومالك للسفينة^(١).

كانت هذه نبذة مختصرة جداً عن حياته البحرية ولكننا نرجئ الحديث عن تفاصيلها إلى مواضع أخرى في هذا الكتاب بعد أن نستوفي الحديث عن نواخذة العثمان بشكل عام وعن كل ما يتعلق بعملهم البحري، وقد يؤخر المهم أحياناً لأهميته.

(١) عادة ما يستعين مالك السفينة بنوخة يقود له سفينة ويسمى في هذه الحالة "نوخذة جدي"، وأحياناً يكتفي بنقل تجارة الآخرين دون أن يكون له نصيب في تجارة البضائع المحمولة على ظهر السفينة.

النوخذة يوسف محمد سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٠٦ م.

تاريخ الوفاة: ١٩٩٥/١١/١٥ م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ١٢ عاماً تقريباً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج واليمن والصومال والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة محمد سليمان العثمان.
- النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان.

أبرز النواخذة الذين تدربوا على يده:

- النوخذة أحمد عبداللطيف العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

تعلم النوخذة يوسف قيادة السفن الشراعية من والده النوخذة محمد العثمان حيث ركب معه في البوم "موافج" عدة سنوات. كما تعلم أساليب الملاحة والقياس من النوخذة عبدالوهاب العثمان حين ركب معه البوم "تيسير" لمدة سنتين.

تسلم النوخذة يوسف بعد ذلك البوم "موافج" وقاده ٩ سنوات متصلة إلى مختلف موانئ الهند الغربية. كما ذهب به في رحلة واحدة إلى ساحل اليمن وساحل الصومال الشمالي.

يصف النوخذة يوسف البوم "موافج" بأنه "محمل بحر"، ولكنه في اليوش (أي عند هبوب الرياح المضادة لسير السفينة) ليس جيداً مثل البوم "تيسير". ولقد ركب مع النوخذة يوسف خلال رحلاته في موافج بحارة كثيرون منهم المجدمي ياقوت المانع، والنهام عتيج بن شريدة، والجيماز.

وحين تدهور النقل الشراعي الكويتي، ترك النوخذة يوسف البحر لكنه استمر في سفره إلى الهند للتجارة. ولم ينس أصدقاءه من أهل البحر، فكان يزور الأستاذ عليّ عبدالرسول، صانع السفن المعروف، في عمارته، ومعه النوخذة أحمد بكر البكر وصديقه صقر ثنيان الغانم ويتحدثون عن ذكرياتهم.

وقد درس النوخذة يوسف محمد العثمان منذ طفولته المبكرة عند الملا محمد المهيني، في مدرسته الأهلية مبادئ الحساب واللغة العربية والقرآن الكريم. وعند بداية افتتاح المدرسة المباركية في عام ١٩١٢م كان أول الملتحقين بها.

ويخبرني الوالد حفظه الله الذي زامله في المدرسة المباركية - وكان أحد زملائه من الطفولة - أن المرحوم يوسف كان من المتفوقين في مادة الحساب مما ساعده فيما بعد على تولي متطلبات واحتياجات مهنة التتوخذ بمنتهى السهولة واليسر.

تعلم النوخذة يوسف العثمان المهنة من والده النوخذة محمد سليمان العثمان فكان منذ طفولته وشبابه المبكر يصطحبه معه في رحلات السفر. وكانت عائلة العثمان تمتلك يوماً سفاراً يُسمى "موافج"، وركب هو مع والده في أسفاره إلى الهند، وتعلم فنون البحر وأنواءه، وتعلم أدوات القياس المختلفة التي يستخدمها النوخذة مثل: البوصلة (الديرة) وجهاز السكستان، الذي يدرس حالياً بالجامعات، وكان يعرفه النوخذة في ذلك الوقت باسم (الكمال) كما درس الخرائط البحرية (النالية)، أو كما يعرفها البعض باسم (النولي).

ولكن لم يُمضِ وقتاً طويلاً في يوم (موافج) فشاءت الظروف أن يغرق البوم في بحر العرب، في الجهة المقابلة لساحل حضرموت حوالي عام ١٩١٢م.

فصنعت العائلة يوماً عام ١٩١٤م عرف ببوم تيسير، ويعد من السفن الكبيرة فحمولته نحو ٤٠٠٠ "من" (ما يعادل نحو ٣٠٠ طن)، وتولى قيادة البوم تيسير النوخذة الكبير عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، وأصبح النوخذة يوسف العثمان مساعداً له لمدة عامين، واستفاد كثيراً من خبرات النوخذة المرحوم عبدالوهاب العثمان.

في عام ١٩١٧م صنعت عائلة العثمان يوماً آخر بدلاً من البوم الذي غرق (طبع) في مياه بحر العرب، واتخذ اسم البوم الأول نفسه (موافج)، وتولى قيادته هذه المرة النوخذة يوسف

العثمان أكثر من ١٠ سنوات، سافر خلالها إلى الهند محملاً بتمور شط العرب لبيعها هناك وجلب احتياجات الأسواق الكويتية من المواد الغذائية المختلفة والأخشاب.

كما وصل النوخذة يوسف العثمان في أسفاره التجارية إلى شواطئ جنوب الجزيرة العربية وبر الصومال حتى بربرة.

في منتصف الأربعينات أعتزل النوخذة يوسف العثمان السفر الشراعي وصار يستورد البضائع التجارية من الهند مباشرة وتفرغ لإدارة أعماله الخاصة.

رحم الله النوخذة يوسف محمد سليمان العثمان، الذي توفاه الله برحمته يوم الأربعاء ١٥ نوفمبر عام ١٩٩٥م، وأسكنه فسيح جناته.

النوخذة علي سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩١١ م.

تاريخ الوفاة: ١٩٧٤ م.

عدد سنوات العمل في مجال التتوخذ: ١٦ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج واليمن وإفريقيا والهند وسنغافورة.
أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الاستهلاكية والغذائية.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة غانم علي العثمان.

- النوخذة محمد سليمان العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

ولد النوخذة علي سليمان العثمان سنة ١٩١٧ ميلادية في براحة بن بحر في فريج المديرس بمدينة الكويت، وكان أبوه سليمان بن علي العثمان يعمل تاجراً منتقلاً على حسابه الخاص بين الهند وآسيا والخليج العربي.

ولما ازدهرت تجارة والده سليمان طلب من أخيه غانم - الذي كان آنذاك مع عمه عبداللطيف بن سليمان العثمان - أن يساعده في أعماله، وقد وافق على طلبه وأخذ يعملان معاً.

ولكن للأسف لم تدم حياة أبيه الحاج سليمان بن علي العثمان طويلاً حيث انتقل إلى رحمة البارئ الكريم وكان عمر ابنه علي سليمان العثمان يقارب الخمس سنوات، حيث أخذ عمه غانم يكمل المسيرة، فكبّرت أعماله وأصبح من كبار موردي الأخشاب.

وقد اشترى عمارة العبدالجليل المواجهة للبحر وأوشر فيها بومه "السفار"، ثم انتقل إلى القبلة واشترى بيت العبدالجليل خلف العمارة بالقبلة، ليكون بالقرب من أعماله وأخذ يركز على أعماله بالبحر.

وقد ربى ابن أخيه تربية جيدة، وأدخله الكتاب لدارسة القرآن الكريم، وكان عمره يقارب الست سنوات، ثم أدخله المدارس الأهلية ليتعلم على يد الأساتذة المعروفين آنذاك أمثال: سيد

هاشم الحنيان، والشيخ عبدالعزيز العنجري، والملا عثمان عبداللطيف العثمان، فتعلم منهم القرآن والقراءة والكتابة والحساب، وقد كان حسن الخط.

وكان عمه غانم يحبه كثيراً ويأخذه معه إلى الدواوين، وكان يتحدث له عن أسفاره وأعماله، ولما اشترى عمه غانم العثمان "الدنقية" بشراكة المرحوم عبدالمحسن الناصر الخرافي كان يأخذه إلى البصرة، ليتعلم كيفية شحن التمر هناك وطريقة المحاسبة، ثم أخذه معه إلى السواحل الهندية ليتعلم قيادة السفينة وإدارتها وكان حينئذ في الخامسة عشرة من عمره. وكان يجالس السكوني دائماً ليتعلم منه القيادة وأصول استعمال الديرة والبوصلة لمعرفة الاتجاهات، وكان دائماً مولعاً بقراءة مذكرات النوخذة عيسى بن قطامي، وطرق القياس، وتحديد خطوط الطول والعرض والمسافات بين الموانئ والسواحل والظواهر الطبيعية البحرية.

وقد اشترى له عمه غانم بعض الأجهزة التي تتكون من عدسات وتسمى "الكمال"، وهذا الجهاز يستعمل لتحديد موقع السفينة في عرض البحر واستخراج المجرى من بلد إلى آخر. وكان عمه غانم يوكله قيادة "الدنقية" تحت إشرافه أثناء سفرهم إلى البصرة ثم كراتشي والسواحل الهندية.

ولما أكمل السادسة والعشرين عاماً من عمره أوكل إليه كل من عمه غانم العثمان والمرحوم عبدالمحسن الخرافي قيادة الدنقية إلى البصرة لشحن التمر هناك - الذي كان يجمعه لهم المرحوم محمد المتروك شريك عبدالمحسن الخرافي آنذاك - إلى كراتشي لبيعه ثم التوجه إلى بومباي لبيع الباقي منه، وتحميل الدنقية بالأخشاب المختلفة وبيعها بالموانئ الأخرى.

وكان يشيد به النوخذة عيسى العثمان لسرعته وطريقة تعامله بالسفن وحرصه على الوصول إلى الموانئ قبل غيره. وقد شاهدته النوخذة عيسى العثمان قرب جزيرة "هندرابي" في دنقية الخرافي، والعثمان معلي^(١) والنوخذة عيسى العثمان سنان^(٢)، وكان ذلك سنة ١٩٤٢م، وكان عمر النوخذة علي سليمان العثمان آنذاك واحد وثلاثين عاماً.

(١) معلي: من التعللة وهي العودة شمالاً باتجاه الكويت.

(٢) سنان: من أسننه وهي الانطلاق جنوباً من الكويت أو شط العرب إلى الهند وإفريقيا.

وبعد العمل على يوم الدنقية أوشر^(١) عمه بوما قطعاً جديداً حمولة ٢٥٠ طن، وأوكل إليه السفر عليه بالقطاعة مع النوخذة غلوم الباطني وكانوا يبجرون فيه بين البصرة والموانئ الإيرانية ثم سواحل عمان، فكانت تحصل لهم كثير من المضايقات والمشاكل، وكانت إحداها أن نغد الماء من عندهم بالقرب من السواحل الإيرانية (الجزر الإيرانية) ولما طلبوا الماء من أهلها رفضوا أن يعطوهم، ولكن لحسن الحظ مر عليهم يوم كويتي وتعرفوا عليه فأعطاهم الماء والأكل وفرحوا في ذلك الوقت وقد أقاموا احتفالاً بهذه المناسبة.

وفي إحدى السفرات طبع^(٢) البوم بعد عاصفة شديدة، حيث انحرف على الصخور الكبيرة بالخليج وتكسر، ورجعوا إلى السواحل القريبة سباحة، وقد فقدوا بعض البحارة، وعند الساحل هاجمهم بعض المواطنين وسلبوهم حاجاتهم التي بقيت معهم بعد أن طبع اليوم وهددوهم بالقتل، فتركوها لهم ومشوا بملابسهم التي عليهم فقط.

ومن كثرة ولعه وحبه للبحار تعلم من النوخذة محمد سليمان العثمان بسرعة - وفي مدة قصيرة جداً - أصول الإبحار والأبعاد والنجوم، حتى أصبح يعرف كل شيء عن البحار، وبهذا أصبح يستعين به بعض النواخذة في مجاريهم وأسفارهم.

ولما توسعت تجارة عمه غانم العثمان أوشر بوماً جديداً أكبر من السابق وبحمولة ٤٠٠ طن وأسماه "بوم الباز" نسبة لحسن صنعه ووشره وانسيابه وتناسب مقدمته، وأصبح من السفن السريعة.

وكان عمه غانم هو النوخذة على هذا البوم "الباز"، وكان يأخذه معه ليساعده على قيادة السفينة، وخصوصاً بعدما وجد فيه إماماً كبيراً بعلوم البحار.

وكان يسافر دائماً معه إلى البصرة، وذلك لشحن التمر، ثم إلى كراتشي وخورميان وبراولا وبومباي وكليكويت، وذلك لبيع التمر وشحن البوم بالأخشاب المختلفة، والسفر بها إلى ميناء مسقط وبيع الخشب هناك، ثم السفر إلى عدن، ومن هناك إلى السواحل الإفريقية مثل ممباسا

(١) أوشر: صنع.

(٢) طبع: غرق.

وزنجبار ثم خورميان سمبا ورنجا، والواقع أن السفر إلى سمبا ورنجا متعب للغاية وذلك لشدة الحرارة والرطوبة وكثرة البعوض ووجود الحيوانات المفترسة والأفاعي.

وفي المطاريش (الرحلات) الأخرى كان يسافر إلى موانئ الهند مثل كراتشي وخورميان وبروا و بومباي وكليكات.

ولما ضعف بصر عمه الحاج غانم العثمان لم يستطع الإبحار، فأوكل إلى ابن أخيه علي سليمان العثمان السفر بالباز بعد أن علّمه كل أمور البحر والتجارة ومقابلات المسؤولين عن تحميل البضائع (التمر) من البصرة وتسليمه إلى مسؤولين آخرين في الموانئ الهندية وشحنه إلى موانئ أخرى ثم العودة إلى الكويت.

وكانت الرحلة تستغرق منه تسعة أشهر في كل سنة، حيث كانوا يبحرون بالشهر التاسع من كل عام بعد نضوج التمر بالبصرة وشحنه إلى الموانئ الهندية مثل كراتشي وخورميان وبروا و بومباي وكليكات، لبيعه ثم شحن السفينة بالأخشاب المختلفة لبيعها في الموانئ الأخرى مثل مسقط وعدن والموانئ الإفريقية، ثم يبدؤون رحلة العودة إلى الكويت في آخر الشهر الخامس من كل عام قبل أن تبدأ العواصف في تلك الموانئ.

وكانت طبيعة عمله الإشراف على تجهيز البوم بمساعدة المجدمي والبحارة بداية بتنظيف البوم ودهنه بالشونّة والصل وخطاطة الشراع وهي شراع العود والقلمي والبومية والتركيث والجيب.

كما ذكر النوخذة عيسى العثمان أنه لما دخل النوخذة حسين العماني في مشكلات مع السلطات الهندية في بوم الحاج ثنيان الغانم هربه البحارة وطلبوا نوخذة هندياً لتوصيل البوم إلى ميناء مسقط.

ثم طلب الحاج ثنيان الغانم من الحاج غانم العثمان أن يختار له نوخذة لإحضار البوم من مسقط إلى الكويت، ووقع الاختيار على النوخذة علي سليمان العثمان، ولكنه هذه المرة وصل متأخراً بسبب خلو البوم من البضاعة وعدم سيطرته على البوم لخته، حيث وصل النوخذة عيسى العثمان قبله بعد مروره بالبحرين، وكان ذلك سنة ١٩٤٦م.

ومن كثرة ولعه بالبحر كان لا يكتفي بهذا القدر من الإبحار والتعب، بل كان خلال الصيف يبحر إلى (الفاو) في بوم صغير يسمى "بوم ماء" ملك عمه المرحوم غانم العثمان، وذلك لجلب الماء من هناك إلى الكويت، وتفريغها في أحد مخازن المياه المتوافرة على الساحل وتسمى "بركة الماء"، ليقوم بعض الأشخاص المختصين بملء القرب بالماء من هذه البرك في حال المد، أو من على ظهر السفينة إذا كانت بالجزر، وحملها على الحمير، وتفريغها في برك الماء الموجودة في المنازل، وفي الأسفار التي يتدرب فيها النوخة علي سليمان العلي العثمان في بوم عمه النوخة غانم علي العثمان، وشاركه في رحلاته عدة سكونية مثل المرحوم محمد الغيث، والمجدمية مثل حسن العماني وحسن سبتي، وكانوا يختارون دائماً أمهر البحارة، وقد كان الكل يحب السفر مع النوخة علي سليمان العثمان، وذلك لكرمه ومرحه وحبه للطرب، حيث كان دائماً يحرص على أن يصطحب معه مطرباً لإقامة حفلات غنائية على ظهر السفينة.

وكان المرحوم النوخة علي سليمان العثمان كريماً بشكل يخرج عن العادة، إذ لم يكن يبندر (أي يرسو بسفينته) في ميناء إلا ويدعو جميع النواخذة الكويتيين الموجودين فيه إلى وليمة كبيرة، يؤدي بعدها مكبّس السفينة (مطربها) ما يتسير من أغان بحرية وغيرها، وهذا النوع من الإنفاق كان مخالفاً لما اشتهر به نواخذة العثمان من ترشيد في الإنفاق والمصروفات.

كما كان رحمه الله مرحاً يؤنس من يجالسه بروح النكتة والدعابة والمرح، لا يشعر بالتكلف ولا يمارسه مع بقية البحارة، بل يترك المكان المخصص له على النيم^(١) ويجالس البحارة ويشاركهم مأكلم ومشربهم ويتبسط إليهم.

كان هذا عن المرحوم النوخة علي سليمان العلي العثمان، فماذا عن والده المرحوم سليمان العلي العثمان؟

(١) النيم: هو السطح المرتفع عن السطح الرئيس للسفينة في التلث الخلفي منها، ويطلق على هذا الجزء الخلفي من السفينة اسم "التفر"، وفي النيم ويوجد "الدقل القلمى"، وهو موقع جلوس قائد السفينة (النوخذة) وقربه السكوني (قائد الدفة) لكي يسهل توجيهه من قبل النوخة.

لقد قيل إن المرحوم سليمان كان نوحذة أيضاً، ولكن شح المعلومات المتوفرة عنه حال دون أن نفرّد له سيرة مستقلة، وكل ما نعرفه عنه هو أنه طلب من أخيه الأصغر النوحذة غانم بن علي بن عثمان أن يصحبه في السفر على أساس المناصفة في الربح، بعد أن كان يعمل في سفينة النوحذة عبداللطيف سليمان العثمان.

ثم فاجأته سكتة قلبية وهو في عرض البحر، فربطه البحارة بثقل ليسقط جثمانه في قعر البحر، حيث كانوا بعيداً جداً عن اليابسة، وهذه - بالمناسبة - هي الطريقة المتبعة لدى الكويتيين والخليجيين عندما يتوفى أحد البحارة وهم في عرض البحر وتعاكسهم الرياح، فلا يكون بلوغ اليابسة - أي يابسة - سهل المنال، مما يجعل الجثمان عرضة للتحلل.

وكم كويتي وخليجي كان قبره جوف المحيط لا لحد له سوى قعر البحر، هذا إن تركت هوام البحر جثمانه يصل إلى القعر، وهذا غيض من فيض من الأهوال التي يلاقيها أهل البحر سفاً أو غوصاً، والمعاناة الشديدة التي يتكبدها هؤلاء سعيّاً وراء اللقمة الشريفة.

وكان مما يذكر عن المرحوم سليمان العلي العثمان أنه كريم الطبع حسن الخلق جميل الوجه، واقتصر عمله البحري على سفر القطاعة.

النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩١٩م.

تاريخ الوفاة: ١٩٩٨/١٢/٢٤م.

عدد سنوات العمل في مجال التتوخذ: ١٥ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج وإفريقيا والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والمواد الاستهلاكية الأخرى.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

لم يخيب النوخذة إبراهيم أمل والده فيه، فبرز واحداً من نواخذة الكويت، واحتل مكانة مرموقة بينهم، وتمكن خلال مدة قصيرة نسبياً من أن يترك لنفسه سجلاً حافلاً بالنجاح والتوفيق، غنياً بالأعمال المشرفة.

ولد النوخذة إبراهيم في منزل جده إبراهيم العثمان القريب من منزل السيد حامد النقيب في الحي القبلي من مدينة الكويت. وحين شب أرسله والده إلى الملا يوسف بن حمود، والملا محمد الهولي لتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وقد علمته الظروف الصعبة التي مرّ بها في صغره على تحمل المسؤولية، ومنها إصابة والده النوخذة عبدالرحمن إبراهيم العثمان بالعمى، وله أبناء صغار هو أكبرهم.

ولما قارب سنه ١٦ عاماً ركب مع والده في سفينة كان والده يملك نصفها والنوخذة عبداللطيف العثمان النصف الآخر وحمولتها حوالي ٢٧٠٠ من. وخلال هذه الرحلات علمه والده قيادة السفن الشراعية.

وحين بلغ الثالثة والعشرين تطلع إلى قيادة سفينة شراعية بنفسه، فجعله النوخذة عبداللطيف نوخذة في سفينة له اسمها "العثماني"، وهي ذات حمولة تقدر بحوالي ٢٥٠٠ من، وكان يتقاضى عن كل سفرة ثلاث قلايط (أسهم).

وحين شاهده النوخذة عبدالوهاب يقود هذه السفينة قال له: "أنت اليوم نوخذة يا إبراهيم، وتحت إمرتك ٢٥ بحاراً، وعمرك لا يتعدى ٢٤ عاماً، توكل على الله، أنت أصغر من في البوم". وكان النوخذة عبدالوهاب يقود البوم "تيسير" آنذاك.

بدأت رحلات النوخذة إبراهيم من الكويت إلى البصرة حيث شحن التمر الزهدي ثم اتجه إلى الهند، وباع التمر في بومباي، ثم أبحر جنوباً إلى كاليكوت، حيث شحن السفينة بالأخشاب وعاد إلى الكويت. وبعد ثلاث سنوات وضعه النوخذة عبداللطيف في قيادة سفينة جديدة له اسمها "فتح الباري"، وحمولتها حوالي ٢٣٠٠ من، فقادها ثلاث سنوات إلى الهند بنجاح أعجب النوخذة عبداللطيف وزاد ثقته فيه.

وفي أحد الأيام شاهد النوخذة إبراهيم سفينته تلك "ناشرة"، أي مرفوع على مقدمتها ومؤخرتها الأعلام، مما يعني أنها قد بيعت، فذهب مسرعاً إلى ديوان النوخذة عبداللطيف ليتحقق من الأمر، ولما شاهده النوخذة عبداللطيف مقبلاً عرف ما في خاطره، فأشار إليه بالجلوس.

وبعد قليل قال له "بومك" "فتح الباري" بعناه إلى أحد أهالي ميناء "كنج"، وقد توسط له عندنا التاجر محمد بن رشدان العازمي، فبعناه له. ولنا نظر بجعلك نوخذة في البوم العود "فتح الرحمن" فماذا تقول؟"

ضاق صدر النوخذة إبراهيم على سفينته، ووجد "فتح الرحمن" تحت قيادة النوخذة أحمد العثمان، فلم يشأ أن يتسلم قيادة هذه السفينة الضخمة (٤٠٠٠ من)، فاعتذر عن هذا، فلم يحاول النوخذة عبداللطيف أن يجبره على ذلك، فتركه وشأنه.

علم التاجر ثنيان الغانم بأن النوخذة إبراهيم نزل عن سفينته، فبعث له النوخذة خالد المبارك، الذي عرض عليه قيادة إحدى سفن ثنيان الغانم، فوافق النوخذة إبراهيم واستلم قيادة البوم "اليارديلة"، وهي من السفن المعروفة في الكويت وذات حمولة تقدر بحوالي ٢٣٠٠ من.

قاد النوخذة إبراهيم "اليارديلة" إلى شط العرب، حيث جهزهم النوخذة عبدالوهاب بن عيسى القطامي بالتمر (كان يعمل في البصرة آنذاك)، ثم خطف^(١) باتجاه الهند، وحين وصل خورميان "بوربندر"، أمره التاجر عبدالعزيز الصقر - الذي كان يعمل وكيلاً لعائلته وأقاربه هناك - بإنزال التمر، واستمر النوخذة إبراهيم في رحلته جنوباً على طول الساحل الهندي الغربي حتى وصل إلى ميناء كاليكوت، ثم شحن السفينة بالأخشاب وعاد إلى الكويت منهيّاً رحلته الأولى على هذه السفينة بنجاح وبربح لم يكن متوقعاً.

وحين عرف التاجر ثنيان الغانم أن هذه الرحلة كانت موفقة عرض عليه أن يستمر في قيادة هذه السفينة، حتى وإن طلب نصف أرباحها، مع أن الأستاذ محمد بن عبدالله عرض على ثنيان شراء هذه السفينة لأحد النواخذة من ميناء كنج. لكن النوخذة إبراهيم أخبره أنه ملتزم في الموسم التالي مع قريبه النوخذة عبدالوهاب العثمان.

ركب النوخذة إبراهيم سفينة متوسطة الحجم للنوخذة عبدالوهاب العثمان، وقادها إلى الهند ولما وصل إلى ميناء "منقلور"، وجد التاجر محمد بن رشدان يود أن ينقل له شحنة من القرميد إلى ساحل إفريقيا الشرقي، فوافق على نقل هذه البضاعة.

لكنه تسلم رسالة من النوخذة عبدالوهاب يطلب منه فيها ألا يسافر وحده عبر المحيط الهندي بدون أن يستأجر معه رباناً من الهند لكي يساعده. ولما سمع بهذا الاقتراح التاجر محمد بن رشدان أيد طلب النوخذة عبدالوهاب هذا (ربما لأنه حريص على سلامة بضاعته).

لكن الشاب إبراهيم لم ير ضرورة للربان، وصمم على عبور المحيط وحده. ولما علم النوخذة سليمان المهيني بعزمه على هذا السفر قرر أن يسافر هو بسفينته عبر المحيط إلى إفريقيا على أن يكون مرافقاً للنوخذة إبراهيم سنيار^(٢)، فوافق النوخذة إبراهيم على ذلك، وخرج الاثنان من ميناء منقلور في طريقهما إلى ميناء ممباسا الإفريقي.

(١) خطف: انطلق مستخدماً الشراع، وهذه الإنطلاقة تسمى الخطفة.

(٢) سنيار: السفينة المرافقة، وغالباً ما يكون السبب هو رغبة "النوخذوين" بالتعاون، أو أن يكون أحدهما لا يعرف استخدام جهاز الكمال، وقراءة النالية وليس معه ربان "معلم" يجيد هذه الصنعة فيتبع أحد النواخذة في جميع مجاريه وبذلك يسمى "سنيار"، وأصلها "سنيار" ولكن الجيم تخفف إلى ياء أحياناً في اللهجة الكويتية.

كان المجرى من منقلور باتجاه الغرب مغيب، ثم الجوزة، ثم التير إلى الجنوب الغربي حتى وصلا إلى الساحل الصومالي الشرقي، بالقرب من مكان - إلى الشمال من مقديشو - اسمه السيف والهراب. ومن هناك اتجها جنوباً بمحاذاة الساحل في طريقهما إلى ميناء ممباسا. وكانت رياح الأزيب الشمالية الشرقية تدفعهم بقوة فطلب المجدمي من النوخذة إبراهيم ألا يحاول دخول ميناء ممباسا ليلاً، بل اقترح عليه أن يستمر في مسيره جنوباً، ثم يعود إلى ميناء ممباسا مع مطلع النهار.

لكن النوخذة إبراهيم كان له رأي آخر. هو أن السفينة لا تتحمل الرياح والأمواج ثم العودة ثانية، فالحمل ثقيل ولا بد من دخول ممباسا ليلاً. هنا سكت المجدمي قليلاً، ثم قال للنوخذة إنه في العام السابق لم يحاول النوخذة إبراهيم بن شايح دخول ممباسا ليلاً حين كان يقود البوم تيسير.

لكن النوخذة إبراهيم أصر على ذلك، ولما رآه النوخذة سليمان المهيني عازماً على الدخول قال له: "حالي من حالك".

وبعد تناول العشاء وقبل المغيب بساعة، بدأ النوخذة إبراهيم يتجه نحو خور البواخر في ممباسا (خوركالينديتي) الذي تحيط به الشعاب المرجانية (القصاصير) من كل جانب، وبدأ يقترب من المدخل بحذر، فهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها هذا الميناء، وكان البحارة يقيسون له الأعماق عند مدخل الخور والنوخذة سليمان المهيني يتبعه بحذر وليس بينهما سوى إشارات ضوئية حتى تم دخولهما بسلام، وأرسيا سفينتهما بعيداً عن مجرى البواخر حتى الصباح.

وبعد أن أفرغا بضاعتها ذهبا إلى زنجبار، ثم إلى الروفيجي لشراء أعمدة الجندل، ثم أبحرا إلى الكويت، فوصلاها بسلام، بعد رحلة صعبة لكنها موفقة.

وفي العام التالي قاد النوخذة إبراهيم سفينته إلى منقلور، لكنه لم يحصل على بضاعة (نول) فأوصاه النوخذة عبدالوهاب بشراء حمولة من القرميد على حسابه، فاشتراها وأبحر بها إلى إفريقيا، حيث باعها هناك وعاد إلى الكويت، لكنه لم يستمر بعد ذلك في قيادة السفن

الشرعية، على الرغم من أنه كان يستلم خمسة قلايط (أسهم) بدلاً من الأربعة. لقد انصرف نظره عن السفر كما قال.

لم يستمر النوخذة إبراهيم بعيداً عن السفر، بل ركب بعد ذلك العديد من السفن، منها سفينة للتاجر عبدالعزيز المرزوق، لكنها كانت تسيّر بالمحرك والشرع. ثم اشترى سفينة لها محرك وتشارك معه فيها النوخذة يوسف الجاسم المبارك، وقادها سنة واحدة إلى الهند.

وكان مما يستحق الذكر هو أنه بعد نجاح مهمته وما رآه التاجر عبدالعزيز المرزوق في النوخذة إبراهيم العثمان من مهارة في القيادة، ومن أمانة ودقة في حساب السفينة، طلب منه أن يقودها في العام القادم على أساس المناصفة.

لكن التحولات الاقتصادية والظروف الاجتماعية في الكويت في أواخر الأربعينيات دفعت النوخذة إبراهيم لترك حياة البحر والسفر بعد أن أمضى فيهما كل سنوات شبابه.

يقول النوخذة إبراهيم العثمان "ماكو مثل أهل الكويت ونواخذتها وبحارتها من ناحية الأمانة والصدق، ولا أمدحهم إلا لأنهم يستاهلون المدح. والبحارة أولاد حلال وأوادم وإحنا نحرض على حلالنا وحلال غيرنا، والبحر يعنّ علي، وأنا دائماً أتذكر البحر ورجاله وأهله والبحر كله خير وبركة، وكنا دائماً موفقين والحمد لله على كل حال".

النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٣م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٥ أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج والهند واليمن وإفريقيا.
أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والمواد الاستهلاكية المختلفة.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان.

- النوخذة يوسف محمد سليمان العثمان.

أبرز النواخذة الذين تدربوا على يده:

- النوخذة داود عبداللطيف العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

هو ابن النوخذة الكبير عبداللطيف العثمان الذي درب العديد من أقاربه من آل العثمان على قيادة السفن الشراعية. لم يتردد النوخذة أحمد في قبول دوره كنوخذة أسوة بأقاربه من قبل، فركب أول الأمر مع النوخذة والقبطان عبدالوهاب العثمان ليتعلم عنه أصول الملاحة وقيادة السفن الشراعية.

وبعد سنوات ركب كذلك مع النوخذة يوسف محمد العثمان، حتى استطاع أن يتقن أساليب التنوخذ فركب في سفينة والده "فتح الرحمن"، وهي سفينة كبيرة الحجم (حمولة ٤٠٠٠ من)، أجاد صنعها الأستاذ المعروف حسين بن منصور، وكان ذلك في عام ١٩٣٦م. ولاشك أن هذه السفينة كان لها دور في ذلك الوقت حيث كان السفر الشراعي ما زال مزدهراً آنذاك.

ولقد ركب معه أخوه داود عدة سنوات يتعلم منه، حتى استلم قيادة سفينة لوالده عدة سنوات قبل توقف النقل الشراعي الكويتي. أستمر النوخذة أحمد العثمان في قيادة السفن الشراعية تحت إمرة والده عبداللطيف الذي توقف عن قيادة السفن وأصبح مدير تجارة العائلة في الكويت والهند.

وكانت أغلب رحلاته إلى الهند ولما أطل عام ١٩٤٨م، وبدأت إمارات اضمحلال السفر الشراعي الكويتي، ترك النوخذة أحمد ركوب وقيادة السفن، وبقي في الكويت بالقرب من والده، ثم عمل في وظيفة حكومية قبل أن يصبح مختاراً لصاحبة عبدالله السالم السكنية.

وفي لقاء له مع الكاتب عبّر النوخذة أحمد عما يشعر به - بكل صراحة - فالبحر مازال يعنّ له - ولكن أين البحارة من أهل الكويت؟! وأين الرجال الذين رافقهم في رحلاته..؟ هؤلاء الرجال الذين أخلصوا في عملهم وصدقوا عزيمتهم..؟

لقد أخذها هؤلاء الرجال "شطاره وبالممارسة" - كما يقول النوخذة أحمد العثمان - وكانوا يقولون: "اندب رجال ولا تندب دراهم" حين يتعرضون للمتاعب. أما اليوم فالناس تقول عكس ذلك: "لقد ذهب زمانهم، ولكل زمان دولة ورجال، فكيف أركب البحر ثانية؟".

النوخذة عيسى عبدالله العزيز العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٣م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ١٣ عاماً.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة والخليج وإفريقيا والهند.
أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الاستهلاكية والمواد الغذائية والذهب.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة عبدالله العزيز العثمان.

- النوخذة عيسى بشارة.

نبذة عن عمله البحري:

ولد النوخذة عيسى العثمان وليس أمامه من طريق سوى أن يركب البحر ويصبح نوخذاً كما فعل والده وأقاربه من قبل، فحين بلغ الرابعة عشرة من عمره، ركب مع والده لتعلم أساليب قيادة السفن الشراعية.

وكان يركب معهم في بعض هذه الرحلات النوخذة عيسى بشارة ليحدد مواقع السفينة في عرض البحر، وكانت هذه فرصة للشاب عيسى العثمان للتعلم من هذا النوخذة المعلم، مما كان له أكبر الأثر في قدرات النوخذة عيسى العثمان حين تسلّم قيادة السفن الشراعية.

وحين ترك والده عبدالله قيادة السفن (١٩٤١م)، تولى النوخذة عيسى قيادة سفينة والده إلى معظم موانئ الهند وساحل إفريقيا الشرقي، حتى إنه لم يترك ميناءً إلا أبحر إليه. وكان يبحر أحياناً من الهند إلى ساحل إفريقيا مباشرة معتمداً على قدرته الملاحية وعلمه بأساليب "القياس". ليس من السهل ذكر جميع رحلات النوخذة عيسى العثمان، والحوادث التي تعرض لها، ومن يستعرض معه دفتر يومياته في البحر (الروزمانة) يدرك بوضوح العزيمة القوية التي كان يتحلّى بها النوخذة عيسى وغيره من نواخذة الكويت الشباب من جيله، وحبهم للمغامرة وحسن التصرف عند الشدائد.

وحين توقف السفر الشراعي الكويتي لزم النوخذة عيسى العثمان تجارته في الكويت، يديرها بكفاءة حتى اليوم.

ويتحدث النوخذة عيسى عبدالله العثمان عن بداياته وعمله البحري للأستاذ يوسف الشهاب والذي وثق بدوره هذا الحديث في كتابه "رجال في تاريخ الكويت" الجزء الثالث - الكويت ٢٠٠٠م. وننقل فيما يلي طرفاً من هذا الحديث:

أول "طرشة"

كانت أول "طرشة"^(١) إلى البصرة وأخذنا منها تموراً، ثم ذهبنا إلى كراتشي حيث أفرغنا جزءاً منه ثم غادرنا الميناء إلى - بور بندر - ثم إلى بومباي، وفيها أفرغنا بقية ما كان معنا من التمور، وحملنا بدلاً منه ملحاً، وذهبنا به إلى "كلكتا" وبرأوا، التي تبعد عن بومباي (٢٧٠ ميلاً) إلى الشمال.. بعدها كما يقول - النوخذة عيسى العثمان - عدنا مرة أخرى إلى بومباي، وقمنا بشحن السفينة بالملح وأبحرنا إلى "كلكتا"، وأفرغنا جزءاً منه ثم توجهنا إلى البصرة ومعنا أخشاب وصبار وحبال.

وأذكر أن أول رحلة استغرقت نحو ثمانية أشهر ونصف، ولم نعد فيها إلى الكويت، بل قضيناها بالبحر بين الموانئ التي توقفنا فيها، لتفريغ أو شحن البضائع.

ثم سافرت بعدها بالموسم التالي (للسفر) وحينها كان عمري (١٩ عاماً) وشعرت أن الوالد لم يكن قادراً على دخول البحر مرة أخرى، خاصة بعد المرض الذي تعرض له، فاقترحت عليه - والحديث لا يزال لأبي فيصل - الإخلاء إلى الراحة، على أن أقوم بدلاً منه للذهاب إلى البحر في سفينته وكان عليها أيضاً أحمد السبيعي، الذي تعلمت منه في هذه "الطرشة" جوانب أخرى عن البحر والطرق التي ترتادها السفينة واستعمال الخرائط وغيرها.

ولم يكن هناك اتفاق مسبق.. كل ما في الأمر أن البحار، كان يأخذ (سلفة) من صاحب السفينة لتكون لدى أسرته خلال غيابه، والسفينة كما يقول "عيسى العثمان" كانت حصيلة رحلتها توزع على الجميع، فإن كانت الحصيلة (٢٠ ألف روبية) يتم خصم مصاريف وجبات الأكل منها، ثم يرصد النصف من المبلغ المتبقي للسفينة والنصف الآخر يوزع على البحارة. أضف إلى ذلك المبلغ الذي يتقاضاه "السكوني" مع "الطباخ".

وعلى العموم - يقول أبو فيصل - كان البحار يحصل خلال رحلة السفر على نحو (٧٠ إلى ٨٠ روبية) في الرحلة الواحدة، ويضيف قائلاً: "وكان عدد البحارة فوق السفينة (٢٥

(١) الطرشة أو المطراش: الرحلة ذهاباً وإياباً.

بحاراً)، وكانت تحمل (٢٥٠ طناً) من البضائع، وكان عمري بين (١٨ و١٩ سنة) وكنت متزوجاً. وللعلم كنت نوحدة في عام ١٩٤١م".

ويتابع الحديث: "قلت لك كنت شغوفاً ومولعاً بركوب البحر، ولهذا فإنني حين تسلمت قيادة السفينة بعد الوالد لم أشعر بالرهبة، وأذكر أنني في تلك الرحلة توجهت من الكويت إلى البصرة وشحنت السفينة بالتمور ثم غادرتها إلى بومباي، وتم تفريغه هناك، وعدت محملاً بالذهب من بومباي وكراشي وكلكتا، وكنا نشتره من هذه المناطق بمبلغ (٨ إلى ٩ روبيات) لكل جنيه ذهب، ونعود به للكويت ونبيعه بمبلغ (١٣ إلى ١٤ روبية)".

ويستمر الرجل بالحديث قائلاً: "في بداية استلامي السفينة بعد الوالد، طلب مني الوالد وكذلك العم، ضرورة السفر مرتين في تلك السنة نتيجة حركة السوق التجاري في ذلك العام، وبالفعل - يقول أبو فيصل - نفذت ما كان مطلوباً مني، فقد ذهبت إلى "كلكتا" وعدت منها بالبضائع إلى البصرة، ثم شحنت منها التمور، وغادرتها إلى بومباي، وبعد تفريغه فيها، شحنت أقمشة وحبالاً إلى البصرة".

ويستأنف النوحدة عيسى العثمان قائلاً: "لم يكن البحر خالياً من القراصنة، وعلى العموم اسمع هذه الحكاية التي عشتها مع قراصنة البحر"، ويتابع الحديث: "بعد فترة تفكير في أول سنة كنت فيها "نوحدة" - وكنت حينها في بومباي - سمعت أن قرصاناً مع جماعة له يقومون باعتراض السفن التجارية وهي في البحر ويسرقون ما فيها من بضائع ونقود بقوة السلاح في مضيق هرمز".

وحين غادرت بومباي مع من كان معي بالسفينة ووصلنا إلى قبالة "خورفكان" رأينا سفينة ترفع إشارة استغاثة - وهي تقترب - وشعرت أن الأمر غير طبيعي، بل إنني أيقنت أن هذه السفينة تحمل "قراصنة البحر" - الذين سمعت عنهم في بومباي - فقلنا لهم "ابعدوا عنا" فلم يستجيبوا، وكررنا التحذير لهم بالابتعاد ثانياً وثالثاً، فلم يستجيبوا، فلم نجد سوى تبادل إطلاق النار معهم، وراح كل جانب يطلق النار على الآخر من سفينته، وبقينا على هذا الحال من الظهر إلى العشاء، حتى هربوا في سفينتهم، ولم يصب أحدنا بسوء - والله الحمد".

وبالمناسبة - كما يقول النوحدة عيسى العثمان - ظل القراصنة يعترضون سير السفن التجارية في البحر مدة طويلة، ولم تستطع واحدة من السفن التجارية القضاء عليهم، وفي النهاية استطاعت سفينة إنجليزية أن تقضي عليهم وتؤمن الطريق للسفن في البحر.

النوخذة سليمان غانم علي العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٦م

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: شط العرب والخليج والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الاستهلاكية الأخرى.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة غانم علي العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

يتحدث لنا النوخذة سليمان غانم العثمان عن حياته في البحر منذ صغره، فلنستمع إليه:
ولد النوخذة سليمان العثمان في منطقة القبلة، وتلقى علومه الابتدائية على يد الشيخ أحمد الخيمس - رحمه الله - وبعدها انتقل إلى مدرسة الملا مرشد محمد السليمان بالمرقاب حيث تلقى عنه علوم الفقه والحساب.

وبعد أن تعلم الحساب اصطحبه والده غانم رحمه الله في بومه الكبير "الباز"، حيث علمه علوم البحر، إلى أن عهد إليه بالبداية بمهمة السكوني، وكان يرغب حينئذٍ أن يتسلم قيادة البوم "نوخذة"، ولكن لصغر سنه رأى والده - رحمه الله - ألا يستعجل في إسناد المسؤولية إليه، وكان يقول له "لا تستعجل يا سليمان، أنت لاحق على شقاء البحر وتحمل المسؤولية الكبيرة".

وفعلاً تحقق حلم النوخذة سليمان وطموحه وسلمه والده نصف المسؤولية وأصبح مساعداً لوالده (نوخذة شراع) وبعد سنة واحدة تسلّم قيادة البوم "الباز"، واستمر النوخذة سليمان بقيادة البوم الباز متنقلاً من ميناء البصرة، محملاً التمور والخيول العربية الأصيلة إلى الهند، وراجعاً بالأخشاب والحبال وجميع ما تحتاجه صناعة السفن الكويت.

ولم تتوقف رحلاته إلى الهند بل في إحدى رحلاته إلى الهند طلب منه المرحوم الحاج محمد عبدالمحسن الخرافي أن يسافر إلى ممباسا، لأنه يود أن يرسل معه حمولة كبريل "قرميد"، حيث الأسعار جيدة هناك، وأخبره بأن سفينتهم بقيادة النوخذة أحمد فهد الموسى ستسافر معه سنيار إلى ممباسا، فلم يتردد النوخذة سليمان، فسافروا معاً إلى ممباسا.

وبعد أن وصلوا هناك وأفرغوا حمولتهم وسلموها إلى وكيل المرحوم محمد الخرافي، عادوا سوياً "سنيار" محملين من هناك بالجندل والفحم.

وواصل النوخذة سفراته حتى كسدت تجارة السفن الشراعية وراجت تجارة نقل الذهب لدى التجار الكويتيين، عندها باع المرحوم غانم بومه الباز لصديقه المرحوم عبدالوهاب بن عبدالعزيز القطامي، وصنع له بوماً صغيراً مزوداً بمحرك ديزل أطلق عليه اسم "فوزي" تيمناً باسم فوزي محمد الخرافي حفيد صديقه العزيز المرحوم الحاج عبدالمحسن الناصر الخرافي، فباشر النوخذة سليمان قيادته منتقلاً به بين قوه والدمن من المواني الهندية.

واستمر النوخذة سليمان حتى توقفت تجارة نقل الذهب وتوقف النوخذة سليمان عن مهنة ركوب البحر مواصلاً أعماله التجارية بالكويت مودعاً البحر وذكرياته الحلوة والمرة.

ويروي النوخذة سليمان بعض ذكرياته فيقول:

"كنت في إحدى سفراتي مع والدي - رحمه الله - في يومنا "الباز" محملين تموراً إلى عدن، وكان وقت ظهور نجم الأحيمر، وعند مرورنا بجزيرة الشيخ في بر فارس هبت عليه رياح شديدة عاتية وأمطار غزيرة.

وبالنسبة لحساب أهل البحر نسميه ٣٢ "يعني ١٢٢ نوروز" فانكسر علينا الدقل العود (أي الصاري الكبير) وتمزق الشراع وبعد أن هدأت العاصفة التي استمرت حتى صباح اليوم التالي فحصنا البوم ووضعنا الدقل الصغير "القلمي" مكان الدقل الكبير، وواصلنا مسيرتنا إلى أقرب بندر "ميناء" لنا، ووصلنا مسقط ورتبنا أمورنا واستراح البحرية، واشترينا دقلاً كبيراً من هناك بدل الدقل الذي فقدناه، وخيطنا الشراع. وبعد أسبوع واصلنا سفرنا إلى عدن".

ويستطرد النوخذة سليمان قائلاً: "لو أروي لك الأحداث والمصائب التي حلت بنا أثناء سفراتنا في السفن الشراعية من وإلى الهند واليمن والصومال وإفريقيا، لما اتسع لها مجلداً بأكمله".

ويواصل حديثه ويقول مبتسماً: "دعني أروي لك جزءاً من حلاوة أيام البحر وهي التلاحم والغيرة والمحبة التي مع الأسف نفتقدها في هذا الزمن، كان عندما يفقد أحدهم في ذلك الزمن سفينته "تطبع بالبحر" (أي تغرق) يهب جميع أهل البحر لمساعدته، ومن تلك المساعدة يحصل ما يكفي لصناعة سفينتين بدل الواحدة التي فقدها.

وإذا صنع أحدهم سفينة وانتهى من صناعتها وحدد يوم إنزالها بالبحر هبوا جميعاً (أهل الشرق وأهل القبلة) للمساعدة في إنزالها إلى البحر حتى الشيخ أحمد الجابر - رحمه الله - كان يحضر أحياناً لمشاركتهم.

هذه نبذة عن حياة البحر التي عشناها، فرحم الله رجال البحر من أبناء الكويت الأوفياء".

النوخذة داود عبداللطيف العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٣٠م.

تاريخ الوفاة: ١٩٩٨/١/١٩م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٤ أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة وشط العرب والخليج واليمن والهند.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والذهب.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

سافر في البداية مع شقيقه الأكبر النوخذة أحمد عبداللطيف سليمان العثمان، فتعلم منه أصول صناعة ركوب البحر وتفاصيلها، حتى أصبح نوخذةً مستقلاً بنفسه، فركب وركب معه ذات مرة النوخذة أحمد صالح السبيعي، رغم كونه أقدم منه وأكبر سناً وأكثر خبرة، إلا أن عدم وجود سفينة يسافر فيها النوخذة أحمد السبيعي، وحبه للرزق الحلال مهما كان موقعه، جعله يركب كنوخذاً شراع (مساعد نوخذة) في حين أن النوخذة داوود ركب كنوخذاً شراع مع النوخذة القدير صالح المهيني.

درّب قريبه خالد عبدالرحمن العثمان، ولكن الوقت لم يسعف خالد للتعلم، حيث انتهى سفر الشراع.

كان - رحمه الله - مثلاً يحتذى في الصبر والتصميم وعدم الدخول في أي خلافات من شأنها التأثير على سفره ونجاح مهمته، بل إن ذلك زاده حكمةً وذكرًا طيباً عندما عمل - بعد تركه العمل في البحر - في بلدية الكويت، فساعد الجميع وسهل الأمور للناس بدرجة لا توصف. ولا يزال من ساعدهم يدعون له بالخير إلى الآن لما سهل لهم من شؤون معيشتهم وتجارتهم. كما كان - رحمه الله - غاية في التواضع وإنكار الذات، وقد رفض الكتابة عنه أثناء حياته، وهذا ما أمكننا الحصول عليه من معلومات عنه بعد وفاته.

النوخذة الشاب غانم عبدالله غانم العثمان

كما سبق أن أشرنا في موضع متقدم من هذا الكتاب إلى أن الناظر المتأمل في أسماء نواخذة السفر الشراعي في تاريخ الكويت يلحظ كثرة عدد النواخذة وخاصة من عائلة العثمان، والذين يفوق عددهم الخمسة عشر نوخذة، وقد برز منهم النواخذة غانم علي العثمان.

كما توارثوا هذه المهنة أباً عن جد، فكان عددهم بذلك أكبر عدد من النواخذة الذين ظهروا في عائلة واحدة، ولم يكن صعباً على أن أجد ملكة التنوخذ وقيادة السفن الشراعية فطرية ومكتسبة في آن واحد.

فقد جُبل عليها هؤلاء النواخذة وتعلموها من بعضهم، وها هو حفيدهم النواخذة الشاب غانم عبدالله غانم علي العثمان حفيد النواخذة غانم علي العثمان يتجه إلى البحر ليمخر عبابه ويعبر محيطاته فيمارس التنوخذ في يومنا هذا هوايةً لا مهنةً، عبر المحيطات والبحار في جولة حول العالم في يخته المسمى (عثماني) وبمفرده في رحلة شيقة تحفها المخاطر بحفظ الله تعالى ورعايته، ولم يرافقه فيها أحد سوى ميكانيكي اليخت.

وسنفرّد تفصيلاً في ملحق هذا الكتاب عن سيرة النواخذة الشاب غانم عبدالله العثمان ورحلتيه الأولى من بحر الصين إلى الكويت والثانية حول العالم.

.. وتستمر مدرسة العثمان البحرية

أبرزنا فيما مضى من هذا الكتاب التعلم الذاتي لأجيال الأسرة الواحدة لمهنة التنوخذ في الكويت بشكل عام، وفيما بين أجيال عائلة العثمان الكريمة بشكل خاص، وأوضحنا الاستعداد المتبادل للتعليم من قبل الجيل السابق والتعلم من قبل الجيل اللاحق لأساسيات مهنة ركوب البحر، فتوارثوها أباً عن جد، وتناقلوها أخاً عن أخ.

وبذلك نستطيع أن نعتبر هذه العملية التعليمية مدرسة بحرية متصلة الفصول، ففيها المبتدئ وفيها المتقدم بل المتقاعد، وهي في ذلك أشبه ما تكون بخط الإنتاج الذي يتصل أوله بآخره، فقد كان الجيل اللاحق يركب البحر متعلماً من الجيل الذي سبقه، ثم يستقل بنفسه.

وها هي مدرسة العثمان البحرية قد خرجت أجيالاً متتابعة، وها هي كذلك تستعد لتخريج كوكبة كانت على وشك التخرج من حيث العمل في مهنة التنوخذ، ولكن الزمن لم يسعفها حيث انقطع السفر الشراعي في الكويت بانتهاء الحرب العالمية الثانية وتفرغ البواخر للنقل التجاري بعد أن كانت محجوزة للنقل العسكري فقط.

ولولا هذا التوقف لبلغ مرحلة التنوخذ ثلاثة آخرون كانوا قد تأهلوا للمهنة من خلال ركوبهم البحر لعدة سنوات مع سابقيهم من نواخذة العثمان وغيرهم.

لذا نتطرق إليهم بالتعريف - فيما يلي - إبرازاً لدورهم الذي توقف لأسباب قسرية لا اختيار لهم فيها، ولقد كانوا كذلك من أعمدة المكتب التجاري لعائلة العثمان.

السيد عبدالرزاق محمد سليمان العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٦م.

تاريخ الوفاة: ١٩٨٥م.

عدد سنوات العمل في مجال التنوخذ: ٥ أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: الهند واليمن والخليج والبصرة.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والاستهلاكية.

أبرز النواخذه الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذه يوسف محمد العثمان.

نبذة عن عمله البحري :

ركب البحر كثيراً وبلغ درجة من المهارة والإتقان في صناعة ركوب البحر، جعلته "نوخذا شراع" أي مساعد نوخذه، وكان يقوم بكل الأماريات التي يقوم بها النوخذه وتوجيه المجدمي. وبالتالي كان يتم من خلاله توجيه بقية البحارة لإدارة شؤون السفر على ظهر السفينة وعلى البنادر التي ترسو بها وكذلك جميع المعاملات التي تحتاجها السفينة، ولم يعد له من التنوخذ سوى توجيه السكوني (قائد الدفة) لتحديد مجرى السفينة واتجاهها، الأمر الذي كان يقوم به النوخذه ناصر محمد، وقد تميز باستعانتته بأهل الكويت في تكوين "يزوته" أي بحارته، ولم يكن بالضرورة هو الحال مع كثير من النواخذه الكويتيين الذين يضطرون أحياناً كثيرة على الاستعانة ببحارة خليجيين أو مهرة.

ركب متدرباً مع أخيه النوخذه يوسف محمد العثمان في اليوم "موافج" ثم في يوم آخر اسمه "تيسير" تيمناً باسم يوم العثمان الكبير المسمى "تيسير" بعد أن تم بيعه، وقد نقل كثيراً من البضائع من الكويت وشط العرب إلى الهند قاصداً خاله صالح العلي الحمود الشايح، الذي كان مستقراً هناك لإدارة الشؤون التجارية لعائلته.

وقد عمل في وزارة الصحة العامة قبل تقاعده ووفاته.

السيد عثمان عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٧م.

تاريخ الوفاة: ١١/١/٢٠٠١م.

عدد سنوات العمل في مجال التتوخذ: ستة أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: البصرة وشط العرب، والخليج واليمن والهند وإفريقيا.
أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والاستهلاكية.

أبرز النواخذة الذين تدرّب على أيديهم:

- النواخذة أحمد عبداللطيف العثمان.

- النواخذة أحمد صالح السبيعي.

نبذة عن عمله البحري:

هو الابن الأكبر للنواخذة عبدالوهاب بن عبدالعزيز بن عثمان، وقد عمل بالتجارة وركب البحر متدرّباً على التتوخذ، ولكن توقف السفر الشراعي حال دون ممارسته هذه المهنة. له أعمال طيبة في المجال الخيري تتضح من التابئين التالي:

الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية

ترثي عثمان عبدالوهاب العثمان

وقد أصدرت الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بياناً ترثي فيه السيد عثمان عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - جاء فيه:

"فقدت الكويت في شوال ١٤٢١هـ (يناير ٢٠٠١م) عثمان عبدالوهاب العثمان، وكان من رجالات الكويت الأخيار الذين كان لهم دور مشهود في إعمار المساجد بناءً وتعبداً.

وكان - يرحمه الله - من جلساء العلامة المرحوم - بإذن الله - الشيخ محمد سليمان الجراح في مسجد السهول بمنطقة ضاحية عبدالله السالم.

كان - يرحمه الله - يمتاز بالأخلاق الفاضلة العالية والتواضع الجرم مع الناس، والمساهمة في المشاريع الخيرية والسعي في بذل الخير وتلمس احتياجات الفقراء والمعوزين والغارمين.

وكان من عمار المساجد، لا يترك فرضاً ولا يقرب حراماً ولا يذكر أحداً بسوء، فإذا جالسه أحد أحس بالطمأنينة والسلام، وإذا سأله أحد وجد عنده من الأخبار والمعلومات المفيدة ما يسعده ويحوز إعجابه.

وكان - رحمه الله - امتداداً لوالده النوخذة عبدالوهاب العثمان، طيب الله ثراه فتعلم منه ونهل من أخلاقه وسجاياه، وربى أولاده أحسن تربية، فهم اليوم نماذج خيرة تمتاز بالأخلاق والتواضع والتواصل مع الناس، مثلما كان جدهم ووالدهم وأسرتهم الكريمة.

كان عثمان عبدالوهاب يمثل أخلاق رجالات الكويت القدامى، حاملاً روح الأسرة الواحدة، وكان قلبه يمتلئ حسرة حين يتحدث عن الكويت القديمة وأهلها ولا يرى امتداداً لأخلاقهم الكريمة وصفاتهم الطيبة.

ولله در عثمان العثمان العابد الزاهد الذي داهمه المرض فلم يجزع من قضاء الله وقدره، بل كان على الدوام صابراً محتسباً، إذ لم يكذب يوماً حتى عاد يجرد الخيط كل يوم ليؤدي الصلوات في المسجد حتى وفاته.

لقد كان أبو خالد، باراً بأهله ووطنه وعقيدته، وكان مثلاً يحتذى في الخلق والصلاح والتقوى.

والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية إذ تنعي عثمان عبدالوهاب العثمان لتضرع للمولى عز وجل أن يتغمده بواسع رحمته ..

والعزاء والسلوى إلى جميع أهله ومحبيه، وأن يجزيه الله تبارك وتعالى عما فعل وقدم خير الجزاء".

وقد بنى - رحمه الله - مسجداً في السودان وآخر في بنجلاديش، وهو في ذلك ينتقي الأماكن التي يُعمر فيها بيوت الله تعالى، بحيث يعتمد في اختيارها على الأولوية في الحاجة، فأختار المناطق الفقيرة في البلاد البعيدة، لكي يكون إنفاقه في المكان المناسب.

السيد عبدالله محمد العثمان

تاريخ الميلاد: ١٩٢٩م.

عدد سنوات العمل في مجال ركوب البحر: أربعة أعوام.

أهم السواحل التي وصلها في رحلاته: الهند والخليج والبصرة وشط العرب.

أهم البضائع التي كان يتاجر بها: الأخشاب والتمور والمواد الغذائية والاستهلاكية والذهب.

أبرز النواخذة الذين تدرب على أيديهم:

- النوخذة عبدالحميد العبدالجادر.
- النوخذة يعقوب خلف اليتامى.
- النوخذة حسن علي الشطي.
- النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان.

نبذة عن عمله البحري:

ركب البحر من عام ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩م، وبلغ من التدريب البحري ما جعله مؤهلاً لأن يكون نوخذاً شراع (أي مساعد نوخذة)، وكان يقوم بجميع المعاملات البحرية والتجارية للسفينة في البحر والموانئ، غير أن السفر الشراعي قد توقف بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وتفرغت السفن التجارية لعملها الأصلي، وهو نقل البضائع التجارية، بعد أن كانت موقوفة للإستخدامات العسكرية لصالح الإنجليز.

وقد ركب البحر مع النوخذة يعقوب خلف اليتامى، فأمره أخوه الأكبر يوسف محمد سليمان العثمان بأن يأخذ ألفين "تولة" من الذهب من الكويت إلى الهند، لحساب كل من التاجر عبدالعزيز حمد الصقر، وعائلة الحمد، وقد نجح في إيصالها إلى الهند حسب الخطة المحددة له.

وبعد إنتهاء السفر الشراعي عمل في عمارة بيع الأخشاب ومواد البناء الخاصة به وبأخوانه يوسف وعبدالرزاق، وذلك في الفترة من عام ١٩٥٠م إلى عام ١٩٥٥م حيث التحق بالعمل في وزارة الكهرباء والماء في ذلك العام.

المكتب التجاري

العمل التجاري نشاط تكاملي، فيه دورة تجارية معروفة لا بد من اكتمال حلقاتها لكي يكون النجاح حليفها، فالعاملون في عرض البحر لا بد لهم من سند تجاري يُنسق لهم تجارتهم، فيحسب ما لهم وما عليهم، ويقبض ويصرف.

وما كانت عائلة العثمان لتبلغ هذا الشأن في التاريخ البحري والتجاري في الكويت، لأكثر من قرن من الزمان، لولا تنظيم حساباتها التجارية، التي قام بها مكتب العائلة التجاري، الذي كان يديره المرحوم الحاج سليمان عبداللطيف العثمان^(١)، المسؤول الأول عن جميع إيرادات السفن واحتياجاتها ومصروفاتها، وكذلك جميع الأعمال التجارية داخل الكويت وخارجها من أخشاب وتمور وبضائع مختلفة.

إن دقة عمل المرحوم الحاج سليمان عبداللطيف العثمان كانت من الأسباب الرئيسة لنجاح الأعمال البحرية والتجارية لعائلة العثمان. وكان يساعده في ذلك أخوه صالح عبداللطيف العثمان وخاصة في ترجمة بعض البرقيات المكتوبة باللغة الإنجليزية. ومن بعد المرحوم سليمان العثمان باشر أخوه المرحوم صالح عبداللطيف سليمان العثمان^(٢) إدارة المكتب التجاري.

ومن الجدير بالذكر أن المكتب التجاري كان يقع في ديوان عبدالعزيز بن عثمان على البحر مقابل النقعة، وبعد القسمة بين أفراد العائلة استمر سليمان عبداللطيف العثمان بإدارة المكتب.

وبعد وفاة عبدالعزيز بن عثمان انتقل الديوان - بالإضافة إلى المكتب - إلى ديوان عبدالوهاب العثمان في داخل الفريج. وتدرجياً تم فصل الأعمال التجارية بين أفراد العائلة، إلى أن انتقل المكتب إلى قرب سوق المناخ، حيث افتتح كثير من التجار مكاتبهم هناك.

وبعد هذا الفصل قام النوخذة عيسى عبدالله العثمان ابن شقيق المرحوم عبدالوهاب العثمان وزوج ابنته بإدارة المكتب، ثم من بعده قام المرحوم عثمان عبدالوهاب العثمان^(٣) بإدارة المكتب التجاري بمساعدة والده، وقد سافر عدة مرات بالبوم إلى الهند وعدن مع خاله أحمد

(١) ولد المرحوم سليمان عبداللطيف سليمان العثمان في عام ١٨٩٨م، وتوفي في عام ١٩٦٩م.

(٢) ولد المرحوم صالح عبداللطيف سليمان العثمان في عام ١٩٢٤م، وتوفي عام ٢٠٠٢م.

(٣) ولد المرحوم عثمان عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان في عام ١٩٢٦م، وتوفي في ١١/١/٢٠٠٠م.

عبداللطيف العثمان ومع النوخذة أحمد السبيعي لإعداده وتدريبه لكي يصبح نوخذة ولكن انتهاء السفر البحري الكويتي ودخول الكويت عالم النفط حال دون ذلك.

وقد كان بدر عبدالوهاب العثمان يساعد أخاه عثمان وهو من مواليد ١٩٣٤م، وقد سافر أيضاً إلى الهند بالباخرة عدة مرات كلما تطلب الأمر ذلك، وذلك لبيع الذهب وتحويل الأموال إلى الكويت.

واستمر مكتب عبدالوهاب العثمان في سوق المناخ ثم انتقل إلى سوق التجار الحالي أمام قصر السيف وما زال هذا المكتب يعمل بإدارة أبناء عبدالوهاب العثمان بعد وفاته سنة ١٩٨٧م.

وحتى يكون البحث في هذا الباب مكتملاً، لا بد من الإشارة إلى بعض الأسماء المهمة لشخصيات عاشت العصر البحري من عائلة العثمان، وكان لهم دور مهم بشكل أو بآخر من خلال ركوب البحر أو التجارة في ذلك الوقت وهم:

١ - عبدالله إبراهيم العثمان: مساعد للنوخذة (نوخذا شراع).

٢ - عبدالله غانم العثمان: عمل بالتجارة البحرية، وسافر بالباخرة إلى الهند في الشؤون التجارية للعائلة.

٣- بدر عبدالوهاب العثمان: سافر بالباخرة إلى كراتشي عدة مرات في بداية الخمسينيات، حيث عمل بتجارة الذهب، وهو من مواليد عام ١٩٣٢م.

السيرة الشخصية

للنوخة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان

المولد والنشأة

هو عبدالوهاب بن عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالله العثمان، المولود في منطقة القبلة بمدينة الكويت عام ١٣٢٣ هـ الموافق لعام ١٩٠٥م، لُقّب بشيخ النواخذة في الكويت لما له من صيت طيب في هذا المجال، كما سيتبين لنا بالتفصيل فيما بعد.

ينتمي إلى أسرة العثمان التي توارثت العمل في البحر أباً عن جد، فوالده عبدالعزيز بن عثمان من النواخذة المعروفين في زمانه بالكويت، وتعود أصوله إلى منطقة سدير في نجد بالمملكة العربية السعودية التي ارتحل منها إلى الكويت في حوالي عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، وكان عمره حينئذ اثني عشر عاماً، وقد رافقه في هذه الرحلة كل من أخيه عبدالله ووالدته وأخته هيا والدة النواخذة عبداللطيف سليمان العثمان والنواخذة محمد سليمان العثمان.

وبعد أن وصل إلى الكويت قرر أن يتخذ العمل في البحر مهنة له، إذ كانت الكويت مزدهرة بالتجارة في ذلك الوقت ومشتهرة بحرفة الغوص على اللؤلؤ، وكذلك السفر التجاري بالسفن الشراعية إلى الهند واليمن وسواحل إفريقيا.

كان هذا الرجل - عبدالعزيز العثمان - ذا طموح كبير، فعمل بكل همة ونشاط في سبيل تحقيق ما وصل إليه من نجاح بعد ذلك.

وبعد سنوات من عمله في البحر اقترح عليه أهله وأصدقاؤه أن يتزوج، فأجابهم - رحمه الله - بقوله: "لن أتزوج حتى أربط البري"^(١)، أي حتى تكون لديه سفينة شراعية يمتلكها تقف أمام منزله على شاطئ البحر.

ولما تجمع لديه ما يكفي من المال اشترى أول سفينة شراعية، وكان يقودها بنفسه للسفر والتجارة ما بين الكويت وموانئ الهند واليمن، وحينما نصحه أصدقاؤه مرة أخرى بالزواج قال رحمه الله: "أول لازم أشترى لي قبراً في الدنيا" وكان يعني بهذا أن يشتري منزلاً.

ومرت السنوات، وتزوج عبدالعزيز، ورزقه الله من البنين: عبدالله وعثمان وعبدالوهاب (المترجم له)

(١) البري حبل يربط بمؤخرة السفينة، ويثبت بوتر على الأرض خلفها.

تعليمه

كعادة أبناء الكويت في ذلك الوقت التحق عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بالكتاب وتعلم فيه القرآن الكريم والحساب والخط... ثم التحق بمدرسة الملا هاشم الحنيان. وقد كان من أساتذته وشيوخه آنذاك السيد هاشم والملا سعد بن شرهان والشيخ يوسف بن حمود، والشيخ عبدالعزيز العنجري. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره اتجه إلى تعلم أصول الملاحة وقيادة السفن الشراعية.

زواجه

بادر عبدالوهاب إلى الزواج لإيمانه بأهميته في الإسلام إذا وجدت القدرة عليه، قال النبي ﷺ "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ"^(١) رواه البخاري.

وقد تزوج المرحوم النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - ثلاث مرات، وورثه الله تعالى بذرية طيبة مباركة، بلغت ستة عشر من الولد: عشرة من الذكور، وستاً من الإناث، جميعهم من الصالحين بحمد الله تعالى ومتزوجون، وله منهم الكثير من الأحفاد، وقد كان هؤلاء الأبناء والأحفاد بحق نعم الذرية الصالحة الوفية.

صفاته الشخصية

كان المرحوم عبدالعزيز العثمان - مثل رجال البحر الأشداء - ذا عزيمة قوية وإرادة صادقة، وقدرة على تحمل المشاق، وتعقل في أوقات الشدائد، وتواضع جم واحترام للصغير والكبير على السواء.

وقد أصبح من كبار النواخذة في الكويت، ومن أوفرهم جاهاً وصيتاً، ففرض احترامه على الجميع، وكان - رحمه الله - كريماً ذا سمعة طيبة وأخلاق حسنة وكان متواضعاً، لا يمدح نفسه ولا يتفاخر بنجاحه في أعماله، وقد اكتسب هذه الصفات الحميدة من عمله في البحر، فأهل البحر هم أهل شهامة ورجولة، يقتحمون ظلماته ويخوضون غماره ويصارعون أمواجه، ويفنون أنفسهم من أجل سفينتهم كأنها حلالهم، وهم كذلك أهل أمانة وصدق وإصلاح، وسوف سيتبين لنا الكثير من الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها عند الحديث عنه في عمله البحري.

(١) وجاء: أي وقاية وحصن.

حرفته:

بعدما استعان والده المرحوم عبدالعزيز العثمان بابني أخته: عبداللطيف ومحمد، وجهزهما بالسفن والمال للتجارة والسفر، وأصبحا بعد ذلك من نواخذة الكويت المعروفين، التحق معهما عبدالله وعبدالوهاب ابنا خالهما عبدالعزيز، فقد اقتحم عبدالوهاب مجال العمل مبكراً في السادسة عشرة من عمره، بعد أن أدرك بحسه الإيماني أن الإسلام دين العمل، وأن الله جل وعلا استخلفنا في الأرض لنعمرها ونصلحها، قال رسول الله ﷺ "إِنَّ قَامَتُ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ" رواه أحمد بن حنبل.

كما أن رسل الله جميعاً كانوا يعملون ويأكلون من عمل أيديهم، مما يؤكد مكانة العمل ومنزلته السامية في كل الأديان والشرائع السماوية. ولذلك أبي - رحمه الله - أن يكون عالة على غيره أو أن يأكل من كد سواه، وأصر على أن يعتمد على نفسه.

فحين قوي ساعده واشتد عوده ركب البحر مع النوخذة محمد سليمان العثمان سنة واحدة، ثم رافق النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان أربع سنوات في يوم العثمان المعروف باسم "تيسير" والذي تعلم فيه أصول الملاحة وقيادة السفن الشراعية.

وفي عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) وعندما أتم - رحمه الله - الواحدة والعشرين من عمره أصبح نوخذة مستقلاً حيث تسلم قيادة السفينة "تيسير"، وظل قائداً لها إحدى عشرة سنة كاملة، وقد أبحر بهذه السفينة إلى معظم موانئ ساحل الهند الغربي، مما جعلها من أشهر خشب الكويت، وقد كانت تلك السنوات الإحدى عشرة شاهدة على التآلف الكبير بين الفرس والفرس: بين اليوم المشهور في تاريخ الكويت "تيسير" وبين نوخذاه المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، فكلاهما كان سبباً لنجاح الآخر.

معلموه

إنها زاوية جديدة ... تلك التي ننظر من خلالها إلى شخصية المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان، إنها زاوية معلميه الذين من خلال استعراض نبذة مختصرة عنهم تتبين لنا الخلفية التعليمية للمرحوم عبدالوهاب.

فلنستعرض ما تيسر عن معلميه فيما يلي من واقع ما كتبناه عنهم في كتابنا "موسوعة مربون من بلدي"^(١):

الشيخ يوسف بن سليمان بن حمود

ولد المربي الفاضل الشيخ يوسف بن سليمان بن حمود في الكويت، حوالي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) لأسرة تعود أصولها إلى قبيلة "عنزة" التي تنتشر في الجزيرة العربية.

نشأ المربي الفاضل في رعاية والده "النوخذة" سليمان الذي كان يعمل في الغوص على اللؤلؤ، شأنه في ذلك شأن جُلّ أهل الكويت، الذين كانوا يرتزقون من هذه المهنة الشاقة.

غير أن هذه المهنة لم تصرف الوالد المكافح عن التنبه إلى مكانة العلم، وأهمية الثقافة والفكر، ومطالعة الكتب واقتنائها، في وقت كان فيه الاحتفال بهذه الأمور محفوفاً بالصعوبات والعوائق، مما كان له أعمق الأثر في وجدان فلذة كبده يوسف، وفي تحول حياة هذا الشاب وميوله ليكون أحد المربين من بلدي.

لقد أراد الفتى اليافع أن يقف إلى جانب والده، مساعداً له في مهنته، فراح يغوص معه على اللؤلؤ، ويقوم ببعض الأسفار في البحر طلباً للرزق، ولكن الوالد أشفق على فتاه فراح يدفعه إلى طلب العلم دفعاً، ويحثه بكل ما أوتي من أدوات متوفرة لديه، ليبحر في مراكب العلم بدلاً من مراكب الصيد.

ولقد تلقى المربي الفاضل العلم في كتاتيب الكويت عن شيوخها، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وقليلاً من الحساب، كما حفظ القرآن الكريم.

(١) ص ١٤٤ - ١٤٥، ص ٢٨٢ - ٢٨٣، ص ٥٦٨ - ٥٦٩.

وما لبث الشيخ يوسف أن رحل إلى مصر ليتابع تحصيله العلمي في الأزهر الشريف لدى كبار العلماء فيه، ثم عاد إلى أرض الوطن ليتلقى مزيداً من الفكر عن أبرز شيوخ الكويت وعلمائها الأفاضل من أمثال الشيوخ: مساعد العازمي، وعبدالله بن خلف الدحيان، وأحمد بن محمد الفارسي، حيث أخذ عنهم علم الفقه على مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، وعلمي النحو والعروض، وسوى ذلك من العلوم والفنون.

وبعد أن استوى عوده ونضج فؤاده، انخرط في مسيرة نشر العلم والثقافة إلى جانب زملائه المرابين - طيب الله ثراهم - فالتحق بالمدرسة المباركية عند افتتاحها في عام ١٣٣٠هـ (١٩١١م)، وظل يدرس فيها ثلاث سنوات، معطياً تلاميذه عصارة علمه وأخلاقه، ثم أسندت إليه مهمة إدارتها عام ١٣٣٤هـ (١٩١٥م)، فأعطى مَنْ حوله خبرته وحكمته، فكان نعم المدرس والمدير والخبير.

وعندما افتتح صديقه الشيخ جمعة الجودر مدرسة خاصة، انتدبه للتدريس فيها، فدرّس القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل بعد ذلك إلى حي القبلة، ليتخذ من بيت موقوف على مسجد العثمان سكناً له ومدرسة، يعلم فيها كتاب الله وشريعته على المذهب الذي تلقاه عن شيخه مساعد العازمي، وهو مذهب الإمام مالك.

كان الشيخ يوسف بن حمود - رحمه الله - معلماً قديراً، وأباً رحيماً، فأحبه تلاميذه، وتحلّقوا حوله ينهلون من علمه وأخلاقه الرفيعة، ليكونوا خير خلف لخير سلف، وكان من أبرز تلاميذه الأساتذة الأفاضل: أحمد بن نامي، ومبارك الهران، وحمود الوقيان، والشيخ محمد بن سليمان الجراح.

لقد تميز المربي الفاضل بأخلاقه السمحة وخصاله الشريفة، فقد زهد في الدنيا وتعلق بالآخرة، وترسم خطأ أولياء الله الصالحين الطائعين، الداعين إلى وحدانيته ومحكم تنزيله، فأحبه خلق كثير وأقبلوا عليه، فلم يرُدّ طالب علم أو صاحب حاجة.

وكان محباً للفقراء عطوفاً على المساكين والمحتاجين، يسعى إلى مساعدتهم ويجمع لهم الأموال من التجار لشراء الطعام والكساء، من دون أذى أو منة أو انتظار مقابل، إلا ثواب الله، عز وجل، وابتغاء مرضاته.

وفوق هذا وذلك، كان المرابي الفاضل الشيخ يوسف بن حمود - رحمه الله - حريصاً على الصلاة في المسجد، ولا سيما صلاة الفجر، وكان يجلس في المسجد بعدها يذكر الله - سبحانه وتعالى - ثم يؤدي صلاة الضحى، ثم يقفُّ راجعاً إلى بيته، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم. كان هذا دأبه طوال حياته وفي أخريات أيامه، طيباً، تقياً صالحاً، ورعاً، وفيماً لأهله وأصدقائه، وقد اغتم بعد وفاة شيخه عبدالله الخلف الدحيان، وفقد برحيله مجالس العلم والنقاش والبحث، فاعتزل الناس.

وشاءت إرادة الله أن يصاب بمرض ظل ملازماً له حتى أسلم روحه الطاهرة إلى بارئها سنة ١٣٦٥هـ - (١٩٤٦م).

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته

الملا سعد ملا راشد محمد الشرهان

ولد المربي الفاضل الملا سعد ملا راشد محمد الشرهان في منطقة القبلة بالكويت، عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م).

نشأ في بيت من بيوت العلم والتربية والتعليم، فقد كان أبوه مربياً، وكذلك كان عماء: الملا عبدالله محمد الشرهان، والملا عبدالمحسن محمد الشرهان، وقد تلقى تعليمه عنهم جميعاً، حيث درس القرآن الكريم والحساب واللغة العربية.

وبعد أن أنهى تعليمه خَلفَ والده، وافتتح مدرسة خاصة سُمِّيَت باسمه، هي مدرسة الملا سعد الشرهان، وقد عاونه في التدريس - آنذاك - أخوه الملا عثمان راشد الشرهان، وابن أخيه الملا عبدالمحسن عثمان راشد الشرهان، وكان الملا عبدالمحسن قد درس لدى الشيخ عبدالعزيز حمادة، والشيخ عطية الأثري، والشيخ يوسف بن حمود، ثم في المعهد الديني الذي أنشأته حكومة الكويت في عهد الشيخ سالم الصباح - رحمه الله - وكان يديره في ذلك الوقت عبدالله المزيد الخالد، رحمه الله.

كان أول مقر لمدرسة الملا سعد الشرهان في بيت الشرهان بمنطقة القبلة، وذلك في عهد الشيخ مبارك الصباح، رحمه الله، ثم انتقلت المدرسة بعد ذلك إلى محل في سوق التجار، ولم يكن هذا الموقع ملائماً للمدرسة، فأمر الشيخ سالم المبارك بتخصيص موقع جديد لها أمام قصر السيف.

كانت مواعيد الدراسة كما هو الحال في جميع المدارس الأهلية أو الكتاتيب فترتين: صباحية تمتد حتى أذان الظهر، ومسائية من بعد صلاة العصر إلى ما قبل أذان المغرب، وكانت الدراسة يومياً طول العام، ما عدا الأعياد وعطلة الربيع.

أما المصروفات الدراسية، فكانت تتمثل في نحو أربع آنات، يدفعها الدارس كل يوم خميس، وهو ما يسمى بالخميسية، وكان عدد الطلاب نحو ثمانين طالباً.

وقد استمرت مدرسة الشرهان في أداء رسالتها حتى افتتحت المدرسة المباركية، تلك المدرسة الرائدة التي جذبت أبناء الكويت أكثر من أي مدرسة أخرى.

قضى المربي الفاضل حياته في تعلم الدين وتعليمه في المدارس وفي مسجد الشرهان بالقبلة، حيث كان إماماً له.

كان - رحمه الله - هادئ الطبع، وقوراً، كريماً، محباً للخير في كل الوجوه. وقد انتقل إلى جوار ربه عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م).

رحمه الله رحمة وسعة، وأسكنه فسيح جناته، جزاء ما قدم لبني وطنه في مجالات التربية والتعليم.

الأستاذ سيد هاشم الحنيان

ولد المربي الفاضل الأستاذ سيد هاشم بن سيد عبدالوهاب الحنيان في الكويت عام ١٨٨٠م، ونشأ في أسرة متعلمة، وكان أبوه الشيخ عبدالوهاب الحنيان رجل علم وفضل، فأنشأ مدرسة أهلية لتعليم القرآن الكريم والخط في فريج الزبن (منطقة القبلة)، قبل أن تظهر المدرسة المباركية.

أخذ الأستاذ سيد هاشم عن والده وعلماء عصره، ولما توفي أبوه الشيخ عبدالوهاب، حل محله في المدرسة، لمواصلة رسالة التعليم ونشره بين أبناء وطنه.

تتلمذ عليه الكثير من أبناء الكويت، من أبناء منطقتي: "القبلة" و"الشرق". وكان من أبرز تلاميذه: سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، والأستاذ أحمد البشر الرومي، وعبدالعزیز المساعيد، وجاسم الصقر، وعبدالله السمكة، وعبدالرحمن الغنيم.

انتقل الأستاذ سيد هاشم إلى البحرين. وفي عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٠م) عين مديراً لمدرسة الرفاع هناك، ومكث فيها حتى عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، ثم عاد بعدها إلى وطنه الكويت، ليواصل رسالته في التدريس ونشر العلم حتى عام ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م)، حيث أنهى خدماته ليأخذ قسطاً من الراحة، ولكنه لم يتوقف عن طلب العلم ونشره، بل واطب على مطالعته وقراءاته ومجالسه الخاصة.

كان - رحمه الله - يجيد الرسم والخط العربي بأنواعه، ويقرض الشعر، وله كتاب في علم الفرائض شعراً. وكان هادئ الطبع، عذب الصوت، محباً لطلابه وللناس دقيقاً في مواعيده.

يعد المربي الأستاذ سيد هاشم الحنيان أحد أبرز المربين الأوائل في الكويت، الذين أسهموا في نشر العلم من خلال مدرسته الأهلية في أوائل الثلاثينيات، أو المدارس النظامية كالمدرسة المباركية والأحمدية والقبليّة في الأربعينيات.

توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م)، وقد سميت إحدى المدارس الابتدائية في محافظة الجهراء باسمه، عرفاناً بجميله.

تغمده الله بوافر رحمته، وأسكنه فسيح جناته.

رحلاته

ركب الشاب عبدالوهاب مع النوخذة محمد العثمان في رحلة موسمية واحدة من الكويت إلى الهند ثم العكس، وفي الموسم التالي ركب مع النوخذة عبداللطيف العثمان في سفينة عبدالعزيز: البوم (تيسير).

وكان خلال هذه الرحلات الأربع مع النوخذة الكبير الحكيم عبداللطيف العثمان يتعلم منه كل ما يستطيع، وكان يدفعه إلى ذلك شوق كبير لتعلم أصول الملاحة وقيادة السفن لكي يقود سفينته بنفسه فيما بعد.

إن هذا الشوق الكبير عند هؤلاء الشباب في ذلك الوقت هو الذي يفسر بروز العديد من شباب الكويت ونجاحهم في قيادة السفن الشراعية عبر بحر العرب والمحيط الهندي مروراً بمياه الخليج العربي.

بعد أربع سنوات من التدريب المستمر على يد النوخذة عبداللطيف، وجد عبدالعزيز أن ابنه عبدالوهاب قد حصل على التدريب والخبرة الكافية لكي يتسلم قيادة إحدى سفنه ويصبح نوخذة، وفي عام ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م تسلم عبدالوهاب العثمان قيادة سفينة والده (تيسير)، وعمره لا يزيد على الواحدة والعشرين، وتحت إمرته أربعون بحاراً من خيرة شباب الكويت، وبحوزته أموال كثيرة لرجالها.

كانت رحلته الأولى هذه امتداداً لرحلات النواخذة من قبل. فبعد أن أبحر من الكويت ووصل إلى شط العرب شحن السفينة (تيسير) بحوالي ٤٠٠٠ منّ من التمر، وعند مدخل الشط رسا بسفينته ينتظر رياح الشمال لكي تدفعه جنوباً على طول الساحل الشرقي للخليج وموانئ ساحل الهند الغربي مثل كراچي وبور بندر وبراوة وبومباي.

وبعد أن باع حمولته من التمر في هذه الموانئ استمر في المسير جنوباً على طول الساحل الغربي للهند حتى بندر كاليكوت، وهناك تم شحن السفينة بالأخشاب والحبال والصبار وغيرها من اللوازم وأبحر في طريقه إلى الكويت عبر بحر العرب، ولعله كان تحدياً كبيراً للنوخذة عبدالوهاب العثمان آنذاك عبور (غبة) بحر العرب حيث السماء فوقهم والبحر حولهم لمدة ١٤ يوماً حتى نتخ^(١) ساحل عمان (رأس الحد) ورسا بسفينته في بندر مطرح العماني، وقام بإرسال برقية إلى والده يخبره فيها بوصوله إلى عمان بسلام، وكانت فرحة والده عبدالعزيز بهذه البرقية كبيرة بالطبع.

(١) نتخ: وصل إلى البر بعد رحلة بحرية.

قام النوخذة عبدالوهاب بعد ذلك بالإبحار إلى الكويت عبر مياه الخليج حتى وصل إلى بندر الشويخ سالماً وأنزل بضاعته، وانتشر خبر وصوله في المدينة وعرف الناس أن عبدالوهاب العثمان أصبح نوخذة من نوخذة السفر الشراعي الكويتيين.

كانت رحلات النوخذة عبدالوهاب استمراراً لرحلاته السابقة مع النوخذة محمد العثمان، والنوخذة عبداللطيف العثمان وبالطريقة الحكيمة نفسها، إذ لا عناد ولا مكابرة ولا إجهاد للسفينة ولا لبحارتها. ففي الليل يرفع شراعاً واحداً حتى لا ينهك البحارة ويستطيع بعضهم النوم بضع ساعات. لمواصلة العمل في اليوم التالي.

وفي هذا - لعمرى - الاستثمار الذكي للطاقات البشرية الموجودة معه على ظهر السفينة، فإن أساء استخدامها ليلاً، ظهرت الآثار السلبية على أدائها نهاراً بشكل لا إرادي. والأهم أن في ذلك مراعاة للجانب الإنساني - فضلاً عن الجانب الديني - في هذا المجال.

ولهذا كان النوخذة عبدالوهاب - رحمه الله - يفخر بعد أن ترك قيادة السفينة ويشكر الله لأنه لم يحدث أن تمزق له شراع أو انكسر له فرمن (عارضة) خلال رحلاته في البوم (تيسير) طيلة إحدى عشرة سنة متصلة. وكانت رحلاته هذه جميعها إلى الهند، وكان يكتفي بسفرة واحدة (مطراش واحد) في الموسم الواحد، ولم يكن على عجلة من أمره أو ممن يستعجلون رزقهم.

إنها طريقة نوخذة العثمان الذين اشتهروا بها وأصبحت معروفة عنهم، وهي قيادة السفن الشراعية بطريقة حكيمة، والاعتراف بالفضل لبحارتهم الذين كانوا - حسب وصف النوخذة عبدالوهاب لهم - (أهل نمة وأمانة وصلاح وصدق).

كما عرف عنه الإلتزام بقانون السفر^(١) والأعراف البحرية المتعارف عليها، فكما كان يأخذ كان يعطي أولاً، علماً بأن قانون السفر كان ينظم كل صغيرة وكبيرة من شؤون السفر الشراعي قبل السفر وخلال له وبعده، براً وبحراً.

(١) صدر قانون السفر في الثامن والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٥٩هـ الموافق الرابع من يونيو عام ١٩٤٠م، في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح - رحمه الله.

بضاعة فريدة

ورغم أنه ليس في الإمكان وصف جميع الرحلات البحرية التي قام بها النوخذة عبدالوهاب، لكن في إحدى هذه الرحلات (عام ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) أبحر من البصرة وعلى سطح السفينة (تيسير) ١٨ جواً عربياً في طريقها إلى الهند (لكي تستخدم للسباق هناك)، وقد بقيت واقفة على سطح السفينة طوال الرحلة، وكان البحارة يعتنون بها حتى وصلت سالمة، ولم يكن من السهل نقل هذه البضاعة على ظهر سفينة شراعية.

رعاية الله له

كانت رحلاته - رحمه الله - تحظى بالكثير من التوفيق والعناية الإلهية. ومن عجيب ما يروى عنه في ذلك ما رواه د. يعقوب يوسف الحجي^(١) الباحث في التراث البحري الكويتي في كتابه "نواخذة السفر الشراعي في الكويت والخليج العربي" قائلاً:

"ذكر لي النوخذة عبدالوهاب أنه تعرض مرة لعاصفة بالقرب من ساحل فارس، فأمر بإنزال الأشرعة وجعل السفينة "تيسير" تحت رحمة الرياح والأمواج "مدبرة"، ولما أتى عليهم صباح اليوم التالي كانوا بالقرب من جزيرة "أرزنة" بالقرب من دولة قطر، فمكثوا في البندر حتى تحسنت الظروف الجوية، ثم أبحروا عائدين إلى الكويت.

ويذكر أنه لم يحدث أن تمزق له شراع أو انكسر له "فرمن" أو صار للسفينة. . وليس في الإمكان وصف جميع الرحلات البحرية التي قام بها النوخذة عبدالوهاب، لكن في إحدى هذه الرحلات عام ١٣٥٧هـ - (١٩٣٨م) أبحر من البصرة وعلى سطح السفينة "تيسير" ١٨ جواً عربياً في طريقها إلى الهند - لاستخدامها في السباق هناك - ظلت واقفة على سطح السفينة طوال الرحلة".

وهذا يكشف عن الاقتدار والتمكن في تجهيز السفينة بما يحتاجها مثل هذا النوع من البضاعة الغربية على نواخذة البحر، فهي بضاعة حية متحركة متفاعلة مع الأحداث الجسام على ظهر السفينة كالأموج العاتية والرياح الشديدة.

(١) نواخذة السفر الشراعي في الكويت - الطبعة الثانية - دار الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت ١٩٩٣م -

حرصه على السبق والريادة

رغم أننا أكدنا أن الخط العام والملح الرئيس لشخصية النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، أنه لا يعاسر الظروف ولا يقارعها - وبالتالي لا يجهد بحارته ولا سفينته - إلا أنه كان يقدر كل شيء بقدره، ويحسب كل موقف يتخذه بناء على الظرف الواقع في حينه.

والموقف هنا هو أن قدر الله تعالى ساقه في تزامن ليس مقصود مع سفينة لرجل شديد المراس في البحر، وقد اشتهر بولعه بالبحر وحبه للريادة فيه، ما يعرفه الصغير والكبير من أهل البحر في الكويت، ألا وهو النوخذة الكبير أحمد ناصر الخرافي الذي تجاوز حبه للبحر مسألة نقل البضائع وتحقيق الأرباح إلى السبق وكسر سجل الزمن في الوصول إلى الهدف.

فقد كان - رحمه الله - يسابق الظروف والزمن لتحقيق مبتغاه، لدرجة أنه يقيم نفسه والآخرين بمقدار إنجازهم في سفرهم البحري، ولقد حمل التاريخ لنا كلمات محفوظة عنه في هذا المجال.

ومن هذه الكلمات قولته حين رأى البوم المشهور "الداو" يسبقه قافلاً إلى الكويت، حيث ضرب على النيم^(١) برجله مخاطباً سفينة البوم "منصور" وهو يقول: "الداو ألقى^(٢) يا منصور.. الداو ألقى يا منصور" فهو يخاطب سفينته وكأنها بشر يسمع ويعقل!

وكان استقباله لأبنائه النواخذة بدر ومنصور وناصر متوقفاً في الإيجابية أو السلبية - حين يقفلون عائدين من أسفارهم - على مدى كونهم سابقين أو مسبوقين.

أقول: عندما رأى النوخذة الكبير عبدالوهاب العثمان نفسه في تنافس شريف وسباق غير مخطط له مع نوخذة صلب مثل أحمد الخرافي لم يتردد في أن يخرج عن طبيعته التي تكلمنا عنها آنفاً رغم أن أحمد قد سبقه أصلاً في الانطلاق من البحرين.

ولنستمع إلى النوخذة عبدالوهاب يروي قصته - أثناء عمله في البحر - مع صديقه النوخذة أحمد الخرافي، يقول: "كان النوخذة أحمد الخرافي - رحمه الله - مبحراً للكويت في سفينته "منصور" من ميناء المنامة قبل أن أبحر أنا بساعات.

(١) النيم: هو الجزء المرتفع عن السطح الرئيس للسفينة في الثلث الخلفي منها، وهو في العادة مكان جلوس النوخذة، وبقربه السكوني (قائد الدفة).

(٢) ألقى: سبق الآخرين، وبالتالي بان قفاه لمن خلفه، وتنطق القاف جيماً مصرية.

لكني لحقت به وسلمنا عليه بالقرب من رأس الزور، وحدث أن تغير اتجاه الهواء وماج البحر، فعزمت على أن "أطرح" حتى تهدأ الرياح، لكنني وجدت أن النوخذة أحمد الخرافي عازم على الإبحار في هذا الجو الصعب.

فخفت إن سبقني أن يعيرني، فقررت اللحاق به، وبعد جهد لحقت به وسبقته وطرحت في "المغيزير" في ظلام الليل "وشطنت" السفينة (أي رست وألقت مراسيها) وإذا بالنوخذة أحمد الخرافي يصل في سفينته.

فلما نزل عنها كان متأثراً وكان يصيح بمن استقبله قائلاً: "غلبني.. وهيب الكافر" (١) لكنه كان يمزح - رحمه الله" (٢).

وهذا الموقف يدل على مدى العلاقة القوية التي تربطهما.

تميزه ومهارته (يجده ... أبو الأربع قلايط)

أما مقدرة النوخذة عبدالوهاب على قيادة (تيسير) وهي محملة بالأخشاب والبضائع، وإدخالها ميناء المنامة في البحرين في ظلام الليل، فقد أصبحت حديث الكثيرين من أهل البحر (نواخذة وبحارة وأستادية)، نظراً لأن مداخل هذا الميناء تحيط بها الشعاب المرجانية (القصاصير والفسوت) التي بوسعها تحطيم أية سفينة تجرؤ على الاقتراب منها.

ففي إحدى رحلاته إلى المنامة حل عليه الظلام قبل وصوله إليها، وكان العرف الدارج بين نواخذة السفر هو التريث حتى ينسلخ النهار من الليل، فيدخلوا الميناء على ضوء الشمس ليساعدهم النظر المجرد والمباشر على اكتشاف القصاصير: الظاهر منها فوق سطح الماء، والمستتر ولكن قريباً من سطح الماء بما يكفي لشرخ السفينة ومن ثم غرقها.

(١) كان أهل نجد يستخدمون مصطلح "الكافر" للشخص الذي لا يسيطر عليه أحد لحركته وندراته، وليس المقصود أبداً المعنى الحرفي للكلمة، تماماً مثل قولنا اليوم للولد الشقي كثير الحركة "يا شيطان" ولا نقصد - البتة - المعنى الحرفي لها.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

غير أنه عزم على توظيف خبرته، فتحرى عمق الماء في كل حركة باتجاه الميناء باستخدام "البلد"^(١).

فأصدر تعليماته، ووقف على النيم يراقب البحارة وهم يقيسون عمق الماء (بيلدون)، خصوصاً وأن لديه طاقم ثلاثي جيد يشغل مهمة السكّوني^(٢)، وهم رجال أشداء في الجلد والدقة وهم: أحمد النشمي، وعبدالله خميس الخشتي، وحسين المانع^(٣)، وقد كانوا من أشهر سكّونية البوم "تيسير".

وقد ساد الموقف صمت مهيب لم يبده سوى صوت الأمواج وهي تسبق السفينة إلى ميناء المنامة، وكأنها تتحداها وتخاطبها بلسان حالها:

"ها أنا ذا أسبقك إلى ميناء المنامة متخطية هذه القصاصير وتلك الفشوت، فإن كان نواخذك حاذقاً فليتبعني إلى الميناء ولو في جناح الظلام، والموعد بيننا هناك في الميناء، لأتنازل له هناك عن وسام الريادة، الذي سيسجله في تاريخ رجال البحر".

وقد وجد النوخذة عبدالوهاب العثمان نفسه في تحد صامت لا مع هذه الأمواج، بل مع التخوف والشك في نجاح مهمة العبور بسلام ليلاً إلى الميناء، والذي أبداه على مضض أحد البحارة.

(١) البلد: هو ثقل معدني من الرصاص يستخدم لأي غرض يكون المطلوب فيه بلوغ قاع البحر، مثل قياس العمق أو اكتشاف طبيعة القاع: صخري أم طيني، ورغم كونه مجرد ثقل معدني من الرصاص مربوط بحبل طويل للغرض المذكور أعلاه، إلا أنه كان يستخدم لأمر مهم يكشفه الرادار والأجهزة الإلكترونية الدقيقة حالياً، ولم يكن ثمة رادار ولا أجهزة في ذلك الوقت، لذا كان النواخذة ينتدبون لحمل البلد أمهر البحارة، فعلى مهارتهم يتوقف نجاح المهمة. فإن كان سफراً عرف العمق قبل أن يصطدم بأي قصار أو فشت، وإن كانت المهمة غوصاً على اللؤلؤ عرف حامل البلد طبيعة الأرض التي تحته من حيث كونها صخرية أو طينية، وبالتالي مدى صلاحيتها لإلتقاط المحار (المحتوي على اللؤلؤ). وعلى سبيل المثال لا الحصر أسوق في هذا المقام أسماء ثلاثة من أمهر حاملي البلد الذين كان يضمهم نواخذة عائلة بورسلي صيفاً للعمل في سفنهم في موسم الغوص، ثم يضمهم نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان في بقية العام للعمل في سفنهم، وهم: يوسف سالم الطويل، ومرزوق العجيل، وأحمد بن عيسى، وذلك حسب رواية العم زيد فهد البدر.

(٢) السكوني: (بفتح السين وتشديدها وضم الكاف وتشديدها): هو قائد دفة السفينة.

(٣) حسب رواية العم عبدالله محمد سليمان العثمان.

وقد وقع هذا التحفظ من أحد البحارة ويُدعى "بو زَعُول"^(١) في أذن النوخذة عبدالوهاب، فلم يرد عليه قولاً، بل أخذ يرد عليه فعلاً، وهو عين الصواب في هذا الموقف الحرج.

فلن يزيده ريب السكوني إلا ريباً وتردداً، ولن يجديه نقاشه أمام بقية البحارة أو زجره إلا انفعالاً وارتباكاً. فاختر الخيار الأصعب، وأسرّها في نفسه ولم يبدها لهم، ومضى متوكلاً على الله تعالى إلى الميناء ليلاً.

ولم يكن ليضيره، أو يضر بسمعته لو انتظر إلى الصباح كما هو شأن سائر النواخذة الكويتيين وغيرهم. لقد تسلح بالإيمان واليقين، واستخدم التوكل مشفوعاً ببذل الأسباب حتى كان النجاح حليفه.

وعندما شعر بو زعول - بعد أن اتبع السكوني تعليمات النوخذة عبدالوهاب العثمان بحذافيرها - بجسامة الخطأ الذي ارتكبه من جهة، وضخامة الإنجاز الذي حصل أمامه من جهة أخرى ما كان منه إلا أن قفز من مكانه وصاح مخاطباً البحارة - وقد استحمياً أن يوجه كلامه إلى النوخذة - قائلاً: "نعم ... يجده"^(٢) أبو الأربع قلايط^(٣).

وتفسير هذه الكلمة التي قالها بعفوية باللهجة الكويتية العامية هو أنه كفاء ومستحق لنصيبه المتعارف عليه بين أهل البحر للنوخذة وهو أربعة أسهم.

يقول الباحث د. يعقوب الحجى في كتابه "نواخذة السفر الشراعي في الكويت" معقّباً على هذا الموقف حين استعرضه باختصار شديد: "ولم يحفظ لنا تاريخ الكويت البحري نوخذة يدخل ميناء المنامة ليلاً بجانب النوخذة عبدالوهاب العثمان إلا النوخذة على ناصر النجدي الذي ذكر القبطان آلن فاليرز في كتابه (أبناء السندباد) أنه أدخل سفينته (بيان) المنامة ليلاً.

(١) كان هذا لقب وليس الإسم الحقيقي، وكثيراً ما كانت الألقاب طاغية على الأسماء الحقيقية سواءً في الكويت أو سائر بلدان نجد، ولعل صاحبه كان كثير الزعل والتذمر بدليل تملله وتخوفه وانعكاس ذلك التخوف إلى سلوك عملي يبدو في الزعل والغضب وكثرة القلق.

(٢) تلفظ جيما مصرية (بين الجيم والقاف)

(٣) القلاطة (وجمعها: قلايط) هي السهم، وقد تعارف أهل البحر على إخراج تكلفة السفينة والطعام وسائر المصروفات من أرباح السفينة، ثم قسمة حاصل الربح الباقي على مجموع عدد الأسهم المخصصة لكل فرد بحيث تعرف قيمة القلاطة (أي السهم).

وحيث لم يستطع النوخذة منصور الخارجي دخول المنامة ليلاً وهو يقود البوم (موافج)، عاد به إلى الكويت، عندها حث التاجر عبدالعزيز العثمان ولده عبدالوهاب على الإبحار بهذه السفينة حالاً إلى المنامة قائلاً له "ما للصلايب إلا أهلها".

ومع أن النوخذة عبدالوهاب كان متعباً بسبب المرض، إلا أنه قادها إلى المنامة وعاد بالباخرة".

لقد اعتمدت هذه الرحلات على رصيد ضخم من التجربة والمهارة فانعكس زيادة وعمقاً مع مرور الزمن حتى أصبح تراكم هذه الخبرات سمة أدت إلى المزيد من العطاء.

أما حكاية "الأربع قلايط" وهي الأسهم الأربعة التي يستحقها النوخذة عن توزيع حاصل (صافي أرباح) السفينة - وهي التي استحققتها النوخذة عبدالوهاب العثمان بجدارة - فمأخوذة من المادة التاسعة من قانون السفر، الصادر في الثامن والعشرين من ربيع الثاني عام ١٣٥٩هـ الموافق ٤ جون (يونيو) عام ١٩٤٠م، بتوقيع كل من الشيخ عبدالله السالم الصباح رئيس مجلس الشورى، وحاكم الكويت الشيخ أحمد الجابر الصباح، والمكون من إحدى وستين مادة تنظم شؤون السفر كلها، بشكل شمولي متكامل.

وتنص المادة التاسعة من هذا القانون على ما يلي:

"بعد معرفة مجموع حاصل السفينة تخرج منها مبالغ قيمة المأكل ومصاريف البنادر أي المطرحانية"^(١) وغيرها وأجرة التعلوم^(٢) والباقي بعد ذلك يقسم نصفين: أحدهما للسفينة والثاني للبحرية يقسم على عددهم.

أما الزيادة التي تعطى للعاملين فمنها ما يكون على قسم السفينة ومنها ما هو على قسم البحرية. وتفصيل ذلك:

أولاً: زيادة أسهم نفرين من السكونية وزيادة أسهم النوخذة والمعلم والمعاون للنوخذة والبحار والمقدم (أي المجدمي) كل هذا على قسم السفينة.

(١) المطرحانية: هي الرسوم الجمركية التي يدفعها نوخذة السفينة للسلطان المسؤولة عن الميناء الذي ترسو به السفينة.

(٢) التعلوم: هي أجرة النوخذة المعلم، والمعلم هو ذلك الذي يعرف استخدام الأجهزة الفلكية التي يستهدي بها النوخذة طريقه إلى هدفه من خلال الاستعانة بمطالع النجوم ومجاريها.

ثانياً: سهم قارب النزول (الماشوة) والنهام والطباخ كل هذا علي قسم البحرية".
ويمكننا إذا ما طبقنا هذا النموذج تمثيل توزيع حاصل السفينة في الجدول التالي:

ملاحظات	المجموع	من نصيب البحارة	من نصيب صاحب السفينة	أسهمهم
				أفراد طاقم السفينة
بالإضافة إلى "التلوم" (٤٠٠ روبية) وهي أجرة المعلم إن لم يكن مع الطاقم وقام النوخذة بدوره الذي يتمثل في معرفة الحسابات الفلكية المتعلقة بمجرى السفينة	٤	١	٣	النوخذة
إن وجد	٢	١	١	نوخذة الشراع ^(١)
إن وجد	٢	١	١	معلم
لا يقصد بهذا الترتيب أي أفضلية لأي من الثلاثة على الآخرين	١.٥	١.٥	-	السكوني ^(٢) الأول
	١.٥	١.٥	-	السكوني الثاني
	١.٥	-	١.٥	السكوني الثالث
وتتراد إلى ٢.٥ حسب مكانته المهنية وتنافس النواخذة عليه	١.٥	١	٠.٥	الأستاذ (القلايف)
	٢	١	١	المجدمي ^(٣) العود
	١.٥	١.٥	-	المجدمي الصغير
	١.٥	١.٥	-	الطباخ
	١.٥ - ١.٢٥	١.٥ - ١.٢٥	-	النهام ^(٤)
إن وجد	١	١	-	المكبس ^(٥)
	١	١	-	البحار
	١	١	-	الماشوة ^(٦)

(١) نوخذة الشراع: هو مساعد النوخذة.

(٢) السكوني: هو ماسك الدفة ويعمل في العادة ثلاثة سكونية على نظام المناوبات.

(٣) المجدمي: هو رئيس البحارة.

(٤) النهام: منشد السفينة.

(٥) المكبس: ضارب العود.

(٦) الماشوة: هي قارب النجاة الصغير المثبت بالسفينة والمستخدم أيضاً في نقل البحارة والأمتعة الخفيفة من

السفينة إلى الميناء وبالعكس.

ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة إلى "الأربع قلايط" التي يستحقها النوخذة من حاصل السفينة قد تضاف إليها أجرة التعلم التي أشرنا إليها سابقاً إذا كان هو الذي يستخدم الأجهزة الفلكية للاستدلال على مجاري السفينة مثل "الديرة" و"الكمال".

بل إنه حين يكون النوخذة واثقاً من نفسه كامل القناعة بكفاءته فإنه يطلب أكثر من الأربع قلايط، بل يطلب نسبة مئوية من صاحب السفينة مهما كانت حسابات السفينة.

وللوقوف على مهارة النوخذة عبدالوهاب العثمان في دخول ميناء المنامة ليلاً وفهم الخلفية البحرية لهذه الكلمة "يجده أبو أربع قلايط"، نرى في الخريطة المرفقة دليلاً جلياً على ذلك، حيث تمثل الخطوط المتصلة — حدود اليابسة، بينما تمثل الخطوط المتعرجة حدود المياه الضحلة (صخور الفشوت والقصاصير) في مياه الخليج العربي، وتبين الأرقام أعماق المياه مقاسة بالمتر، وهنا نلاحظ العمق الكبير للمياه بعيداً عن ميناء المنامة، بينما يقل العمق بالتدرج كلما اقتربنا من الميناء حتى لا تجد سوى مدخلين ضيقين للسفن الشراعية القديمة، يحتاج اكتشافهما إلى مجهود كبير ومهارة عالية.

وقد قامت الحكومة البحرينية بالتعاون مع شركات الملاحة العالمية حديثاً بتعميق بعض القنوات البحرية كمجاري للسفن التجارية لتجد طريقها الآمن إلى ميناء المنامة من بين المياه الضحلة وصخور الفشوت والقصاصير.

وقد تم استقاء المعلومات الواردة في هذه الخريطة من أحدث الخرائط البحرية التي أصدرتها مؤسسة "British Admiralty Charts".

وقد أهدانا النوخذة الشاب غانم عبدالله غانم العثمان الجزء المتعلق منها بميناء المنامة.

الخريطة

المرجعية البحرية

ليس بغريب أن يتم توظيف الخبرة البحرية العريقة لنواخذة العثمان في المشكلات المهنية والاجتماعية التي تنطلق من المكانة الرفيعة التي احتلواها في قلوب الناس.

فهذا النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان يلجأ الناس إليه للفصل في منازعاتهم البحرية ويسمى بينهم "راعي السالفة"، وهذا المصطلح يطلق على الشخص الذي يخوله الحاكم أو الناس أو كلاهما للفصل في خلافاتهم الشخصية، وكذلك أعضاء لجنة التحكيم في المنازعات البحرية، والتي تُعيّن من الحاكم ويرتضيها المجتمع، وتأخذ في قوتها ونفاذها قوة الحكم القضائي.

وكذلك النوخذة عبدالوهاب العثمان كان مرجعاً لأهل البحر في خلافاتهم، وكان مكتبه في سوق التجار محطاً للنواخذة الكبار، الذين كانوا يزورونه جماعات وأفراداً، وكذلك ديوانه العامر في ضاحية عبدالله السالم ليتواصلوا معه كما اقتضت القيم الدينية والاجتماعية، وقد زاد حلاوة مجلسه كونه ذا حافظة قوية وذاكرة جيدة تؤرخ للماضي وتدخل كل معلومة مهمة في خانة معينة من الذاكرة، وكأنها أرشيف معلومات منظم بشكل عالٍ.

لذا كان النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - مرجعاً دقيقاً لتأريخ حركة السفر الشراعي وتفصيله، فقد عاصر كثيراً من الأحداث البحرية كبحار طوال أربع سنوات في صباه، ثم كنوخذة منذ بلغ العشرين من عمره، حتى آخر رحلاته الشراعية عام ١٩٣٦م وبعدها كذلك كان شاهداً دقيقاً على معظم رحلات الشراع الكويتية، حتى أصبحت مقولاته شهادات تاريخية تسهل تأريخ الأحداث في عهده.

وعادة ما تكون رواياته حاسمة لأي اختلاف في الروايات حول مسألة بحرية معينة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- ذكره أكبر "بغلة"^(١) في تاريخ البحر في الكويت والخليج، وقد كانت في إمارة "أم القيوين"، وحمولتها ١٢٠٠٠ من (٩٠٠طن).

(١) البغلة: نوع من السفن كان يستخدمه البحارة الكويتيون والخليجيون، طوروه فيما بعد إلى اليوم الذي كان أنسب للسفر من حيث الإنسيابية في الحركة، وبالتالي السرعة، وذلك في مطلع القرن العشرين، وتلفظ بتسكين الباء وفتح الغين واللام.

- ذكره طبعة "القندي" أحد أشهر بغلات الصقر، وسبب هذه الطبعة، علماً بأن الاسم الرسمي للقندي هو "فتح الباري".
- وصفه الحكيم للنوخذة جاسم محمد المبارك بأنه "نوخذة أُمي، لا يعرف القراءة والكتابة، وشوفه ضعيف، لكنه نوخذاً من أفضل النواخذة".
- وإذا أمعنا النظر في فهم هذه المفارقة العجيبة، لعرفنا أنه كان يملك قاعدة غزيرة من المعلومات عن كل ما يحتاجه النوخذة من ذخيرة معرفية بمطالع النجوم ودلالاتها على الاتجاهات، وكذلك ارتباطها بالأهوية والرياح قوة واتجاهاً.
- ويصحب هذا التفوق المعرفي مهارة عالية في سياسة البحارة وإرشاد السكوني (ماسك الدفة) إلى الاتجاه الصحيح.
- فيكفيه تسلمه قيادة البوم "الداو" وهو من أكبر وأشهر سفن الكويت لمدة ١٢ عاماً، وكان على متنها ٥٥ بحاراً وهذا عدد كبير جداً، إذا ما قيس بعدد البحارة في سائر السفن، ورغم هذه الضخامة كان يقود الداو في السنة الواحدة مرتين (طرشتين).
- ذكره أكبر سفينة من نوع البوم، صممها وصنعها أستاذ كويتي سواء داخل الكويت أو خارجها، وهو الأستاذ الكويتي المشهور صالح بن راشد. بمساعدة الأستاذ محمد الثويني على ساحل الملبار في مدينة كاليكوت الهندية حوالي عام ١٩١٨م.
- وقد دفع تكاليف صنعها التاجر البحريني عبدالرحمن الزباني، والذي قصد التوفير في صنعها في بندر كاليكوت المليء بالأخشاب بدلاً من نقلها إلى الكويت، والمليء كذلك بالعمالة الرخيصة والماهرة من قلايف هنود في هذا الميناء، وقد أسماها نور البر والبحر".
- ولكن يشاء الله أن تهب عليها عاصفة قوية وهي لا تزال راسية في بندر كاليكوت المكشوف فيدخلها الماء فتغرق في مكانها، وهي محملة بأطنان الأخشاب والحبال.
- روايته قصة صنع البوم "بن رشدان" أحد أشهر خشب الصقر بعد "الداو" وبيعه المتكرر لتجار الكويت لكونها سفينة مرغوبة، وكذلك وصفه الدقيق لبوم الصقر "الرطاوي" وقصة تسميته بهذا الاسم.

- روايته لقصة طريفة عن أهل الأحساء، حين باع التاجر الكويتي عبدالعزيز بن زين الكثير من النخيل التي كان يمتلكها في الأحساء، وأوصى أن تصنع له بسعرها سفينة أسماها "العكف"، وتبلغ حمولتها حوالي ٤٠٠٠ مَن (٣٠٠ طن)، فعاب عليه أهل الأحساء تلك البيعة للنخل بهذه السفينة قائلين: "اشعلمه بن زين، باع النخل وشري له بربوخة!".

- وروايته كذلك لقصة طريفة أخرى حين كان النوخذة صقر العبدالله الصقر يتأهب للانطلاق بالسفر من الكويت إلى الهند، فتأخر النهام (مطرب السفينة) المعروف فرحان بوهيلة عن الوصول مما أغضب النوخذا صقر العبدالله . وحين وصل آخر الأمر علم بغضب النوخذة صقر عليه، فلما ركب الجميع "الماشوة" وأخذ البحارة يجدفون باتجاه السفينة، صاح النهام فرحان بو هيلة (بنهمة) طويلة وعذبة مدح فيها النوخذة صقر العبدالله، فاختفى غضبه وقال معلقاً: "سلط الله عليك - يقصد فرحان بوهيلة - تحفر وتدفن".

- ولعله من المناسب أن نختم بموقف يستحق التقدير والإكبار، عندما كان يوظف الثقة الكبيرة التي كان يوليها إياه بقية النواخذة في حفظ أرواحهم وممتلكاتهم، هم وبحارتهم.

فقد حدث أن هم بمغادرة أحد موانئ الهند راجعاً إلى الكويت قبل نهاية الموسم ويسمى "غلاقُ الموسم" (بتسكين الغين والقاف) والذي تبدأ من بعده الأهوية العظيمة، التي أشرنا إلى أبرزها في موضع متقدم من هذا الكتاب.

فلما علم بأن النوخذة أحمد العميري قد تأخر، خشي عليه العنت والخطر، فأرسل إليه من يأمره أمراً أن يخرج من فوره عائداً إلى الكويت، رغم أنه لا سلطة عليه بشكل رسمي، فلا هو مالك السفينة ولا صاحب النول "البضاعة المحملة في السفينة"، وفعلاً امتثل النوخذة أحمد العميري لأمره لأنه يعلم وجاهته، ويدرك مغزاه، ولأنه هو وبحارته المستفيدون الأوائل من هذا الامتثال.

تواضعه

رغم كونه من أشهر النواخذة وأمهرهم في زمانه إلا أنه كان غاية في التواضع، يحترم الصغير والكبير على السواء، ويحظى الجميع بحبه وعنايته، ويتعلم منه الكثيرون.

وكان مما سمعته عنه أنه كان حين يريد إصدار أمر معين تقتضيه مجاري السفر يقف على "النيم" وهو المكان المخصص للنواخذة، وينتظر حتى فراغهم مما هم فيه من عمل أو نهמתهم (أغانيهم البحرية) المصاحبة لأي إجراء بحري، وعندها ينتبهون على الفور إلى أنه سيصدر لهم توجيهاً (أمارية - بفتح الميم وتشديدها) فيقبلون عليه لسماع التوجيه دون أن يلجأ لمقاطعتهم.

ومن المواقف والكلمات المشهورة عنه في هذه الصدد أنه كان ضيفاً على التاجر عبدالله المنصور أبا الخير، وهو من تجار البصرة المعروفين، الذين يحتك بهم النواخذة الكويتيون لدى وقوفهم في شط العرب لتحميل التمور، فامتدح عبدالله المنصور النواخذة الكويتيين، وذكر منهم على وجه التحديد فلاح الخرافي وأحمد الخرافي ووالده عبدالعزيز العثمان. فما كان منه إلا أن قال له كلمة قيمة في هذا الباب:

"نعم ... وإحنا حافظنا على خيرهم".

ورغم كونه قد بلغ من ركوب البحر وخبرته مبلغاً عظيماً لا يقل عن هؤلاء، بدليل سبقه للنواخذة أحمد الخرافي في إحدى رحلات العودة في يوم عاصف من البحرين إلى الكويت - كما أسلفنا سابقاً في هذا الكتاب - إلا أنه لم يتجاوز ذلك الجيل، واعتبر نفسه امتداداً لهم، بل اعتبر أن كل الذي فعله هو تكملة المسيرة.

إن في ذلك مدافعة للأثرة وحظ النفس التي جُبل الإنسان عليها، ولا غرابة في أن نراها في الأغلبية الساحقة من بنى البشر، وهي مرانه على مقاومة حب الذات والذوبان في ذات الآخرين في المنظومة المثلى بين الفرد والجماعية.

وعندما كان يزوره الباحث في التراث البحري الكويتي د. يعقوب يوسف جاسم الحجي ليستفسر منه عن البحر ورجالاته، يقول دائماً في البداية "أسأل العسعوسي" (1) ... يمكن هو أفضل من يجيبك عن أسئلتك"، رغم أنه يستطيع الإجابة وباقتدار عن كل الأسئلة المتعلقة

(1) يقصد النواخذة حسين عبدالرحمن "العسعوسي".

بالسفر الشراعي، لكونه قد مارسه حق الممارسة، ولما يتمتع به من دقة وحافضة قوية يتذكر فيها التفاصيل.

ولما أبلغه د. يعقوب يوسف الحجى أنه جلس إلى النوخذة العسوسى وأخذ منه بغيته، وأنه بصدد الجلوس إلى سائر النواخذة الموجودين على قيد الحياة - أطال الله أعمارهم وأحسن ختامهم - اقتنع النوخذة عبدالوهاب وقال: "اسأل ... اسأل ما بدا لك". هكذا دون تحفظ أو حرج وبأريحية تامة، رغم فارق السن والخبرة بينهما.

ومن مظاهر هذا التواضع تقريبه للنواخذة - الذين كان يعتمد عليهم في رحلات سفنه - من مجلسه وإظهار المودة والتقدير لهم، وقد دخل المرحوم عثمان عبدالوهاب العثمان على والده النوخذة عبدالوهاب في ديوانه العامر وبصحبتة النوخذة عبدالله إبراهيم إسماعيل، وهو يضحك، فسألاه: "يا عثمان، ما الذي يضحكك".

فقال: "سألت أخي الأصغر وهو ينصرف من الديوان وأنا داخل إليه: من الذي يصحب الوالد الآن في الديوان؟ فرد الأخ الأصغر - وهو لا يعرف اسم النوخذة الذي يجلس بصحبة والده النوخذة عبدالوهاب: "هذا النوخذة اللّي يحبه أبوي" أي: هذا هو النوخذة الذي يحبه والدي".

فزعته

دعنا عزيزي القارئ نلقي الضوء على مفهوم كلمة الفزعة عند أهل الكويت، وخصوصاً فيما يتعلق بالبحر.

الفزعة:

(بفتح الفاء وتسكين الزاي) هي جهد تطوعي قوي سريع يبادر به الجميع لإسعاف المصاب سواء أكان صاحب سفينة مصابة أو غارقة، أو أي امرئ داهمه خطب يحتاج إلى جهد جماعي لمساعدته في تخفيف آثار مصيبته.

وكم حمل تاريخ الكويت من "فزعات" يسر لها خاطر، ويغاث فيها المنكوب بل كان التعويض في كثير من الحالات أكثر من المصاب، فسبحان الله العظيم الذي أوجد في أهل الكويت نظاماً عفويّاً للتأمين والضمان الاجتماعي التكافلي قبل إنشاء أي نظام رسمي وإجباري في الوقت نفسه للتأمينات الاجتماعية.

كيف لا وقد استمدوه من تراثهم الإسلامي العظيم الذي يقول فيه الرسول ﷺ: "إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا^(١) فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ" متفق عليه.

وهم من قبل ذلك متمثلون قول الله تعالى في كتابه الكريم "... وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَنَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)" سورة الحشر.

ومن اللطيف بل العجيب أن تعبير الفزعة قد اشتق من الفزح رغم كونه عملية اختيارية واجتهادية محضة إلا أن صاحبه يستشعر عظم المسؤولية والالتزام الأدبي والمادي تجاه الآخرين في هذا المجتمع التكافلي، فقد نهض وقد أفزعه الخطب الذي ألمّ بغيره وكأنه ألم به هو، والفزح هو شعور يحس به المرء حين يحرق به الخطر.

فالحمد لله رب العالمين، وأسأله سبحانه أن تستمر جذوة الخير في المجتمع الكويتي وأن يستفيد أبنائه من هذه المواقف المشرفة.

(١) أرملا: أي فرغ زأدهم، أوقارب الفراغ.

أما محل الشاهد في حديثنا هنا عن فزعتة لأهل الكويت في مصابهم، فيتمثل في ذكر فزعة أهل الكويت لليوم "ولد مبارك"، حين أصطدم بفشت "اليارم" عند مدخل ميناء المنامة المشهور بكثرة "قصاصيره" و"شعابه المرجانية"، حين كان يقوده النوخذة علي المبارك.

وقد شارك النوخذة عبدالوهاب العثمان في هذه الفزعة، مع لفيف من تجار ونواخذة الكويت، الذين أهاب بهم التاجر محمد الثنيان الغانم لإصلاح اليوم في البحرين، فسافر إلى هناك، فتم المطلوب، والله الحمد والمنة .

معرفة بالرجال

استفاد النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان من مصاحبته لوالده وأقربائه في السفر والحضر، وخصوصاً عندما ركب معهم إلى الهند، وبالإضافة إلى سرعة اكتسابه لما يرى ويسمع، فهو يستفيد أيضاً من النقاش والحوار عندما كان يخاطب أهل الكويت في ديوان والده أو دواوين أصدقاء والده ثم ديوانه العامر ودواوين أصدقائه، وفيما يلي مثالان متكاملان في تعلم معرفة الرجال وتقديرهم.

- كان النوخذة عبداللطيف محنكاً ذا خبرة في رجال البحر، ينزل الناس منازلهم حسب كفاءتهم وعملهم. وها هو يكلف النوخذة القدير عبدالله إبراهيم إسماعيل بقيادة سفينة "فتح الرحمن" وعمره حينئذ لم يتجاوز السادسة والعشرين.

وكان هذا اليوم وقتها وشار^(١)، فسأل النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان: "من حظيته بالوشار؟" أي من النوخذة الذي سلمته قيادة السفينة الجديدة فتح الرحمن؟

فقال عبداللطيف: "حظيت عبدالله" (أي عبدالله إبراهيم إسماعيل). فسأل عبدالوهاب: "البوم مو كبير على عبدالله؟" (باعتبار أنه لا يزال مبتدئاً في مجال التتوخذ). فرد عبداللطيف على الفور: "يا عبدالوهاب ... الرجال بعقولها مو بأجسامها".

فتقبل عبدالوهاب هذا الجواب واقتنع به وصدّقه الواقع، إذ كانت تكلفة هذا الوشار أي سفينة البوم "فتح الرحمن" أربعين ألف روبية، وكان حاصل الربح من هذه الرحلة أربعين ألف روبية أيضاً، ولما عاد وسلّم المصلحة باع النوخذة عبداللطيف هذه السفينة بسعر تكلفتها أي أربعين ألفاً، وكان هذا صافي الأرباح من سنة واحدة.

وطرشة (أي سفرة) واحدة هو أربعين ألف روبية وهو مبلغ كبير حينئذ.

كان هذا هو الموقف الأول الذي لم يكن فيه النوخذة عبدالوهاب العثمان يعرف النوخذة عبدالله إسماعيل حق المعرفة، وفيما يلي موقف آخر له معه بعد أن عرفه جيداً.

(١) السفينة "الوشار" أي حديثة الصنع، وعكسها السفينة "العشار" أي القديمة المستهلكة.

- شهدت الكويت ركوداً اقتصادياً بعد كساد اللؤلؤ نتيجة لظهور اللؤلؤ الصناعي في اليابان، وكان من الطبيعي أن يتوقف السفر في أواسط الثلاثينيات، حتى إنهم باعوا سفن الغوص ليشتروا أو "يوشروا" (أي يصنعوا) سفناً للسفر.

وما هي إلا سنوات ويدور الزمان ويقدر الله نشوب الحرب العالمية الثانية التي كانت سبباً رئيساً في تعاضم الطلب على النقل الشراعي للبضائع التجارية والمؤن العسكرية؛ باعتبار أن جميع البواخر الإنجليزية مشغولة بالكامل في الأغراض العسكرية.

هذا بالإضافة إلى تأثير الحرب في انقطاع كثير من السلع وبالتالي ارتفاع أسعارها. وهذا كله أدى إلى انتعاش الحركة التجارية للسفن الشراعية.

فبعد فترة الكساد التي اضطر فيها كثير من البحارة إلى العمل في تكسير الصخر ونقل الرمل بأجرة زهيدة لم تتجاوز ست آتات لليوم الواحد ابتداءً من شروق الشمس إلى قبيل غروبها، أقول بعد هذا الكساد فتح الله تعالى على أهل البحر بانتعاش حركة النقل البحري من جديد.

وفي تلك الأثناء كان المرحوم النوخذة عبدالوهاب العثمان يفكر بتشغيل كافة سفنه بطاقة تشغيلية كاملة، وكان أول من فاتحه لقيادة سفينة النوخذة عبدالله إسماعيل، وكان من المفترض والمتوقع أن يتلقف النوخذة عبدالله هذا الطلب، حيث إنه شرف عظيم وشهادة كبير للنوخذة أن يختاره النوخذة عبدالوهاب العثمان قائداً لسفينته.

ولكن الجواب كان مختلفاً حين قال عبدالله: "يا بو عثمان أخاف أنا ما أصلح لك" وهنا توقف النوخذة عبدالوهاب قائلاً: "أفا^(١)... ليش يا ولدي ما تصلح لي؟"

فأوضح له النوخذة الشاب عبدالله إسماعيل شروطه، التي كانت تقضي بأن يكون له نصيب مفروض من حاصل السفينة، وليس أربع قلايط (أربعة أسهم) مثل سائر النواخذة، فوافق النوخذة عبدالوهاب قائلاً: "مو وايد عليك يا ولدي".

(١) أفا: تعبير عن التأسف أو اللوم في اللهجة الكويتية، ولعل أصل الكلمة: أسفي.

أي ليس كثيراً عليك يا بني أن تأخذ مثل هذا الأجر الكبير. فقد عرف أن رأس المال الحقيقي هو الرجل الكفاء الذي بدونه لا تتجح أكبر سفينة في تحقيق هدفها.

أما موقفه مع كاتبه النجدي علي السليمان - وهو من أهل السدير - فيدل على معرفة حصيفة بالرجال، وممارسة عفوية للتوجيه التربوي والتأثير النفسي الإيجابي، فقد حدثه أحد جلسائه ممتدحاً علي السليمان على الفور وبلا مجاملة: "يا بو فلان ... ترى علي السليمان ما يصلح لك؟!"، فلما سأله الرجل عن السبب، قال بشكل محدد وواضح: "علي السليمان ما يعرف الكذب، لذلك لا يصلح لك!"

ولم يمض يوم حتى مرَّ اختبار صعب عليه إلا أنه اجتازه بسهولة. فقد أتم النوخذة عبدالوهاب العثمان صفقة تجارية لبيع الغزل وهو نسيج، على أن يتسلمه الشاري فوراً، غير أنه لم يسلمه البتة، ولم ينقله من المخزن.

لذا طلب من علي السليمان أن يقول عكس الحقيقة وهي أنه نقل الغزل، فلم يتقبل علي السليمان ذلك، وقال له باللهجة النجدية: "لا تبلسني".

فلما قدم النوخذة إلى دكانه من صباح الغد، سأل عن مصير الغزل واستلامه، فارتبك ولم يشأ أن يعطيه جواباً خاطئاً ... فسكت حتى انشغل عبدالوهاب العثمان مع زبون آخر، فاتخذ سبيله سرياً، وكأنه ذهب ليقضي حاجته، وتشاغل حتى انصرف عبدالوهاب العثمان، لينجو من هذا الموقف المخرج، فلم يكذب، وقد انطبق عليه وصف النوخذة عبدالوهاب العثمان سلفاً في صدقه وأمانته.

وهذا يعزز معرفة النوخذة عبدالوهاب بالرجال عامة، ورجال البحر خاصة.

أما ما يلخص تقييمه لنواخذة السفر الشراعي فهو جوابه حين سأله سائل عن أفضل نواخذة السفر الشراعي في الكويت على عهده، فقال بدون تردد: "النوخذة أحمد الخرافي، والنوخذة أحمد الخشتي".

شفافيته وفراسته العجيبة

دعني - عزيزي القارئ - أبسط بين يديك في البداية بعض ما ورد في السنة النبوية الشريفة عن الشفافية التي يتميز بها المؤمن الصادق الجاد، فتنشأ معها فِرَاسَة قوية يميز بها صاحبها الناس والأشياء.

فقد أورد العلامة محمد عبدالرؤوف المناوي في شرحه "فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير أن رسول الله ﷺ قال: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ"^(١) رواه الترمذي.

كما أورد المفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي في "كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس" عن أبي نعيم بسند حسن عن أنس رفعه: "إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم"^{(٢)(٣)}.

وكم حمل التاريخ الإسلامي من أعاجيب عن أصحاب الفِرَاسَاتِ والتوسم، والقاسم المشترك بينهم هو الإيمان بالله تعالى والصدق في التعامل والشفافية في القول والعمل والجديّة في أخذ الأمور. وليس بعجيب قول الشافعي عن أصحاب الهمم العالية والإرادات السامية:

فإذا سمعت بأن مجدوداً^(٤) حوى عوداً فأثمر في يديه فصدق

ورغم أننا لم ندرك الحديث المباشر مع المرحوم النوخذة عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان إلا أننا أدركنا من أدركه، سواءً على مستوى النواخذة الذين خالطوه، أو على مستوى من جلسوا إليه للمقابلة والسؤال.

ولنسمع إلى النوخذة القدير عبدالله إبراهيم إسماعيل (العم بومشاري) وهو أحد النواخذة الذين احتكوا بالمرحوم عبدالوهاب العثمان، وتعاملوا معه عن قرب حين يتحدث عنه بكل وفاء وإعجاب ووصف دقيق. وفيما يلي نموذج من هذا الوصف الدقيق عن شخصية المرحوم عبدالوهاب:

(١) حديث رقم ١٥١، حسن ١٤٢، ج ١.

(٢) ص ٤٢ ج ١.

(٣) التوسم: الفِرَاسَة.

(٤) أي رجلاً جاداً.

لقد كان المرحوم عبدالوهاب العثمان من أفضل من عرفت من النواخذة، وهو يتسم بالجدية في العمل، والصدق في التعامل، ومن جديته ووضوحه الشديدين أنه لا يعرف المزاح، فلم يكن - رحمه الله - يمزح، ولا يحب المزاح من الآخرين، لأن وقته مشغول دائماً بالإبحار والعمل الجاد المستمر.

وعندما تجتمع الجدية والصدق في امرئ فإنهما ينشئان فراسة قوية، وقدراً من الشفافية يكفي لاكتشاف الصادق من الناس والكذاب، وله في هذا الباب حوادثٌ عجاب.

ذهب مرة - بصحبة عبدالرزاق الياقوت - إلى منطقة الثوامر في ساحل إيران المقارب لشط العرب لكي يتفقد سفينته وهي تحمل التمور من هناك إلى الهند وإفريقيا، وقد كان نوحذا السفينة هو عبدالله إبراهيم إسماعيل فسأله النوخذة عبدالوهاب عن تحميله التمر ومحاسبته تجار المنطقة عن صفقات التمور.

وقد كان لتجار التمور هناك وكلاء يمثل كل منهم وسيطاً لبيع التمر ويسمى "مختار"، فقال النوخذة عبدالله إسماعيل إبراهيم لصاحب السفينة النوخذة عبدالوهاب العثمان: "إنني أتعامل مع المختار حنظل، والمختار سليمان كوكيلين لبيع التمر لصالح التجار مقابل أجره محددة سلفاً من أولئك التجار، وقد قدر الله أن يكون المختار حنظل - أحد الوكيلين - موجوداً يومها على ظهر السفينة أو قربها خلال عملية التحميل، فلمحه المرحوم عبدالوهاب، وقد كانت هذه اللمحة العابرة هي أول مرة يلتقي فيها النوخذة عبدالوهاب بذلك المختار، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة"^(١).

ولكن - وسبحان الله العظيم - كانت هذه النظرة العابرة كافية بالنسبة للمرحوم عبدالوهاب لكي يتفرس في وجهه فيحذر منه مباشرة ويقول "اجتنب المختار حنظل فإنه كذاب"! هكذا وبكل ثقة وكأنه قد عرفه عن قرب، فلما سأله النوخذة عبدالله إسماعيل عن السبب رد - بكل ثقة - قائلاً: "عيونه تقول إنه حرامي .. ولا تتردد في تصديق كلامي .."، ثم قال "لا .. عبدالله أنت نوخذة ولازم تعرفه قبلي".

(١) أي دون أن يتكلم أحدهما بأي كلمة على وجه الإطلاق.

ولنتأمل هنا هذه اللفتة التربوية من النوخذة المربي الذي يعطي الثقة الكبيرة للنوخذة الشاب، ويشجعه على الجرأة واتخاذ القرار، وبالشعور بالمسؤولية والمبادرة إليها.

ثم يستأنف النوخذة عبدالله إسماعيل: "ذهبت لشأني فأخذت في تحميل التمر ومواصلة الاستعداد للرحيل، وذهبت ظهر الغد للمختار سليمان، الذي دعاني لتناول وجبة الغداء عنده، ودار الحديث بين الحاضرين عن أحوال أسواق التمر، فاشتكى أحد "الفلايح" (الفلاحين) للمختار سليمان: "الناس يشتكون من الشيخ حنظل"، فرد أحد الجالسين بطرف المجلس - دون أن يتنبه لوجودي ولعلاقتي التجارية المباشرة معه - قائلاً: "يا به ... الشيخ حنظل إذا ما حاسب الحق بيده، لأنه أساسه حرامي".

فقلت في نفسي: سبحان الله العظيم، الذي ألهم النوخذة عبدالوهاب العثمان فراسة عظيمة عرف بها الحرامي من نظرات عينيه، فلما عدنا إلى الكويت أبلغته بصدق فراسته، فرد على الفور - وكله مزيد من الثقة: "يا عبدالله ... هل كان عندك شك في ذلك؟"

ومن عجيب فراسته كذلك ما يرويه النوخذة عبدالله إبراهيم إسماعيل أيضاً من أنه شاهده بنفسه حين زاره النوخذة عبدالوهاب العثمان، وهو يستعد للرحيل من الكويت، في أحد "طرشاته" (سفراته) فسأله: "من الذي ضم هذا البحار؟" - مشيراً إلى أحد البحارة - فقال له النوخذة عبدالله: "لعله المجدمي فلان".

وكانت العادة في مواسم السفر أن يعهد إلى المجدمي - وهو بمثابة رئيس البحارة - أن ينتقي من يشاء ويرشح من يراه مناسباً لتكوين طاقم السفينة بحكم خبرته وسؤاله عن أحوال البحارة ومهارتهم.

فقال النوخذة: "اتركوه... هذا ما يصلح لكم" ... هكذا وبدون مقدمات، فلم أتردد هذه المرة بقبول كلامه لأنه قد يرى ما لا أرى، ولكني استدركت قائلاً له: "ولكن يا بو عثمان ... أعطيناك السلف ولا يزال في ذمته لنا"، فقال "الله يعوظكم خير... اتركوه".

ويستأنف النوخذة عبدالله إسماعيل: فامتثلت الأمر، وبشكل طبيعي، ضم نواخذة آخرون هذا البحار لما عرض نفسه عليهم، وما هي إلا أيام وتوجهت السفن الكويتية إلى شط العرب لتحميل التمور تمهيداً لنقلها - كالعادة - إلى سواحل الهند الغربية.

وسرعان ما وصلتنا أخبار ذلك البحار ومشاكله اليومية، وكانت المفاجأة لي بأن ذلك البحار كان شارباً للخمر، وكان يترك السفينة كل ليلة بعد انتهاء تحميل التمور، ويذهب إلى العشار ليعاقر الخمر هناك، وتحدث المشاكل بعد ذلك كل ليلة".

فسبحان الله العظيم!! لهذه الفراسة العظيمة التي ألهمها الله تعالى المرحوم النوخذة الكبير عبدالوهاب العثمان، فاكتشفها في ذلك الشاب قبل أن يعرفه عن قرب.

ولعل ثالث هذه المواقف وأطرفها، ما يدل على دقته وتركيزه ومعرفته لمن يراه من أول مرة، فقد كان والده المرحوم عبدالعزيز بن عثمان يخصص الزكاة سنوياً، ولكن الذي يقوم بتوزيعها أبناءه ومنهم عبدالوهاب، وكان بعض الرجال من ضعاف النفوس يذهب بعيداً فيغير هيئته أو بعض ملابسه، فيقف في الطابور من جديد ليأخذ الزكاة مرة ثانية!

ولكن ما كان لمثل هذا أن يفلت من دقة ملاحظة عبدالوهاب، فكان يمسكه من طرف ثوبه قائلاً له: " شوف ... مو تغير هدومك ... لو تصلح (تسلخ) جلدك أعرفك يا اللي ما تخاف الله!"

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن هذه الطريقة العفوية البسيطة لتوزيع الزكاة هي نواة طبيعية للعمل المؤسسي الذي ينطلق من الاستعداد الفطري لتنظيم العمل الذي يحقق مبدأ العدالة في التوزيع وتكافؤ الفرص بين المستفيدين من الخدمات أو المساعدات.

ومن الجميل أيضاً أن نرى محسنين من أهل الكويت في تلك الفترة الزمنية نفسها يستعينون بأسلوب منظم آخر حيث يجمعون الفقراء كلهم في المسجد بعد انتهاء صلاة الفريضة وخلو المسجد إلا من القادمين لأخذ الزكاة بحيث يستلم كل مستحق منهم زكاته في طريق خروجه من المسجد حيث لا يستطيع العودة إليه لأن جميع أبواب المسجد الأخرى موصدة.

ولو كنا في معرض تبيان الأعمال الخيرية الأخرى التي تعكس أصالة العمل الخيري بشكل مؤسسي في المجتمع الكويتي لاحتجنا إلى الشرح والتفصيل، وليس هنا موضعهما في هذا الكتاب.

النوخذة الكبير يلقي مرساته

لقد آن للنوخذة عبدالوهاب العثمان أن يلقي مرساته هو بعد أن امتحن المراسي وطاف الموانئ.

ترك النوخذة عبدالوهاب قيادة السفن بعد مسيرته البحرية الطويلة عام ١٣٦٢هـ الموافق ١٩٤٣م، لكنه استمر في تجارته، فكان يسافر بالطائرة إلى الهند، وكان حين يرى - من خلال النافذة - السفن الشراعية تحته وكأنها طيور بيضاء يعاوده الحنين إلى السفر والسفن.

يقول النوخذة عبدالوهاب: "لم أترك البحر لأنني أصبحت عاجزاً .. المصلحة زينة، والبحر مزال فيه خير، لكن ما في رجال بحارة.. طلع البترول وصار العمل في الكويت مريح، والبحارة ما يسافرون فما فائدة الخشب بدون بحارة؟ فتركنا البحر".

لكن النوخذة عبدالوهاب لم ينس أهل البحر، وكان يستقبل بعضهم في ديوانه العامر، وكان كلما تقدم به السن ازداد حكمةً ووقاراً .. حتى وفاته.

وكان النوخذة عبدالوهاب قد امتلك عدة سفن سيرها في النقل البحري الكويتي. منها واحدة من نوع البوم السفار، وضع في قيادتها قريبه النوخذة إبراهيم عبدالرحمن العثمان - وهو نوخذة آخر من نواخذة العثمان المقتدرين - لقاء حصة معينة من أرباح السفينة.

وكان النوخذة عبدالوهاب يتابع سير هذه السفينة من بندر إلى آخر على طول الساحل الهندي الغربي، وفي أول رحلة لها عبر المحيط الهندي إلى ساحل إفريقيا الشرقي، بقيادة النوخذة إبراهيم العثمان.

كذلك كان النوخذة عبدالوهاب يذهب إلى شط العرب في بداية الموسم لكي يؤمّن حمولة من التمر لسفنه وسفن العثمان الأخرى، وكان عمله هذا موقفاً نظراً للخبرة التجارية الطيبة التي اكتسبها على مر السنين ونظراً للأمانة والخوف من الله تعالى تحلى بهما النوخذة عبدالوهاب العثمان.

لقد ظلت سمعته طيبة بين بحارته وأقرانه من النواخذة، فالنوخذة صالح المهيني الذي ركب إحدى السفن التابعة للنوخذة عبدالوهاب (وهي البوم التوكلي) مزال يتذكر ثقة النوخذة عبدالوهاب المطلقة به ويقول: كان عبدالوهاب لا يرد لي طلباً، ويترك لي كامل الخيار في

تجهيز السفينة بالأشربة وغيرها، وكان لا ينزعج من المصاريف المترتبة على ذلك، لذا كانت رحلاتي في سفينته موفقة وخالية من الصعاب، إنه خَشَابٌ من الطراز الأول.

أما النوخذة عبدالله إسماعيل (من مواليد ١٩٢١) - الذي عمل كنوخذة في يوم فتح الرحمن الذي يملكه عبدالوهاب العثمان لمدة ست سنوات (من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥١م) - فيقول: "إن عبدالوهاب العثمان من النواخذة المعروفين في الكويت، وهو يمتاز بالحكمة والفراسة والحزم. وإن النوخذة الذي يعمل معه يشتهر ويعرف بين التجار والنواخذة".

ويتحدث عن كيفية اختياره لفتح الرحمن، فيقول إنه قد خضع لدراسة وافية لمدة عام كامل قبل أن يختاره عبدالوهاب العثمان.

ويضيف بأنه قد عمل كنوخذة في يوم يملكه عبدالعزيز الصقر سنة ١٩٥٠ بعد أن أجمع التجار على اختياره لأنهم يعلمون أن من يعمل مع عبدالوهاب العثمان لا بد أن يكون قد خضع لدراسة كافية واستفاد من خبرته في البحر والتجارة.

كما أن عبدالوهاب العثمان لا يبخل بشيء يتعلق باليوم أو بالبحارة أو أي شيء يطلبه النوخذة. ورغم الصلاحيات الواسعة التي يعطيها للنوخذة فإنه لا يبخل بالنصيحة والخبرة، ثم يترك اتخاذ القرار للنوخذة.

ولكنه شديد الحساب والمتابعة، كما أن عبدالوهاب العثمان - حسب وصف النوخذة عبدالله إسماعيل - له نظرة ثاقبة في معرفة الناس. فقد كان - رحمه الله - يحترم الناس الذين يستحقون الاحترام، بغض النظر عن فقرهم أو غناهم، أو نفوذهم.

وكان متواضعاً خاصة عندما يكون الحديث عن الأجداد والماضي، فلا يدعي بأنه قد فاقهم بالبحر وأصبح من كبار النواخذة - وهو كذلك بالفعل - ولكن كان يقول دائماً هم عملوا وعانوا ونحن حافظنا على ذلك.

كما قام بقيادة سفينة النوخذة عبدالوهاب (تيسير) العديد من النواخذة بعده، وهم إبراهيم المشعل وإبراهيم بن شايح. وأما النوخذة الكبير بدر بن عبدالوهاب القطامي فقد وصف النوخذة عبدالوهاب بأنه (شيخ النواخذة)، وهي شهادة كبيرة من هذا النوخذة الكبير.

وحين كسدت حرفة السفر الشراعي في الخمسينيات باع النوخذة عبدالوهاب سفينته (تيسير) לנוخذة إيراني يدعى يحيى بن حسين التتكريري بمبلغ ١٥٠٠٠ روبية مع دفترها وآليتها.

هذا وقد تم اختياره من قبل الشيخ مبارك الحمد الصباح لكي يفصل بالمشاكل التي تتعلق بالبحر. وفي منتصف الخمسينيات وبعد أن توقفت معظم سفن الكويت عن العمل في النقل البحري قام النوخذة عبدالوهاب بعدة أعمال بكل كفاءة وخبرة حتى وفاته.

فحين ترك السفر عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وعمل بالتجارة كان يسافر بالبواخر إلى الهند ويشرف على سفنه وتجارته هناك ثم يعود إلى الكويت آخر الموسم.

وفي عام ١٩٥٠ ترك السفر إلى الهند وحل محله ابنه الأكبر عثمان - يرحمه الله - الذي كان قد تدرب على يد والده تدريباً جيداً.

كما قام بنقل مكتبه الذي أسسه والده عبدالعزيز من قبل إلى سوق التجار (مقابل قصر السيف)، ومازال أولاده يقومون على إدارة هذا المكتب، بالإضافة إلى الإشراف على ديوانه العامر في ضاحية عبدالله السالم.

وفي عام ١٩٥٦ بدأ النوخذة عبدالوهاب التجارة بالعقار، فكان التوفيق حليفه كما تاجر بالأسهم، وكان من أوائل التجار الذين تنبأوا بمستقبل طيب لأول بنك كويتي وهو بنك الكويت الوطني.

إحسانه وأعماله الخيرية

لا شك أن عمل أهل البحر جعلهم يطلعون على كثير من آيات الله تعالى الماثورة في أرضه وسمائه وبحاره، فيرون ما لا يراه غيرهم من عجيب صنع الله تعالى وعظيم خلقه وتدبيره، كما أن إحساسهم بأنهم قد يتعرضون للمخاطر في أي لحظة، وقد يواجهون الصعاب في أي موضع - لا سيما في أوقات العواصف - جعلهم قريبين من الله تعالى، متوكلين عليه ينزلون به حاجاتهم كل حين رجاء حفظه وسعة رزقه.

ولذلك كان المقتدر منهم يعطي الفقير والمحتاج ولا يتأخر عن بذل المعروف في ليل أو نهار، عملاً بقول النبي ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له" رواه مسلم.

وهكذا كان المحسن الكريم المرحوم عبدالوهاب العثمان، الذي تعددت أوجه الإحسان في حياته فشملت العديد من أبواب الخير وخصال البر كما يلي:

عمارة المساجد :

عني الإسلام بالمساجد عناية بالغة، لأنها البيئة النقية الطاهرة التي يتربى فيها النشء الصالح القارئ لكتاب الله تعالى وبها تؤدى الصلوات، وفي رحابها تعقد حلقات العلم، وجلسات الذكر وندوات الفكر، وبين أروقها يتعارف المسلمون فيتحابون ويتآلفون.

ولذا فقد حرص المحسن عبدالوهاب العثمان - رحمه الله - على أن يبني بيتاً لله تعالى كلما ساحت له الفرصة، واضعاً نصب عينيه ذلك البيت الذي سيبنيه له الله عز وجل في الجنة بفضلِهِ ومنه وكرمه وإذنه تبارك وتعالى، فقد قال رسول الله ﷺ: "مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْصَحِ قِطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ" رواه ابن ماجه في سننه.

ومن هذه المساجد ما كان داخل الكويت ومنها ما كان خارجها.

أولاً: داخل الكويت

حرص المحسن عبدالوهاب العثمان على أن يكون لوطنه - الذي تربى على أرضه واستظل بسمائه - نصيب كبير من الخير الذي يبذله في سبيل الله تعالى وذلك حباً له وأهله، ومساهمة منه في نشر الدعوة والعلم، ولذا قام - رحمه الله - ببناء المساجد التالية:

مسجد عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بجامعة الكويت بالخالدية

كان المحسن عبدالوهاب العثمان مدركاً لأهمية العلم الديني والديني معاً، وضرورتهما للإنسان في بناء عقله ووجدانه، وحمايته من عوامل الغزو الفكري والثقافي، وربطه ربطاً وثيقاً بمصدري النور والهداية: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

ولهذا حرص المحسن عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - على أن يكون أول مسجد يشيده الله في إحدى منارات العلم، وقد وقع الاختيار على جامعة الكويت لتحتضن "مسجد عبدالوهاب العثمان" وذلك في عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٦م).

ولقد كان لهذا الاختيار قصة لطيفة يرويها لنا الأستاذ محمد عبدالوهاب العثمان - ابن المحسن الكريم - الذي كان يشغل منصب مدير إدارة الشؤون العامة والخدمات بجامعة الكويت - المبنى الرئيسي بالخالدية - وقد أتاه مجموعة من طلبة الجامعة يطلبون منه - بحكم منصبه - أن يبني لهم مصلىً ولو على شكل "شجرة" لصلاة الظهر على الأقل، وذلك لعدم وجود أي مكان مخصص للصلاة في كليتي العلوم والهندسة، اللتين تشغل مبانيهما موقع مبنى الخالدية^(١).

فوعدهم الأخ الفاضل محمد العثمان خيراً، وكان عليه مفاتحة إدارة الجامعة وهو الإجراء الطبيعي، ولكنه كان يعلم أن الإجراءات كثيرة وتستغرق مدة طويلة - إن تمت الموافقة على الفكرة أصلاً - وهو يشغل منصباً يجعله مطلعاً بتفاصيل الشؤون الإدارية والمالية، وخصوصاً في مجال توفير الميزانيات، وتحديد أولوياتها - إن توفرت.

ولذلك فاتح والده المحسن عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، وقد كان يعلم أنه يبحث عن موقع مناسب يبني فيه مسجداً، قد نوى بناءه منذ فترة قريبة، ليبنى له ربه جل وعلا بيتاً في الجنة مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ الذي أوردناه آنفاً.

(١) "علي شاهد عيان على ذلك حين كنت يوماً طالباً في كلية العلوم منذ عام ١٩٧٤م ومررت بالتجربة نفسها، ولم نجد مكاناً نصلي فيه الظهر يومياً والعصر أحياناً سوى في مكان محصور ضيق كالغرباء، وهو بيت الدرج مع الأسف الشديد، ولا أزال أدعو الله تعالى لهؤلاء الطلبة بكل خير وللمحسن الكريم عبدالوهاب العثمان ولإبنيه محمد، لأنهم جميعاً كانوا مفاتيح خير لأجيال خلفتهم من طلبة الجامعة، بل لأهل قطعة ٣ في منطقة الخالدية، بل وكل العابرين على الطريق الدائري الرابع، وغيرهم الكثيرون": الكاتب.

وبالفعل فاتح الابن أباه، وكلاهما شريكان في الأجر - إن شاء الله تعالى - وهي لعمرى نعمة عظيمة أن يتعاون الاثنان على فعل الخير فيشتركان في الأجر دون أن ينقص من أجرهما شيء، حيث إن الدال على الخير كفاعله.

ورغم كون الفكرة التي عرضها الأخ الفاضل محمد العثمان على والده المرحوم عبدالوهاب تقتضي بناء شجرة كمصلى للطلاب بناء على طلبهم، إلا أنه أجاب - بلا تردد - وكأنها كانت الفرصة التي يبحث عنها منذ فترة: "بل نبني لهم مسجداً كاملاً بجميع مرافقه، وبه مصلى للطالبات، بحيث يستوعب الجميع".

فبذلك كان مسجد عبدالوهاب العثمان في الجامعة للطالب والأستاذ خير معين على إقامة شعيرة هي أبرز الشعائر التعبدية في الإسلام، التي لطالما حث عليها كتاب الله تعالى والسنة النبوية الشريفة، قال تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)" سورة البقرة.

وأصبحت هوية طيبة لجامعة الكويت حيث يقع المسجد في صدر موقعها، وواجهتها على الطريق الدائري الرابع، تأصيلاً لهوية المجتمع الكويتي المسلم، وتثبيتاً لهوية دولة الكويت كما نص دستورها، وكما استلهم من نبراس ماضيها الإسلامي المحافظ بفطرتة، جزى الله الوالد والولد كل خير، فبمجهودهما كان مسجد عبدالوهاب العثمان في جامعة الكويت بالخالدية.

مسجد عبدالعزيز العثمان

وقد تم إنشاء هذا المسجد بعد هدم مسجد العثمان القديم الذي أسسه عبدالعزيز بن عثمان سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م)، وأعيد بناؤه عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) على نفقة كل من ابن أخته عبداللطيف سليمان العثمان وابنه عبدالوهاب العثمان ودائرة الأوقاف العامة (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية حالياً) .

وأخيراً أعيد بناؤه مرة ثانية على نفقة أبناء عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان عام ١٤١٠هـ (١٩٩٢م) بفريج العثمان على شارع الخليج العربي، والمسجد يحمل اسم والد المترجم له

المحسن عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان - رحمه الله - وفاءً له ببعض حقه وفضله عليهم، وعملاً بقول الرسول ﷺ: "إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ صِلَةَ الْوَالِدِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ" متفق عليه.

ولأن رواد هذا المسجد حالياً أكثرهم من الوافدين (غير العرب) الذين أكرمهم الله تعالى بالإسلام، وهم لا يجيدون اللغة العربية، فإن خطبة الجمعة والدروس الدينية تلقى فيه باللغة الإنجليزية، وذلك بالتنسيق مع لجنة التعريف بالإسلام، وقد فصلنا القول فيه في موضع سابق من هذا الكتاب (أنظر ص).

مسجد المرحومة بيبي عبدالعزيز الرشيد البدر

وهذا المسجد بناه المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان بالمشاركة مع زوجته المرحومة بيبي الرشيد البدر، وأطلق عليه اسمها، وكان ذلك في عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥)، ويقع في منطقة الصباحية، ومساحته الكلية ١٤٣٠ متراً مربعاً منها ١٥٠ متراً مربعاً لمصلى النساء، بما يجعله يتسع لألف مصليٍّ ومائة مصلية تقريباً في آن واحد، وترتفع مئذنته لأربعة وثلاثين متراً.

مسجد المرحومة موزي عبداللطيف سليمان العثمان

بعد وفاة المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان تفاعل أبناؤه مع قناعة رسخها فيهم خلال حياته، وهي أفضلية إنفاق المرء من حر ماله في حياته، وإيثار غيره على نفسه بما في يديه من نعمة، مما يغني عن تخصيص ثلث التركة للعمل الخيري.

باعتبار أن الأولى هو إنفاق المرء من ماله الذي يملك التصرف فيه وهو على قيد الحياة، بدلاً من استقطاع جزء من المال الذي سيؤول للورثة بعد وفاته.

وهذا الاتجاه ليس بجديد في حياة الصالحين، فقد كره بعضهم أن يؤخر أعماله الطيبة لما بعد وفاته، وحث على المبادرة بفعالها حال حياته، التي يحتاج فيها المرء لكل حسنة يمكن أن تضاف لميزان أعماله، حيث كان هذا التوجه جديداً وجريئاً بالنسبة للمفهوم السائد حينها من تخصيص الثلث للخيرات بعد الممات.

وقد تمثل تفاعل أبنائهم في محافظتهم على مسيرة الإحسان، التي بدأها والدهم - رحمه الله - ورغبتهم في الإيثار على أنفسهم، فاستقطعوا من نصيبهم في التركة قدراً معلوماً - قبل كل شيء

- وبنوا مسجداً باسم والدتهم موزي عبداللطيف سليمان العثمان، زوجة المرحوم عبدالوهاب العثمان أيضاً، في منطقة الأندلس بالقطعة الثامنة وذلك في عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠م)، ويشغل المسجد مساحة قدرها ٨٣٤ متراً مربعاً منها ١٦٠ متراً مربعاً لمصلى النساء، و ٢٤ متراً مربعاً للمكتبة التي يستفيد منها المصلون في طلب العلم الشرعي ومذاكرة العلوم الشرعية وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، ويتسع المسجد لما يزيد عن ٥٠٠ مصلٍ و ١٥٠ مصلية تقريباً، وترتفع مؤذنته إلى ٢٧ متراً.

نسأل الله تعالى أن ينال المحسن عبدالوهاب العثمان وزوجته ثواب إقامة هذه المساجد بإذن الله تعالى، القائل في كتابه الكريم: " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) " سورة النحل.

ثانياً: خارج الكويت

أراد المحسن عبدالوهاب العثمان أن يعم الخير وأن يزرع شجرة البر التي زرعتها في بيئة أخرى خارج بلده الكويت، كي تظل أناساً آخرين، فاختر سلطنة عمان الشقيقة ليبنى فيها بيتين لله تعالى هما:

مسجد التقوى في مسقط

وهو مسجد جامع تقام فيه صلاة الجمعة، وقد تم إنشاؤه في منطقة الوادي الكبير بمسقط عاصمة سلطنة عمان، وهو مسجد جامع، يؤمه عدد كبير من المصلين، الذين يذكرون بالخير باني هذا المسجد ويدعون له بالثواب وحسن الجزاء.

مسجد سيفة الشيخ بعمان

كان المحسن عبدالوهاب العثمان حريصاً أيضاً على أن يبحث عن الأماكن التي ليس فيها مساجد، وقد وفقه الله تعالى إلى بناء مسجد السيفة، الذي يقع بقرية سيفة الشيخ، التي تبعد ٤٥ كيلومتراً جنوب العاصمة، وهو المسجد الوحيد في هذه القرية.

ولعل وجود ابنه عبدالعزيز سفيراً لدولة الكويت في عمان آنذاك كان عاملاً مساعداً على متابعة بناء هذين المسجدين، حيث كان حينها يشغل منصب سفير دولة الكويت في سلطنة عمان الشقيقة.

مسجد شيخة سالم السبيعي (والدته) في السودان:

وهو أيضاً من المساجد التي أسسها المحسن عبدالوهاب العثمان - رحمه الله.

بناء المدارس

بالعلم تبني الأمم حضارتها. . وتحقق الدول آمالها، وقد اهتم الإسلام بالعلوم الدينية والدينية أيضاً، حتى إن أول آيات تنزلت من كتاب الله تعالى هي قوله عز وجل: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) سورة العلق.

وفي ذلك بيان كافٍ لأهمية العلم ومدى حرص الإسلام عليه والدعوة إليه، وفي غزوة بدر الكبرى التي وقعت في السابع عشر من رمضان من العام الثاني للهجرة جعل النبي صلى الله عليه وسلم فداء الأسير الواحد من الكفار أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين.

وقد أدرك المحسن عبدالوهاب العثمان هذه المعاني، فساهم في بناء العديد من المدارس في كثير من البلاد الإسلامية، وخصوصاً الهند وباكستان، حيث كان لا يرد وفداً من الوفود القادمة منهما، إلا وقد ساهم في دعم مشروعاتهم، ومنها على سبيل المثال مشاريع إنشاء المدارس، حيث ساهم في إنشاء المدرسة العربية في بومباي.

كرمه وسخاؤه

الإسلام دين الجود والعطاء، وقد وعد الله تعالى عباده المحسنين بالأجر الكريم والثواب الجزيل، واستقرض عباده المؤمنين المنفقين في سبيله تعالى ووعدهم بمضاعفة الثواب أضعافاً كثيرة فقال سبحانه: "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) سورة البقرة.

وقد حث الرسول الأعظم والمعلم الأكرم صلى الله عليه وسلم المسلمين على البذل والإنفاق في سبيل الله، وأمر بلالاً - رضى الله عنه - بذلك حين قال له "أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً" رواه أبو داود.

لذا كان المحسن عبدالوهاب العثمان حريصاً على أن يجعل للفقراء والمساكين وذوي الحاجة نصيباً موفوراً من ماله، فحافظ على إخراج الزكاة في شهر شعبان من كل عام، وقد جعل للرجال يوماً يجتمعون فيه بديوانه، وللنساء يوماً، فيقوم بتوزيع الزكاة عليهم، بغير من ولا أذى، بل طامعاً في رحمة الله تعالى وثوابه، عملاً بقوله تعالى: "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)" سورة المعارج.

ولم يقتصر إحسانه على الكويت فحسب، بل كان يرسل بعض التبرعات إلى العديد من الجمعيات الدينية في الهند وباكستان وغيرهما من الدول - التي كثيراً ما كانت تأتي وفودها إلى الكويت التماساً لجمع التبرعات - مساهمة في دعم تلك المشروعات الخيرية وعلى رأسها بناء المساجد والمدارس والمستشفيات.

إطعام الطعام

حث الإسلام على إطعام الطعام، وجعله من أفضل القربات وأحب الأعمال إلى الله تعالى. قال سبحانه عن عباده المؤمنين الأبرار: "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)" سورة الإنسان.

وبين سبحانه ثواب ذلك قائلاً بعدها مباشرة: "فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)" سورة الإنسان

ولذا كان المحسن عبدالوهاب العثمان حريصاً على أن ينال هذه المنزلة السامية والمكانة العالية، فكان يتولى بنفسه توزيع الطعام على الأسر المحتاجة بالفريج (الحي).

كما أنه كان يقيم ولائم الإفطار في شهر رمضان الكريم، التماساً للأجر والثواب، الذي وعد به النبي ﷺ في قوله: "مَنْ فَطَرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا" أخرجه الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ صحيحٌ

إقراء القرآن

القرآن هو كتاب الله المعجز، ودستوره الخالد، نزل على قلب الأمين صلى الله عليه وسلم هداية للناس جميعاً. قال تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)" سورة الإسراء.

ويقول المصطفى ﷺ: "اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ" رواه مسلم.

ولذا كان المحسن عبدالوهاب - رحمه الله - يحرص طوال شهر رمضان المبارك على إحضار مقرئي القرآن الكريم إلى ديوانه العامر، فيعطرون الأجواء ويمسحون عن القلوب العناء، بآيات الله البينات المباركات. ومنهم الملا عبدالله بن الملا محمد الهولي، والملا إبراهيم المزيدي.

الثالث الخيري

ليس بغريب على المرحوم عبدالوهاب العثمان نزعته إلى الإحسان والمعروف، إذ أنه ورث ذلك عن والده الكريم المرحوم عبدالعزيز بن عثمان، الذي بنى مسجد العثمان في منطقة القبلة وأوصى بثلاث ماله من بعده لأعمال الخيرات.

وفيما يلي كشف توزيع المصروفات من هذا الثالث بخط يد ابنه المرحوم عبدالوهاب بن عبدالعزيز العثمان، القائم على تنفيذ الوصية والنظارة على توزيعها.

بيان ثلث المرحوم الوالد^(١) عن جميع الموجودات فيما يأتي أدناه

التاريخ		البيان	مصرفات		أصول	
			روبية	أنة	روبية	أنة
١٣٥٦	٤ جمادى ٢	المبلغ خمسة وعشرين ألف وسبعمائة وخمسة وتسعين و ٩ أنة			٢٥٧٩٥	
المصرف من الثلث كما يلي أدناه						
١٣٥٦	٢١ شعبان	بموجب قائمة من تاريخ	١٢٩٩	٤		
		بيد العمة وصل ٢٠ روبية	٢٠			
		المصرف من ٢١ شعبان إلى ١٧ ربيع ٢ تصليح مسجد المهارة ^(٢) وأضحية وصدقات في يد الأخ				
		من يدنا لإعانة فلسطين ٦٠ روبية والعم محمد	٨٦٠			
١٣٥٧	٣٠ جمادى ٢	لحق دفعة بيدنا إلى تاريخ	٤٠٠			
١٣٥٧	٢٧ رجب	لحق دفعة بيدنا لأجل تصليح بيت الوقف وغيره	٤٠٠			
١٣٥٧	١٠ شعبان	لحق دفعة بيدنا لأجل تصليح بيت الوقف وغيره	٣٠٠			
		الإجمالي	٣٢٧٩	٤٠		
		مما حصل ربح من كرم الله ^(٤) ١٠١.٧			١٥٥٥	٦
		...ثلث قسم الله منها ٢٣٣٣.١ / ٧٧٧٠.١ = ١٥٥٥			٢٧٣٥٠	١٥
		من وجه كما هي مدروجة في ١٣ رمضان			١٢٤٦	١٠
					٢٨٥٩٧	٩
		زكاة حق الله ٢٤٠٠٠ روبية المائة ٢.٥ (٦٠٠ روبية)	٦٠٠			

(١) كتب هذه الوثيقة المرحوم عبدالوهاب العثمان لبيان توزيع ثلث والده المرحوم عبدالعزيز بن عثمان.

(٢) هو مسجد علي بن حمد المشهور باسم مسجد المهارة، لمشاركتهم في بنائه وكثرة صلاتهم فيه لسكنهم قربه.

(٣) هو سليمان عبداللطيف سليمان العثمان ابن عمه المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان.

(٤) تم ترك فراغ (...) للكلمات التي لم نستطع قراءتها في هذا الموضع وما يليه في هذه الوثيقة.

١٣٥٧	١٥ رمضان	لحق دفعة ٢٠٠ روبية إلى شهر رمضان	٣١٧٦ ٢٠٠ ٤٠٧٦	٤٠		
	١٥	بالمية في البضاعة			٤٠٧٩	٤
		المجموع أخذنا من يد سليمان ضحايا واستهلاك سرج المساجد وتصليح مساجد وإمداد ^(١) وإعانة عبداللطيف			٢٤٥١٨	
١٣٥٨	١ صفر	بموجب قائمة من يد سليمان	١٣٧١			
		من يدنا لتصليح مسجدنا ^(٢) وبيت الشيخ يوسف	١٠٠			
		لحق من يدنا أفعال خيرة وصدقات من يد سليمان من ٤ صفر إلى ٥ ربيع ٢ في مساجد الفنطاس وبوحليفة	١٠٠			
			٣٣٥	٥		
		من يدنا تصليح بيت الوقف للإمام	٥٠٠			
	٥ جمادى ٢	لحق دفعة	٦٠٠ ١٩٠٦			
		مصرف ^(٣) شهر رمضان ٢٠٠ روبية	٢٠٠ ٢١٠٦			
١٣٥٨	٢٥ شعبان	من يدنا صدقات وتصليح مساح ليوان المسجد وبيت الوقف	٤٠٠			
	١٥	لحق من يدنا	١٠٠ ٢٦٠٦			
		زكاة حق الله منها على ٢٤٠٠٠ روبية (٦٠٠ روبية)	٦٠٠			

(١) مداد: جمع مدّة (بفتح الميم وتشديد الدال مع فتحها) وهي الحصير.
(٢) يقصد مسجد والده المرجوم عبدالعزيز العثمان.
(٣) المصرف هو المصرف.

دوره الوطني

نظرا لحسن صفات المرحوم عبدالوهاب العثمان وحميد خصاله وسعة معرفته بالأسر الكويتية تم اختياره عضوا بلجنة توزيع المساكن الحكومية في عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وقد بذل - رحمه الله - أقصى جهده في هذه اللجنة لكي تؤدي أعمالها على الوجه المطلوب، ويحظى هو برضى ربه أولاً وحب الناس ودعائهم ثانياً.

كما تم اختياره - رحمه الله - عضواً في لجنة التثمين في بلدية الكويت لما عرف عنه من معرفته بأحوال السوق العقارية آنذاك، ومن أمانة وورع يحتاجها كل من يتم اختياره في مثل هذا العمل الحساس، ولذلك فقد أختير أيضاً في عضوية مجلس شؤون الأوقاف عام ١٩٥٢م - كما سنبين ذلك بالتفصيل لاحقاً - وفي ذلك دلالة واضحة على الدور الوطني البارز الذي قام به المرحوم عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، الذي كان أيضاً صاحب رأي ومشورة لدى صاحب السمو أمير البلاد والمسؤولين ووجهاء الكويت في ذلك الوقت.

لقد كان المرحوم النوخدة عبد الوهاب العثمان يملك حساً وطنياً مرهفاً، ويشعر بالمسؤولية تجاه عالمه العربي الإسلامي الكبير، ففي اسبوع الجزائر الذي نظمته اللجنة الشعبية لجمع التبرعات في دولة الكويت برئاسة العم يوسف الفليح والعم عبدالعزيز الصقر تبرع بمقدار ٣٠٠٠ روبية، وذلك في يونيو عام ١٩٥٩م.

وكذلك تبرع لمصر في ٢٢ ربيع الثاني عام ١٣٧٦هـ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٩٥٦م، بمبلغ ٢٠٠٠٠ (عشرين الف روبية)، وذلك لدعم الكفاح المصري ضد العدوان الثلاثي. وفي هذا دلالة واضحة على شعوره العظيم بالمسؤولية، واحساسه بأهمية المشاركة بدور وطني كبير في المحن التي تواجه أمتنا العربية والإسلامية.

ولذلك فقد أحس - رحمه الله - بمسؤوليته تجاه جزء محطم من وطنه العربي، فقبل وفاته بعام واحد تبرع بمبلغ (١٠٠٠٠٠٠) مائة ألف دينار كويتي، مشاركة منه في إعادة إعمار الفاو التي تضررت بسبب الحرب العراقية الإيرانية التي انتهت في الثامن من أغسطس عام ١٩٨٨م، وقد أعطاهما بكل جود وسخاء، دون أن يعلم ما يخبئه له الغد من غدر صاحبها، ولكن الله تعالى يجزيه - كما أخبرنا - بحسب نيته إن شاء الله، حيث توفي قبل الغدر العراقي ببضع سنين، شأنه في ذلك شأن كل أهل الكويت الأوفياء لوطنهم العربي والإسلامي الكبير، الذين ساهموا بكل اخلاص في إعادة إعمار الفاو.

كما قام - رحمه الله - بتخصيص مساهمة مجزية في عام ١٩٣٦م لدعم القضية الفلسطينية وكان مقدارها ٨٦٠ روبية، وذلك من ثلث والده المرحوم عبدالعزيز بن عثمان، الأمر الذي يدل على احساسه منذ ذلك الوقت بمسؤوليته تجاه أجزاء وطنه الإسلامي والعربي الكبير.

مجلس الأوقاف

للووقف دور تاريخي رائد في دفع عجلة التنمية في العالم الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ، فقد كان داعماً للدورة الإقتصادية ودافعاً للحركة العلمية والثقافية، ومسانداً لشتى خدمات الدولة التي أظهرتها بشكلها المتحضر.

ولقد كان المحرك دوماً هو الرغبة الذاتية في الأجر والثواب لدى الفرد المسلم، الذي دعم بدوره المجتمع المسلم المتكافل المتراحم، ولقد بلغ الوقف مبلغاً أغنى بيت المال عن الصرف في ميادين كثيرة.

ولقد وصل إلى مصارف متخصصة بلغت حد الندرة في العالم أجمع، وهي مظاهر عجيبة مثل وقف الآنية، ووقف الزبادي، ووقف البيمارستان، ووقف التزويج، ووقف المجانين، ووقف المنشدين على المرضى، ووقف السكن للحجاج والمعتمرين، بل ووقف البهائم الضالة.

ولقد كان للكويت من هذا الإرث الحضاري نصيب وافر، فكان سمة عظيمة اتسم بها المجتمع الكويتي الذي شهد اشراقات عظيمة للوقف، تمثلت في إيقاف دور ودكاكين بل ومصائد للأسماك (حظور)، في زمن شحت فيه الموارد، وتدنت الحال المعيشية، حيث لا نفط ولا ماء.

ولقد التفتت الدولة إلى أهمية تنظيم الوقف لتكاثره ومرور الزمن عليه، فتأسست دائرة الأوقاف العامة في غرة ربيع الأول عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) التي أخذت على عاتقها تنظيم شؤون الوقف ومتابعته حتى تأسست أول وزارة للأوقاف في السابع عشر من يناير عام ١٩٦٢م بعد استقلال الكويت، وقد عين الشيخ مبارك الحمد الصباح أول وزير للأوقاف.

ولقد عهد إلى مجالس الأوقاف إدارة هذه الأوقاف حيث تم اختيارها من خيرة رجال الكويت، ومنهم المرحوم النوخدة عبد الوهاب عبد العزيز العثمان، الذي كان عضواً في

مجلس شؤون الأوقاف عام ١٩٥٢م، الذي كان برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح،
وعضوية كل من:

- ١ - عبدالله عبدالرحمن العسوسي - عضواً ومديراً للأوقاف.
- ٢ - عبدالله العريفان
- ٣ - عبداللطيف صالح المسلم
- ٤ - عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان
- ٥ - عبدالله دخيل الشايح
- ٦ - فهد الرشيد البدر
- ٧ - عبدالعزيز المزيني
- ٨ - عبدالعزيز قاسم حمادة
- ٩ - سليمان صالح اللهيب
- ١٠ - خالد يوسف المطوع
- ١١ - علي البنوان
- ١٢ - أحمد محمد البحر

ولقد استمرت مجالس الأوقاف هذه في إدارة الوقف حتى تأسست له في الوزارة إدارة
مختصة ما لبثت أن تحولت - لضخامة أعمالها - إلى قطاع الوقف، ثم ما لبثت أن أصبحت
الأمانة العامة للأوقاف.

وفاته

بعد حياة حافلة بالخير والعطاء والبر والإحسان، وبعد عمر حافل بالعمل الخيري لقي المحسن عبدالوهاب العثمان وجه ربه الكريم في الرابع عشر من شهر فبراير من عام ١٩٨٧م (١٤٠٨هـ)، في اشرف بقاع الأرض وأطهرها، في مدينة رسول الله ﷺ، ودفن بالبقيع بجوار الذين انعم الله عليهم من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين .

وكان هذا المحسن الكريم أبي إلا أن يجاور رسول الله ﷺ بعد وفاته، فكتب الله تعالى له أن ينال هذا الشرف ويحظى بهذا الجوار الكريم.

ومما يظهر حرصه على الإحسان والبذل في سبيل الله تعالى إلى آخر لحظة في حياته كتابة شيك بخط يده الكريمة لصالح مسلمي إفريقيا، يروي ابنه المرحوم عثمان أنه عندما عزم السفر إلى إفريقيا بصحبة المحسن صالح محمد البراك والمحسن طارق العيسى لتقديم مساعدات مالية إلى مسلمي إفريقيا، ولما استأذن والده للسفر قال له والده عبدالوهاب إنني أنوي الذهاب إلى العمرة وهذا شيك بمبلغ ٣٥٠٠ دينار لمسلمي إفريقيا، وتوفي - رحمه الله - في العمرة فكان هذا الشيك آخر أعماله، ودفن في البقيع في ١٤ فبراير عام ١٩٨٧م. فهنيئاً له جوار الرسول صلي الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وهنيئاً له جوار آل بيته وأصحابه في مقبرة البقيع .. هنيئاً له هذا الشرف العظيم. وقد رثاه الأخ الفاضل الباحث في التراث البحري الكويتي د. يعقوب يوسف الحجى في مقالة^(١) له بعنوان:

"إن الكواكب في التراب تغور"

وجاء فيها: "من منا يعرف تاريخ الكويت البحري ولا يعرفه؟ ومن منا إذا عرفه لا يقف احتراماً له واعتزافاً بفضلته وشجاعته؟ ومن منا يراه فلا يرى أصالة الكويت وعزيمة أهل الكويت وحكمة أهل الكويت متمثلة فيه؟

لم يكن عبدالوهاب بن عبدالعزيز العثمان مجرد قبطان سفن قدير، عليم بأسرار الملاحة والبحار، ولكنه كان تجسيدا لحضارة أمة صغيرة - نعم - وفقيرة ولكن بالتأكيد كانت مؤمنة بربها وبالحياء من حولها.

وكانت مواقفهم تتم عن علم وحكمة وتواضع وإنسانية كبيرة، ذلك ما كان يشع منه حين تراه وحين تسمع به، فهو صديق إن سمعت به، وهو أب إذا جلست معه، وهو تاريخ إن أردت تدوينه.

(١) صحيفة الوطن بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٨٧م.

ولد على تراب هذا الوطن، وعشق البحر صبيّاً، وكيف به لا يعشق البحر وهو من عائلة ارتبط اسمها بالبحر منذ أن وطئت أقدام كبارها هذا البلد، وقاد سفينته "تيسير" بنفسه وأكسبها شهرة أكثر مما أكسبته هي إياه.

ولو سألت عن النوخذة عبدالوهاب العثمان في موانئ البحرين مثلاً لأغنونك الجواب، ولو سألت أمواج بحر العرب لأخبرتك بنبأ لا أستطيع أن أخبرك أنا به، ولو سألت عنه زملاءه من نواخذة الكويت لشهدوا له بالعلم والحكمة والشرف الرفيع، يكفي أن يصفه أحدهم بأنه (شيخ النواخذة الكويتيين).

كنت أزوره بين الحين والآخر، وكنت أزداد علماً ومعرفة حين أستمع إليه، وخفت أن يأتي اليوم الذي نفقده فيه، حتى أتى بالأمس (الأمر الذي لا يدفع).

كان عبدالوهاب يؤدي مناسك العمرة، وسقط في مدينة الرسول ﷺ ودفن فيها، وأي شرف وأي إكرام له أكثر من أن يموت في مدينة الرسول وأن يدفن مع محمد صلي الله عليه وسلم في نفس المدينة؟

الحمد لله الذي شرفني بمعرفته وبمعرفة غيره من رجالات الكويت، وغرس في نفسي حبهم وتقديرهم والاعتراف بفضلهم والتعلم منهم، فما تعلموه لا يمكن الحصول عليه في المدارس اليوم، إنها مدرسة الحياة الكبرى تلك التي تلقى فيها هؤلاء الرجال علمهم. واليوم يغادروننا الواحد بعد الآخر - وبسرعة - تاركين هذا البلد كنبات بلا جذور أو كصحراء بلا هوية. لقد كان عالماً مباركاً ذلك العالم الذي خدموا فيه، وأمضوا شبابهم يتعلمون منه، وليس في وسعنا سوى أن نؤكد .. نعم .. "إن الكواكب في التراب تغور".

خَشَبُ العِثْمَانِ

(١٨٧٩ - ١٩٥١ م)

لئن كان عدد نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان الكريمة كبيراً وهو مؤشر جلي على ريادة هذه العائلة في مجال صناعة ركوب البحر، فإن هناك مؤشراً آخر على تلك الريادة، ألا وهو خشب (سفن) العثمان التي كانت تدل كما وكيفاً على تمكن هؤلاء من صناعة البحر. وهذا ما سيظهر واضحاً جلياً فيما يلي من الصفحات.

ولقد استعنا في هذا الباب بما كتبه د. يعقوب الحجى في كتابه الرائع "صناعة السفن الشراعية في الكويت"^(١) الذي غطى أهم المعلومات عن أهم خشب العثمان وغيرهم.

وقد سبق أن أشرنا في غير موضع من هذا الكتاب إلى كتابه الآخر والرائع أيضاً "نواخذة السفر الشراعي في الكويت" والذي تكلم عن معظم نواخذة السفر الشراعي من عائلة العثمان الكريمة وغيرهم، كما استعنا بالعديد من كتب المؤرخ الكويتي العم سيف مرزوق الشملان في ثنايا هذا الكتاب.

ومن الأمانة هنا أن نثبت الفضل لأهله كذلك بالشكر والثناء على كل الباحثين الآخرين في مجال التراث الكويتي وتاريخ الكويت في المجالات المختلفة دون تفصيل لأسمائهم. بيد أننا في هذا السياق نركز على الجانب البحري من هذا التاريخ وذلك التراث بشقيه الغوص والسفر. ولئن كانت البداية في الحديث عن صناعة السفن للأشهر والأظهر من خشب العثمان، فإن هذه البداية لن تتجاوز الحديث عن البوم "تيسير" الذي امتلكته عائلة العثمان الكريمة، رغم أنه كان شائعاً في صناعة السفر أن يقوم النواخذة بقيادة سفينة لا يملكها بل يملكها غيره من تجار الكويت ملاك السفن، وفي هذه الحالة يسمى النواخذة "جعدى" بكسر الجيم وتسكين العين، وقلما كانت هذه الظاهرة تشمل نواخذة السفر من عائلة العثمان الذين فضلوا منذ البداية أن يملكوا ما يركبون، وقد سبقهم إلى ذلك كبيرهم عبدالعزيز، حين قال كلمته التي أوردناها آنفاً في هذا الكتاب: "لن أتزوج حتى أربط البري" حتى أصبحت حكمة تحتذي. ولذلك فقد تملك نواخذة العثمان عدد كبير من سفن الغوص وأبوام السفر، من أشهرها تيسير وموافق والمحمدي والمحمدي الثاني والسالمي وفتح الرحمن وفتح الكريم والعثماني والتي سنأتي على ذكرها بالتفصيل في الصفحات التالية.

(١) ص ٢٤٩-٢٥٣، ص ٢٥٨-٢٥٩، ص ٢٨٤-٢٨٦.

تيسير

لو سألت عن السفن الشهيرة في تاريخ الكويت البحري، والتي احتلت مركز الصدارة، لبرز اسم "تيسير" كأحد أفضل السفن التي بناها صناع السفن الكويتيون. ولعله ليس من المبالغة في شيء القول بأن "الداو" و"ابن رشدان" و"تيسير" و"المهلب" كانت أشهر سفن الكويت على الإطلاق، بحيث أصبح ذكرها على لسان كل من ركب البحر من الرجال الكويتيين منهم وغير الكويتيين.

تاريخ الصناعة

اشتهر من عائلة العثمان كبيرهم الحاج عبدالعزيز العثمان الذي امتلك الكثير من السفن التي كانت تستخدم في تجارته مع الهند وباقي الموانئ الخليجية. وما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى (العظمى) حتى أصبحت الحاجة شديدة إلى بناء سفن كبيرة لنقل المؤن من الهند إلى غيرها من دول الخليج.

عندها فكر الحاج عبدالعزيز في بناء سفينة كبيرة اختار الأستاذ حسين بن منصور، أحد أكبر صناع السفن الكويتيين، وطلب منه بناء سفينة من نوع البوم ذات حمولة تقدر بحوالي (٤٠٠٠ من) من التمر (٣٠٠ طن).

وبدأ العمل في بناء السفينة (سنة ١٣٣٢هـ، ١٩١٤م) أمام منزل العثمان في الحي القبلي من المدينة والمطل على البحر. ولما كان الحاج عبدالعزيز العثمان على ثقة كبيرة بالأستاذ حسين بن منصور فقد ترك له الأمر في كيفية بناء السفينة، والتي اكتملت بعد حوالي أربعة أشهر من بدء صنعها.

التدشين

أصبحت السفينة جاهزة للإنزال إلى البحر، وكان ذلك حدثاً كبيراً في مدينة الكويت في تلك السنوات. فقد كان حاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك الصباح، وكان حبه للكويتيين وسفنهم وتجارتهم لا يحتاج إلى شهادة، فأمر أن يتجمع الناس للمشاركة في إنزال هذه السفينة. وبالفعل فقد تجمع الرجال والنساء والأطفال حول السفينة وكان بينهم الشيخ مبارك الصباح

ذاته وحوله العديد من نواخذة الكويت الكبار مثل أحمد بن ناصر وأحمد الغانم وعبدالعزیز القطامي وعلي وجاسم المبارك وغيرهم، وكذلك الحاج عبدالعزیز العثمان وأقاربه. وبدأت عملية الإنزال حيث استلقت السفينة على أحد جانبيها وأخذت تزحف ببطء نحو الساحل حيث سواعد الرجال تدير "الدوار" وتشد الحبال، ولم ينته اليوم إلا والسفينة طافية على سطح الماء.

وعندها تعجب الشيخ مبارك من السرعة التي تمت بها عملية الإنزال، فأطلق عليها اسم "تيسير" نظراً للسهولة واليسر اللذين رافقا عملية الإنزال. وبذلك عرفت باسم "البوم تيسير". بعد ذلك دُعِيَ الجميع إلى وليمة غداء أقامها الحاج عبدالعزیز لكل من شارك في حفل إنزال "تيسير" للبحر، كما كانت عليه عادة التجار الكويتيين آنذاك.

مواصفات السفينة

تعتبر "تيسير" من السفن الكويتية "الكاملة الأوصاف" فهي مصنوعة من خشب الساج الهندي، وذات حمولة تقدر بحوالي ٤٠٠٠ من (٣٠٠ طن)، كما أنها تمتاز بحملاتها المحكمة الصنع والمرتفعة نسبياً عن القاعدة، والممتدة على طول القاعدة "البيص"، كما أنها تمتاز بصفات ملاحية جيدة، منها استجابتها بسرعة لأية حركة من دفتها وسرعة وثباتها على سطح الماء، بالإضافة إلى مقدرتها الكبيرة على حمل البضائع.

وفيما يلي بعض من المواصفات الفنية للسفينة "تيسير":

طول القاعدة (البيص): ٤٤ ذراعاً (٦٦ قدماً).

طول السفينة من أعلى: ٨٠ ذراعاً (١٢٠ قدماً).

العرض: ١٧ ذراعاً (٢٦ قدماً).

العمق: (الغزر): ٨ أذرع (١٢ قدماً).

طول الصاري الكبير: ٤٨ ذراعاً (٧٢ قدماً).

طول الصاري القلمي: ٤٠ ذراعاً (٦٠ قدماً).

طول الفرمن الكبير: ٨٠ ذراعاً (١٢٠ قدماً).

مساحة الشراع الكبير: (٥١ شقة).

مساحة الشراع الصغير: (٣١ شقة).

الغاطس: حوالي ١٨ قدماً.

ولقد قام بتفصيل شراع " تيسير " النوخذة عبداللطيف العثمان على الوجه التالي:
الشراع العود وقد فصل على الثلث^(١).
والشراع القلمي وقد فصل على النصف^(٢).
وقد بلغت تكاليف بناء " تيسير " حوالي ٣٥ ألف روبية هندية.

رحلات تيسير

كان "تيسير" جاهزاً للسفر في بداية سنة ١٩١٣م، وكانت الدنيا تعج بأخبار الحرب العالمية الأولى ونقص المؤن في الكثير من البلدان الخليجية، لذا كان لزاماً على "تيسير" أن يبدأ في السفر، بعد أن حصل على "القول" (مرسوم أو تصريح السفر) من حاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك الصباح، وفيما يلي نص "القول" الذي كتب باللغتين العربية والإنجليزية تسهيلاً لمهام هذه السفينة في البحار والبنادر والدول التي تزورها:

الواقفون على مرسومنا هذا من السالكين في البحار والسالكين بالبنادر من جميع الدول العظام الفخام المتحابة، من خصوص اليوم المسمى "تيسير" ملك عبدالعزيز بن عثمان وهو من جماعتنا أهل الكويت وتابعنا، نأمل في حكم دراية الدول العظام المتحابة إذا نظروا إليه ووقفوا عليه أن يعاملوه بالمعاملة اللائمة كما جرت به أصول وقوانين وشروط وروابط الدول المتحابة. هذا وأصدرناه وببده حامله سلمناه كيلا يخفى. في ١١ ذي القعدة ١٣٣٢هـ .

صحيح

حاكم الكويت

مبارك الصباح

وقد اختار له مالكة عبدالعزيز العثمان قبطاناً هو النوخذة محمد سليمان العثمان الذي قاد "تيسير" في أولى رحلاته إلى الهند وعاد إلى الكويت محملاً بالأخشاب وغيرها من الضروريات. وبعد ثلاث سنوات نزل النوخذة محمد عن "تيسير" وأسلم قيادته للنوخذة عبداللطيف سليمان العثمان، وركب مع النوخذة العثمان الشاب عبدالوهاب، لكي يتعلم منه فنون الملاحة وأصولها. ولقد كانت رحلات "تيسير" دائماً إلى الهند وبخاصة إلى ساحل الملبار الهندي لإحضار الخشب اللازم لصناعة السفن.

(١)، (٢) هذه مصطلحات تحدد مقدار الزاوية التي يُفصّلُ عليه الشراع من طرفه فيختلف حجمه بناءً على ذلك وبالتالي تختلف سرعة السفينة باستخدامه.

وفي سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) تسلم قيادة "تيسير" الشاب عبدالوهاب بن عبدالعزيز الذي كان يبلغ من العمر حوالي ٢٢ سنة، والذي اكتملت لديه القدرة والمهارة على قيادة مثل هذه السفينة. ترك النوخذة عبدالوهاب الكويت متجهاً إلى البصرة حيث شحن "تيسير" بالتمر وعلى سطحه حوالي ٤٠ بحاراً من بحارة الكويت. ولما تم شحنه وقف أمام مدخل شط العرب ينتظر هبوب "الشمال" لتدفعهم إلى الهند.

وبعد حوالي أسبوعين كانوا في كراتشي ينزلون بعض التمر، ثم استمروا جنوباً إلى بومباي حيث باعوا كل ما عندهم من تمر وأبحروا جنوباً إلى كاليكوت لشراء الأخشاب.

وفي كاليكوت تم شحن "تيسير" بأنواع عديدة من الأخشاب، وبدأ مسيره إلى الكويت باتجاه مسقط، حيث أبرق النوخذة عبدالوهاب إلى والده في الكويت يخبره عن وصوله إلى مسقط بسلام وأنه في طريقه للكويت.

ليس من الممكن ذكر جميع الرحلات التي قام بها "تيسير" تحت قيادة قبطانه النوخذة عبدالوهاب، لكن يجب أن يذكر في هذا المجال أن النوخذة عبدالوهاب جعل اليوم "تيسير" يدخل تاريخ الكويت البحري من أوسع أبوابه. فقد تجمع له سعة الصدر والقيادة الحكيمة والعلم الواسع بالبحر وفنونه، بالإضافة إلى التوفيق والعناية الإلهية، ما جعل البحارة يفخرون بأنهم ركبوا "تيسير"، وأن قبطانهم كان النوخذة عبدالوهاب العثمان.

وفي هذا المجال يستحسن ذكر إحدى الرحلات التي قام بها "تيسير" من الكويت إلى الهند (كما يصفها قبطانها عبدالوهاب)، ففي طريق العودة وقف "تيسير" في ميناء المنامة بالبحرين وأنزل بعض حمولته، فانتشر الخبر في الميناء أن اليوم "تيسير" قد وصل إلى البحرين.

ولكن بعض التجار هناك دهشوا من تلك الحمولة حتى ظن بعضهم أن مركباً بخارياً قد وصل إلى البحرين وأنزل هذا الحمل الكبير من الأخشاب، وكان النوخذة عبدالوهاب يرى أمارات العجب عليهم، فأخذهم إلى "تيسير" وأراهم نصف الحمولة في جوفه حيث يعتزم الإبحار بها إلى الكويت. ولما ركبوا وشربوا القهوة وأشادوا "بتيسير" ورجاله سقاهم عبدالوهاب ماء "كوه" الشهير.

تولى النوخذة عبدالوهاب قيادة "تيسير" إحدى عشرة سنة متواصلة أكسبها فيها شهرة لم يكتسبها إلا القليل من السفن الشراعية الكويتية، وكان في جميع سفراته إلى الهند، يحمل التمر من البصرة ويحضر الأخشاب من ساحل الملبار إلى الخليج في رحلة واحدة خلال الموسم الواحد. ولقد ركب مع عبدالوهاب بعض أفضل النهامة الكويتيين مثل عبدالعزيز الدويش وسالم المرطة وغيرهما، مما أضفى جواً من البهجة والأصالة على هذه السفينة التاريخية.

وقد عمل معه كثير من البحارة الكويتيين المشهود لهم بالدراية في مجال البحر، ويفوق عددهم الحصر هنا ومنهم عدد من عائلة الخشتي الكريمة، ومن هؤلاء السكوني في اليوم "تيسير" المرحوم عبدالله خميس الخشتي، وقد كان في الوقت نفسه مسؤولاً عن المشتريات عندما ترسو السفينة في أحد البنادر.

وفي سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) نزل عبدالوهاب عن سفينته وأسلم قيادتها للنوخذة درباس العمر الذي قاد "تيسير" خمس سنوات، ثم تسلمه بعده النوخذة إبراهيم المشعل لسنة واحدة، وتركه بعدها للنوخذة راشد المبارك سنة أخرى ثم تسلمه بعده النوخذة إبراهيم بن شايح خمس سنوات أخرى، قاد فيها "تيسير" إلى عدن وساحل إفريقيا الشرقي لأول مرة في تاريخه.

نهاية تيسير

ترك النوخذة إبراهيم بن شايح "تيسير" في سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، فظل واقفاً على الساحل أمام منزل أصحابه، بعد أن خدم النقل البحري الكويتي ما يقارب ٣٤ سنة متصلة، وكان واضحاً أن هذه السفينة خدمت ما فيه الكفاية، وأنها لا بد أن تستريح، عندها قرر صاحبها أن يبيعها إلى (غلوم) تاجر الخشب الذي اشتراها بمبلغ ٦٠٠٠ روبية "وشرّها" أي قطعها إلى ألواح من الأخشاب لبيعها على الساحل.

ويروي الأستاذ علي عبدالرسول للمؤلف أنه في اليوم الذي شهد فيه "تيسير" نهايته، وقف أحد بحارته (تتيان العميري) ينظر إليه والفؤوس والمناشير تقطع في جسده، فصاح قائلاً: "لا..كيف تفعلون ذلك بتيسير؟ تلك السفينة التي جلبت لكم المال والأخشاب..اتركوها اتركوها، فهي لم تدع حملاً إلا حملته، ولا بحراً إلا ركبته. لا تفعلوا ذلك في تيسير".

ولم يكن ذلك بسبب الخسارة المادية التي لحقت بالسفينة ولكن لأنها كانت رمزاً لحياة عشقها هذا البحار. إلا أن ذلك لم يمنع وصول أشلاء "تيسير" إلى مطابخ المنازل في الكويت، فقد كان معظم الناس يجهل حينئذ أن عصر الشراع سوف يأتي إلى نهايته في القريب العاجل.

وأما قاعدة "تيسير" فقد اشتراها التاجر غلوم قبازرد، وكانت من خشب "الفنص" وجعلها عموداً لسقف منزله. وأما الجامعة الخاصة بتيسير فيمكنك رؤيتها اليوم إذا ما زرت ديوان النوخذة عبدالوهاب العثمان في الكويت في ضاحية عبدالله السالم.

موافج

كيف يمكن أن نذكر السفن الشهيرة في تاريخ الكويت البحري دون أن نذكر اليوم "موافج" أحد أشهر سفن العثمان، والمدرسة التي تعلم عليها أصول الملاحة العديد من رجالهم؟!!

لقد احتل "موافج" مركزاً مرموقاً في تاريخ الكويت وزاد من شهرة صانعه حجي سلمان الأستاذ الذي أتقن صنع هذه السفينة كما أتقن صنع العديد من السفن قبلها. ولقد أراد الحاج عبدالعزيز العثمان لهذه السفينة أن تكون سفينة نقل وتجارة بين الكويت والهند فكان له ما أراد.

حيث إن "موافج" صُمم بحيث يكون ذا مقدرة كبيرة على الحمل وذا صفات ملاحية جيدة، وكان ذلك في عام ١٣٣٨هـ، وهو العام الذي وقعت فيه معركة هدية في عهد الشيخ مبارك الصباح (١٩١٠م).

مواصفات موافج

تعتبر "موافج" من السفن المتوسطة الحجم إذ تبلغ حمولتها ما يقارب ٣٠٠٠ من، ولكنها تمتاز بجودة صنعها وبصفتها الملاحية الجيدة وبارتفاع حملاتها الممتدة على طول القاعدة، مما يزيد في مقدرتها على حمل البضاعة.

رحلات موافج

أول من قاد "موافج" إلى الهند النوخذة عبدالعزيز العثمان والد النوخذة عبدالوهاب العثمان، فقد تسلم قيادة هذه السفينة من سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) حتى سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٥م)، ثم أسلم قيادتها للنوخذة عبداللطيف العثمان الذي سافر عليه ثلاث سنوات متتالية ثم تركه ليتسلمه أخوه النوخذة محمد العثمان.

وكان اليوم "موافج" في هذه الرحلات ينقل التمور إلى الهند ويعود محملاً بالأخشاب. ويذكر الأستاذ علي عبدالرسول أن "موافج" هو الذي قام بإحضار الأخشاب التي صنع منها يوم العثمان الشهير والمعروف باسم "تيسير".

ويروي النوخذة عبدالوهاب العثمان أنه في سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) وبينما كان والده عبدالعزيز يقود "موافج" كان معه الأستاذ حمود بن حسن. وفي الهند طلب منه الحاج عبدالعزيز أن يصنع له سفينة غوص (شوعي) ففعل وتم بناء السفينة على ساحل الملبار في الهند.

ولما حان موسم سفرهم إلى الكويت طلب الحاج عبدالعزيز من النوخذة أحمد الخرافي أن يحمل السفينة (الشوعي) على سطح سفينته المعروفة "منصور" فطلب مبلغاً يعادل ٩٠٠ روبية لقاء ذلك. عندها عدل الحاج عبدالعزيز عن رأيه وقرر نقل الشوعي على سطح "موافج"، وقاس طول المقدمة وأوصى حمود بن حسن أن يقطع جزءاً من مقدمة الشوعي، ولما رفع على السطح كان هناك متسع له في المقدمة. عندها أبحر "موافج" إلى الكويت وعلى سطحه سفينة غوص وأطنان عديدة من الأخشاب والحبال وغيرها من الضروريات. خدم "موافج" في النقل البحري الكويتي سنين طويلة، وكان يحظى بالتوفيق والعناية الإلهية. وبعد أن تركه النوخذة محمد العثمان تسلم قيادته العديد من النواخذة مثل القبطان الكويتي منصور الخارجي - وهو نوخذة ومعلم وصاحب لسان يتقن التحدث بالعديد من اللغات مثل العربية والفارسية والأردية ولغة ساحل الملبار وحتى اللغة السواحلية - كما قام بقيادته النوخذة يعقوب اليتامي، حتى بيع موافج على تاجر الأخشاب القديمة "غلوم" الذي "شتره" وباعه كأخشاب للوقود وألواح تستخدم لإصلاح السفن الصغيرة.

وبذلك تكون نهاية موافج كنهاية زميله "تيسير" الذي بيع على نفس التاجر، وانتهى إليه نفس ما انتهى إليه "موافج".

ولو سألت لماذا لم يُحفظ "موافج" و"تيسير" وغيرهما من سفن الكويت المميزة؟ لجاءك الجواب بأنه ما من أحد توقع في تلك السنوات أن هناك مارداً يدعى البترول سوف يظهر في الكويت ويقضي على عصر الشراع إلى الأبد.

المحمدي

سفينة أخرى لعائلة العثمان صنعها الأستاذ حسين بن منصور. وقد أشرف على بنائها كبيرهم الحاج عبدالعزيز العثمان سنة ١٩٣٦. وتبلغ حمولة "المحمدي" حوالي ٢٦٠٠ من، ويمتاز بحملاته المعتدلة، ويصفه النوخذة عيسى العثمان بأنه: "حمي وقوي الصنعة ويقبل في اليوش"، كما تبلغ سرعته ١٢ ميلاً في الظروف الجوية الملائمة.

أول من تسلّم قيادة "المحمدي" النوخذة يعقوب بن معيوف بشارة لمدة ٥ سنوات ثم تسلّم قيادته النوخذة عيسى العثمان من سنة ١٩٤٢م وحتى سنة ١٩٤٦م. وعلى يد هذا النوخذة خدم "المحمدي" النقل البحري الكويتي خدمة طيبة وحظي بالكثير من التوفيق وبخاصة في سنوات الحرب العالمية الثانية.

رحلات المحمدي

يتحدث النوخذة عيسى العثمان عن إحدى سفراته الصعبة على ظهر "المحمدي" فيقول: خرجنا من الكويت خالين من الحمل إلا من "الطعام"، وكانت وجهتنا إلى بومباي، وكانت تلك السنة تسمى سنة "البطاقة" (١٩٤٢)، والسلع الضرورية كانت غالية الأثمان، فكيس الأرز كان يباع بحوالي ٣٠٠ روبية، وكيس السكر بمبلغ ٨٠٠ روبية، وأما أوقية الشاي فقد بلغ سعرها حوالي ٥٠ روبية في الكويت.

وصلنا إلى بومباي وحملنا خشباً وإسمنتاً إلى كراتشي لاستخدامهما في عمل سكة القطار هناك، وحصلنا على ١١٠٠٠ روبية أجره النقل، ثم رجعنا إلى بومباي وحملنا أقمشة بقيمة ١٥٠٠٠ روبية. وكان معنا من السفن الأخرى بوم أحمد بشارة وبوم شمس الدين، وبوم سيد يعقوب وغيرهم عندما تركنا بومباي في طريقنا إلى الكويت.

وفي الطريق غابت عنا هذه السفن. وبعد حوالي ١٩ يوماً وصلنا إلى الكويت وأنزلنا بعض البحارة فيها وغادرناها بعد عشرة أيام إلى البصرة. وعندما وصلنا إلى البصرة كان لزاماً علينا أن ننتظر ٤٠ يوماً حتى استطعنا أن ننزل ما عندنا من بضاعة، وحملنا بعد ذلك ستة خيول عربية إلى بومباي بمبلغ ٩٠٠ روبية.

وعندما حان موعد سفرنا من البصرة رأينا السفن الأخرى التي خرجت معنا من بومباي قد بدأت في الوصول، ولما تحدثنا مع نواخذتها علمنا أن بعضهم لم يستطع الاستمرار في السفر، وكان عليه أن ينتظر الأسابيع الطويلة في بعض الموانئ تجنباً للعواصف.

وصلنا إلى بومباي بعد ١٧ يوماً، وهناك قابلنا النوخذة بلال الصقر وهو يستعد للسفر إلى الكويت. وحملنا ما استطعنا حمله من بضاعة وأسرعنا في السفر دون انتظار النوخذة بلال، فقد كان الوقت متأخراً (آخر الموسم).

وخرجنا قبله بأيام، وما إن ابتعدنا عن الساحل الهندي حتى ضربتنا عاصفة مخيفة فاضطررنا إلى النزول جنوباً في بحر العرب حتى جزر "سيشل" في المحيط الهندي. ثم هدأت العاصفة، واستسلمنا لريح "السهيلي" الجنوبي وأخذنا ما يقارب ١٨ يوماً للوصول إلى مسقط. كانت هذه العاصفة تسمى "ضربة الإكليل"، وفي هذا "الطوفان" البحري غرق بلال ومات هو ومعظم بحارته البالغ عددهم ٤٥ شخصاً ما عدا ١٣ بحاراً استطاعوا النجاة.

وهذه قصة إحدى سفرات "المحمدي" الصعبة وليست الوحيدة في سنة ١٩٤٦م.

حريق المحمدي

وبينما كان "المحمدي" يستريح في الكويت أمام منزل أصحابه إذا به يشتعل، وفي دقائق أصبح كتلة من النار الملتهبة، ولم يعرف السبب الذي أدى إلى احتراقه. لقد اعتبره أصحابه قضاءً وقدرًا.

لقد سلم "المحمدي" من أهوال البحر ومصاعبه، ولكنه لم يسلم من النار التي أتت عليه وهو واقف على الساحل، فأحالته إلى كتلة من الرماد والمسامير

المحمدي الثاني

في عام ١٣٦٥هـ (الموافق ١٩٤٦م) اتفق التاجر عبدالله عبدالعزيز العثمان مع الأستاذ علي عبدالله عبدالرسول على صنع سفينة له من نوع البوم السفار، وتم الاتفاق على أن يقوم التاجر عبدالله العثمان بتوفير الأخشاب اللازمة لهذه السفينة بينما يقوم الأستاذ علي عبدالرسول بتوفير سبعة من القلايف لبناء هذه السفينة، على أن يدفع له مبلغاً من المال يعادل ٧٥٠٠ روبية.

وفي ٢٩ من ذي القعدة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦/١٠/٢٤م) تم مد قاعدة هذه السفينة، وفي ١٩ صفر ١٣٦٦هـ (١٩٤٧/١/١٢م) تم إنزالها للبحر لأول مرة.

وفي رسالة من عبدالله العثمان لابنه عيسى جاء أن هذه السفينة جاءت "على المطلب" (أي حسب المطلوب)، ولو أن صاحبها أراد أن تكون حمولتها أكثر من ٢٥٠٠ منّ لتتحقق له ذلك.

وفي ٦ ربيع أول ١٣٦٦هـ (١٩٤٧/١/٢٨م) سافرت هذه السفينة إلى البصرة في أول رحلة لها إلى الهند، وكان دقلها مؤقتاً حتى أحضر لها النوخذة عيسى العثمان دقلاً من الهند حسبما طلب منه والده عبدالله، كما أحضر لها خشبة مناسبة للعارضة الرئيسة (الفرمن العود).

مواصفات المحمدي الثاني

يبلغ طول قاعدة السفينة حوالي ٤٠ ذراعاً (٦٠ قدماً). ويروي الأستاذ علي عبدالرسول أن قاعدتها كانت من الخشب الفصص على غير العادة، حيث إن معظم خشب الكويت كانت قواعده من خشب الجنقلي. وكانت القاعدة بها بعض الانحناء في وسطها، ولكن الأستاذ علي استخدم طريقة أدت إلى استقامة القاعدة.

وبدأ العمل واكتمل بناء السفينة بعد شهرين، وبلغت حمولتها حوالي ٢٥٠٠ منّ (١٨٨ طناً) وكان ذلك في سنة ١٩٤٨. وأما الدقل العود فطوله ٤٨ ذراعاً (٧٢ قدماً)، وأما الفرمن العود فطوله ٤٥ ذراعاً (٦٧ قدماً) كما بلغ عرض السفينة حوالي ١٤ ذراعاً (٢١ قدماً)

وارتفاعها حتى السطح العلوي حوالي ٦.٥ أذرع (١٠ أقدام)، وأما ارتفاع "السببة" فهو ذراعان (٣ أقدام).

رحلات المحمدي الثاني

أول من قاد هذه السفينة في أولى رحلاتها النوخذة سعود السمييط ثم تسلمها صاحبها النوخذة عيسى العثمان وقادها حتى سنة ١٩٥٣. وخلال تلك السنوات زارت هذه السفينة معظم موانئ الهند وإفريقيا (السواحل).

وفي سنوات حمل الذهب من الهند وإليها (١٩٤٠ - ١٩٥٠م) وضعت داخل هذه السفينة ماكينة (محرك) بالإضافة إلى الأشرعة عليها، وأصبحت "شراكة" مع التاجر فهد المرزوق منذ عام ١٩٥٣، حيث ترك قيادتها النوخذة عيسى ليتسلمها نوخذة اسمه علي عبدالله.

وبعد سنوات من العمل في نقل الذهب إلى الهند تسلم قيادتها نوخذة آخر من خور "فكان"، وبسببه فقدت هذه السفينة حيث استولى عليها الهنود في ساحل الملبار الهندي عام ١٩٥٨م.

فتح الرحمن

في عام ١٩٣٩ طلب النوخذة عبداللطيف سليمان العثمان من صانع السفن الأستاذ حسين بن منصور أن يصنع له سفينة من نوع البوم السفار، فجاءت هذه السفينة كسابقتها "تيسير" والتي صنعها هذا الأستاذ من قبل، كأحد أفضل خشب الكويت، فقد بلغ حمل هذه السفينة حوالي ٤٠٠٠ من، وقد أعجب بها الأستاذ علي عبدالرسول ومدحها وأثنى على أستاذها حسين بن منصور.

رحلات فتح الرحمن

تسلم قيادة هذه السفينة النوخذة أحمد عبداللطيف العثمان الذي روى هذه الحادثة التي مرت عليه حين كان على قيادة هذه السفينة في سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٤١م) قائلاً:

"أبحرنا من ميناء "كوة" الهندي في طريقنا إلى بر عمان، وكنا عدة سفن منها "الداو" بقيادة النوخذة عبدالوهاب بن عبدالعزيز القطامي وأنا في سفينتي "فتح الرحمن"، وبوم محمد الجارالله وسفينة לנוخذة من أهالي قطر يدعى محمد ولد الخال.

وبعد مسيرة حوالي ٥ ساعات حل الظلام الوقت، وشاهدنا بوم بن جارالله وبوم ولد الخال في اتصال مع بعضهما البعض من خلال الإشارات الضوئية فظننت أنهما يودان العودة إلى ساحل الهند بعد أن اشتدت عليهما الرياح نظراً لصغر سفينتيهما، فلم نهتم بأمرهما كثيراً وتابعنا مسيرنا.

ولكن بعد مدة اتضح لنا الأمر، فقد كانت هناك غواصة (ألمانية أو يابانية) تراقبهما وهما يتصلان ببعضهما عن طريق الإشارات الضوئية، وبعد فترة كانت تسير تحت سطح الماء بين السفينتين، حتى ظهرت لهما وأطلقت عليهما النار فأغرقتهما، وركب البحارة في قارب "الماشوه" ووصلوا (عن طريق التجديف) إلى بلد شمال ولاية "كوة".

وهناك أخبرنا المسؤولين بما جرى لهما. أما نحن فلم نسمع عن هذه الحادثة إلا بعد وصولنا إلى مسقط، ولقد عرفت هذه الحادثة بطبعة ولد الخال.

استمر النوخذة أحمد العثمان في قيادة سفينته "فتح الرحمن" حتى عام ١٩٥١م حين باعها إلى أحد النواخذة من خور فكان، وكان الوساطة بينهما النوخذة راشد العسعوسي، فبيعت بمبلغ ٧١٠٠٠ روبية.

ولقد استخدم النوخذة الجديد هذه السفينة سنتين وفي الثالثة كان يحمل بضاعة من شط العرب، وقد وضع في "فتح الرحمن" محركاً لدفعه بدلاً من الشراع. ولما أبحر من شط العرب وأصبح بالقرب من ميناء بوشهر الإيراني دخلت الماء ولم يستطع بحارتها إنقاذها فغرقت هذه السفينة الجيدة عام ١٩٥٣م.

فتح الكريم والعثماني

كما امتلكت عائلة العثمان السفن التالية من نوع البوم السفار:

"فتح الكريم":

وهو في الأصل للنوخذة عبدالعزيز العثمان، وقد قام بقيادته النوخذة أحمد السبيعي لمدة ٣ سنوات، وكان يعمل في خدمة النقل الشراعي الكويتي في عام ١٩٢٨.

وقد عمل على البوم فتح الكريم السكوني محمد صالح خميس غانم الخشتي بالإضافة إلى البحار في فتح الكريم أيضاً عبدالرزاق الخشتي.

"العثماني":

وهو للنوخذة والتاجر عبدالوهاب عبدالعزيز العثمان، وقد قام بقيادته النوخذة صالح المهيني عام ١٩٤٣، كما قام بقيادته النوخذة يعقوب بشارة، وتبلغ حمولته ٢٦٠٠ من.

صناع خشب العثمان

(الأسنادفة)

إن صناعة ركوب البحر عملية تكاملية اشترك في إنجازها مجموعة من النجوم المضيئة في سماء تاريخ الكويت البحري.

وقد تحدثنا عن دور النواخذة، ونواخذة السفر الشراعي بالتحديد في الريادة البحرية الكويتية طوال القرنين السابقين، ولكنهم لم يكونوا ليؤدوا هذا الدور دون جهود مخلصه ومضنية من آخرين. إنهم الأستادية والقلايف البحارة بمختلف مستوياتهم الوظيفية على ظهر السفينة.

وفي هذا الكتاب سنستعين بما كتبه الباحث القدير د. يعقوب الحجي في كتابه "صناعة السفن الشراعية في الكويت"^(١)، وكذلك الباحث الأكاديمي المرحوم د. بدر الدين عباس الخصوصي في كتابه: "تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة"^(٢).

وتعرف صناعة السفن باسم "قلافة السفن"، و"قلافة" لفظة عربية ورد ذكرها في كتب اللغة^(٣): قلف السفينة أي خرز ألواحها بالليف، وجعل في خللها القار، والاسم القلافة، كما ورد أيضاً: قلف الشجرة أي نحى عنها لحاءها، والقلف والقلافة بمعنى القشر.

وتنسب "قلافة السفن" إلى "القلاف" الذي يقوم بتسوية الأخشاب ونجارتها وقلافتها، وهي عملية شاقة للغاية حيث يعمل القلافون في ظروف صعبة من طلوع الشمس إلى غروبها.

وينتظم في حرفة "قلافة السفن" عدد من العمال يشرف عليهم "رئيس القلايف" أو "الأستاد" الذي يقوم بتوجيه العمل بحكم خبرته في صناعة السفن، وهو بمثابة مهندس السفينة وواضع تصميمها وخطوطها الرئيسية بالفطرة والممارسة^(٤).

ولا تقتصر وظيفة "الأستاد" على بناء السفن فحسب، بل كانت تسند إليه مهمة إصلاحها كذلك، كما كان يعهد إليه بمرافقتها خلال رحلاتها الطويلة، لأن وجوده كان يشعر طاقمها بالأمان تجاه أية أخطار قد تصيب السفينة، ولذا كان "نواخذة" السفن يتنافسون على

(١) ص ١٦٧-١٩٠

(٢) بدر الدين عباس الخصوصي - تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة - الكويت

(٣) لسان العرب، القاموس المحيط، الجمهرة لابن دريد ج ٣ ص ١٥٤.

(4) David Howarth, Dhows, Quartet Books, London, P.54; ((Legacy of Sinbad: The wooden ships of Kuwait)), Irish/ Arab News, A Quarterly Newsletter of Irish Arab Society, Vol.5, No. 1, Summer, 1979, P.8.

اصطحاب "الأساتذة" المشهورين، وذلك في مقابل "أسهم" يحصل عليها "الأستاذ" تبلغ حوالي ٢٥٠ روبية^(١).

الأساتذة

وقد برز في الكويت عدد كبير من "الأساتذة" الذين كانت لهم شهرتهم ليس في الكويت فحسب، ولكن في منطقة الخليج العربي كذلك، مثل الحاج أحمد بن سليمان الذي يشيد به "ديكسون" وبأسرته المشهورة، كما ينوه بقدرته على عمل التصميمات المختلفة الخاصة بالقوارب، كما تشيد به ابنته "زهرة ديكسون" التي أقامت فترة طفولتها في الكويت عندما تقول:

".. إننا إذا مشينا في حوض بناء السفن الذي يملكه الحاج أحمد السلطان، رأينا العمال يقومون ببناء سفينة تعد أضخم السفن التي تصنع محلياً في الخليج.. (ذلك أن) الحاج أحمد يتمتع بشهرة واسعة في ميدان صناعة السفن.."^(٢).

القلاليف

يساعد الأستاذ في عمله مجموعة من بحاري السفينة ويسمون "القلاليف"، وهم الذين يقومون بتصنيع السفينة وإعداد خشبها، ومفردتها "القلاف".

ويقسم د. يعقوب الحجى أجيال صناع السفن إلى ثلاثة أقسام:

الجيل الأول: وهم الرعيل الأول من الصناع الذين قدموا إلى الكويت من البحرين ومسقط وغيرهما من موانئ الخليج فأحضروا معهم خبراتهم الطويلة في صناعة السفن الشراعية الخليجية. هؤلاء الرجال لا يُعرف الكثير عنهم في هذه الأيام، ويمكن أن نرجح إنهاء هذا الجيل في منتصف القرن التاسع عشر.

(١) المقابلة التي أجراها د. بدر الدين عباس الخصوصي مع الحاج خالد محمد شاهين الغانم بتاريخ

١٩٨١/٥/٢١م، وكذلك المقابلة التي أجراها مع الحاج حسن عبدالله عبدالرسول في ١٩٨١/٥/٢٨م.

(٢) د. محمد رشيد الفيل - الجغرافية التاريخية للكويت - دار لبنان للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٢ - ص ٣٨٥.

ولم يكن هؤلاء الرجال يصنعون البوم السفار، ولكنهم اشتهروا بصناعة البغلة وسفن الغوص على اللؤلؤ، وصيد الأسماك وسفن النقل الساحلي والخليجي، التي كانت تصنع بحنكة وإتقان، بمعدل لوح واحد أو اثنين في اليوم. وكانت سفنهم، وبخاصة البغلة، آية في الجمال.

ولقد تتلمذ على هؤلاء الصناع جيل آخر من الصناع الكويتيين استمر من منتصف القرن التاسع عشر حتى الثلث الأول من القرن العشرين، وبذلك يكون هؤلاء من جيل المخضرمين، حيث إن بعضهم صنع العديد من البغلات والأبوام كذلك، ولمع منهم أفضل من عرفته الكويت من صناع سفن. ولقد عرف هذا الجيل المخضرم أيضاً بإتقان العمل، كما كانوا يصنعون السفن كبيرة الحجم - للسفر إلى الهند وإفريقيا - تلك التي تصل حمولتها أحياناً إلى ٤٠٠ طن.

ولقد قام هذا الجيل على إعداد الجيل الثالث والأخير من صناع السفن الكويتيين وتدريبهم، وهو الجيل الذي امتاز بالسرعة في إنجاز العمل وبجمال الصنعة. إضافة إلى حرصه على بناء السفن ذات القدرات الملاحية الجيدة، وارتقى أفرادها بالصناعة حتى عرفت الكويت بفضلهم أنها البلد الذي يصنع البوم السفار، كما لا يصنعه بلد سواها.

كما صنعوا اليخوت الجميلة لحكام الكويت، والسفن ذات المحركات (اللنجات) وسفن الغوص على اللؤلؤ وجميع أنواع السفن التي أثبت البوم السفار أنه أفضل منها استخداماً في البحار المتلاطمة، وأقل تكلفة وأسرع إنجازاً. ولقد تفنن هذا الجيل في صنع البوم السفار.

ويجدر بالذكر أن هؤلاء (الأستادية) اعتمدوا في عملهم على مجموعة من القلائف الكويتيين الذين يعدون بحق أفضل قلائف الخليج قاطبة من حيث الخبرة وإتقان العمل، وكان كل سفينة يبنونها هي ملك لهم. وقد كانوا يتنافسون ويتسابقون فيما بينهم فلا يشعرون بانتهاء يومهم الطويل (منذ شروق الشمس وحتى الغروب) إلا بعد سماع أذان المغرب ينطلق من فوق المآذن المنتشرة على ساحل مدينة الكويت.

وبعد هذه المقدمة عن الأستادة والقلائف وأجيالهم الثلاثة، لعله من المناسب أن نعرّف بأشهر ثلاثة أستاذة قاموا بصنع أشهر خشب العثمان.

حجي سلمان الأستاذ

هو علم من أعلام هذه الصناعة، وأحد أفضل صانعي السفن من جيل المخضرمين، صنع بعضاً من أفضل وأشهر "خشب" الكويت مثل بوم "بن رشدان" وبوم "ولد مبارك" وبوم "النامسة" وبوم "موافج" و"وحولي" وغيرهم. وكان كبار تجار الكويت يحرصون على أن تكون بعض سفنهم من تصميمه وصنعه.

ومات ولم يقل الطلب عليه وعلى فنه، ولم تزد سمعته إلا علواً وتقديراً، وترك جيلاً من الصناع درب بعضهم على أصول الصناعة فأصبحوا بدورهم "أستادية" مشهورين في صناعة السفن الكويتية.

ولد حجي سلمان في الكويت حوالي عام ١٨٤٠م، ولم يعرف من علمه فنون الصناعة، ولكنه تعلم بلا شك المبادئ الأولية من الصناع الذين سبقوه، وكان ذلك كافياً لجعل النوخة الكويتية أحمد بن ناصر يصحبه معه في سفينته أثناء السفر.

ولا شك في أن النوخة أحمد بن ناصر لاحظ النبوغ على الشاب سلمان وخبرته في شتى الظروف، وهذا ما جعله يطلب منه حين عودتهما للكويت أن يصنع له بغلة جديدة. لكن حجي سلمان فوجئ بالطلب، ورد بأنه لم يصنع بغلة من قبل، وربما كان الأمر عسيراً عليه. لكن النوخة ابن ناصر أصر على أنه في استطاعته ذلك، وقدم له عربوناً لبدء الصناعة. لكن حجي سلمان طلب مهلة لكي يتشاور مع غيره من القلائف، الذين سرعان ما شجعوه على البدء بالعمل ووعده بالمساعدة.

جمع حجي سلمان عدداً من القلائف وبدأ في مد قاعدة السفينة ثم الأميال وبعدها بدأ جسد السفينة في التكوّن، ثم بدت الرقعة جميلة بزخارفها وشبابيكها الخمسة. وبعد عدة أشهر كانت جاهزة للإنزال إلى البحر، وكان إعجاب النوخة أحمد بن ناصر بها كبيراً.

وبعد أن تم بناء هذه البغلة بدأت سمعة سلمان كأستاذ تطرق آذان كبار النواخذة والتجار الكويتيين، وبدأ الطلب عليه يزداد لصنع البغال لهم. وحينما قل الطلب على البغال بعد أن حل اليوم محلها، بدأ حجي سلمان في صنع الأبوام.

وحدث أن سمع عنه التاجر الكويتي حمد الصقر فأوصاه أن يصنع له سفينة من نوع البوم (ابن رشدان) التي أثبتت أنها إحدى أفضل السفن التي صنعت من نوع البوم في الكويت أو في غيرها من الموانئ الخليجية الأخرى.

وبعد أن لبي "ابن رشدان" الرغبة، طلب منه التاجر حمد الصقر أن يصنع له بوم "النامسة"، كما قام بصنع بوم "موافج" للعثمان، وبوم "حولي" للعسوسي، وكان عمره عندما صنع "ابن رشدان" يقارب الخمسين عاماً.

واستمر حجي سلمان في صنع "الأبوام" وسفن الغوص مثل السناييك والجوالبيت وغيرها، وكلها جديرة بالشهرة والإعجاب. وكانت آخر سفينة صنعها هي بوم "ولد مبارك" التي قال عندما كان يصنعها إنها آخر سفينة يصنعها.

وعندما سافر "بوم ولد مبارك" في رحلته الأولى إلى شط العرب توفي حجي سلمان الأستاذ، ويكفي هذا الأستاذ شهرة أن كل من رأى "بوم ولد مبارك" من النواخذة والأستادية قال إنه من أفضل ما يمكن أن يصنع من الأبوام.

وكان حجي سلمان الأستاذ رجلاً طويلاً، له لحية بيضاء قصيرة، وكان يلف الغترة على رأسه ويمشي على طول الساحل والخيط في يده والطباشير في جيبه، يضع العلامات للقليل، وينتقي لها الألواح المناسبة، ويصمم أكثر من سفينة في نفس الوقت، وكان التاجر حمد الصقر ينزله منزلة خاصة ويكرمه ويخصص له وجبة إفطار في ديوانه كل يوم عندما كان يصنع السفن.

ويروي الأستاذ علي عبدالرسول أنه ذات مرة، وبينما كان حجي سلمان يقوم بصنع بوم "ولد مبارك" أقبل عليه حمد الصقر وسأله عما إذا كان في استطاعته أن يقوم بقطع وتجهيز "الصوارات" أو الأعمدة التي يرتكز عليها سطح السفينة، قبل أن يكتمل بناء جسد السفينة الخارجي، فأجابه حجي سلمان بالإيجاب، مع أنه ليس من السهل على أي صانع أن يصمم جسد السفينة بواسطة النظر بحيث يطابق عرض السفينة طول الصوارات التي أعدت مسبقاً.

وما إن اكتمل بناء السفينة حتى طلب حجي سلمان من القلائف إحضار الصوارات ووضعها في أماكنها، ولقد كانت دهشة التاجر حمد الصقر وغيره كبيرة عندما وجدوا أن طول كل واحد من الصوارات بحسب عرض السفينة تماماً.

درب حجي سلمان صناعاً أصبحوا فيما بعد من كبار صناع السفن الكويتيين، مثل ابنه أحمد بن سلمان والأستاذ عبدالله بن محمد وابنه الأستاذ محمد.

وفي سنة تسمى في تاريخ الكويت "سنة الرحمة" - حيث اجتاح المدينة وباء الطاعون عام ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) - توفي حجي سلمان الأستاذ عن عمر يقارب الثمانين عاماً بعد أن ترك لنفسه مكانة باقية في تاريخ صناعة السفن الكويتية.

حسين بن منصور

قمة من القمم في تاريخ صناعة السفن الكويتية من الجيل الوسط أو المخضرمين، تعلم على يد أحد كبار صنّاع السفن الكويتية (الأستاذ صالح بن راشد)، وصنع واحدة من أشهر وأجود "خشب" الكويت قاطبة وهو البوم "تيسير" للعثمان.

وكان يسافر في بداية شبابه على "خشب" تابعة لآل عبدالجليل المعروفين بامتلاكهم العديد من البغلات المستخدمة في التجارة بين الكويت والهند، ثم ما لبث أن ذاع صيته في الكويت وأخذ يصنع السفن الكبيرة والصغيرة للعثمان، حتى عرف بأنه "أستاذ العثمان"، كما صنع العديد من السفن للتاجر فلاح الخرافي، إضافة إلى سفن الغوص الكثيرة.

ولد حسين بن منصور في حوالي سنة ١٨٧٠م، وعندما كان يصنع البوم "تيسير" كان عمره يقارب خمسة وأربعين عاماً. وهو نحيف الجسم، هادئ الطباع، قليل الكلام. اشتهر بجودة الصنعة وبحرصه على الاقتصاد في استخدام الأخشاب.

ولقد روى النوخذة عبدالوهاب العثمان أنه أخبر الأستاذ حسين بن منصور ذات مرة أنه لا توجد لديهم "كروة" لكي يستخدمها في صنع إحدى سفنهم فرد عليه الأستاذ حسين بن منصور بكل هدوء وهو يضرب بالفأس قائلاً: "توجد كروة .. توجد كروة في العمارة".

ولما ذهب النوخذة عبدالوهاب إلى العمارة ورأى الكروة رجع إلى الأستاذ حسين قائلاً: "إنها كروة لا تصلح"، فرد عليه الأستاذ حسين قائلاً: "سوف أجعلها تصلح".

ويضيف النوخذة عبدالوهاب: وبعد أن تم ربط الكروة في جسد السفينة، نظرت إليها، وإذا بي أحس أنها كروة جيدة، وليست بالكروة التي رأيتها في العمارة.

وأما السفينة الصغيرة (الماشوه) التي صنعها الأستاذ حسين بن منصور للتاجر فلاح الخرافي فقد كانت من بقايا أخشاب (ظهور) لم يشأ فلاح الخرافي أن يبيعهما وقوداً للمنازل، بعد أن ظن أحد الصناع أنها لا تكفي لصنع ماشوه.

ولقد كان الأستاذ حسين بن منصور، حلو المعشر وعذب الحديث، يتجمع حوله العديد من الصناع والقلاليف للاستماع إليه.

استمر الأستاذ حسين بن منصور يصنع الأخشاب الجيدة، الواحدة تلو الأخرى للسفر وللغوص على اللؤلؤ حتى توفي في الكويت عام ١٩٤٠م بعد أن عمّر حوالي سبعين عاماً، ولم يرث أحد فنه وأصالته.

علي عبدالله عبدالرسول

آخر الكبار من صنّاع السفن الكويتيين، ومن الصنّاع القلائل الذين تعلموا فنون هذه الصناعة عن العديد من كبارها، فقد عمل سنين طويلة مع الأستاذ أحمد بن سلمان ومع الأستاذ عبدالله بن محمد وابنه محمد بن عبدالله، كما تعلم بعض الوقت من الأستاذ علي بن حسن والأستاذ حمود بن حسن، عندما كان هذا الأخير يقوم بصنع البوم "كأكّة" في الهند، فنشأ يملك خبرات جيدة ومتنوعة في صناعة السفن أكسبته مكانة مرموقة في تاريخ صناعة السفن الكويتية.

ولا يكفي أن نطلق على هذا الرجل لقب أستاذ كبير فقط لأنه - كذلك - إنسان كبير عُرف بمحبته للآخرين واحترامهم وعدم التقوه بكلمة واحدة تعييبهم. إنه إنسان ذو نفس عالية وأخلاقه رفيعة، وتواضعه الجم جعل اسمه على لسان كل من له علاقة بالبحر والسفن والسفر في الكويت وفي العديد من موانئ الخليج.

كان حجي علي عبدالرسول ولداً يلعب مع الأولاد في حيهم (فريج البحارنة) عندما شاهده الأستاذ أحمد بن سلمان، الذي أنبهه على اللعب مع الصغار قائلاً له: "لماذا تلعب مع الأطفال وأنت شاب كبير؟! لماذا لا تأتي عندي في العماره وتتعلم؟! فهذا خير لك من اللعب مع الأطفال".

يقول الأستاذ علي عبدالرسول: "إن كلمات الأستاذ أحمد هذه تركت في نفسي أثراً كبيراً فعدت بعد ذلك إلى المنزل وأنا حزين، وفي اليوم التالي ذهبت إلى "العمارة" حيث وضع الأستاذ أحمد في يدي "مجدحاً" وطلب مني التمرن على استخدامه.

وبعد ستة أشهر استطعت أن أدق المسامير في الألواح، وما إن أكملت السنة الأولى إلا وأنا قلاف أعمل فوق السطح مع القلايف". وكان حجي أحمد في ذلك الوقت يرقبه عن كثب، وكأنه كان يحس بأن هناك طاقة كامنة في ذلك الشاب الصغير ستؤهله في يوم من الأيام لكي يصبح أستاذاً له مكانته.

ومكث الشاب علي يتمرن على الصناعة على يد الأستاذ أحمد بن سلمان مدة تقارب ١١ سنة تعلم خلالها كل ما وسعه تعلمه من ذلك الأستاذ الكبير. ويروي أنه عندما كان يقوم بصنع جالبوت عمارة حجي أحمد في إحدى السنوات، أقبل عليه حجي أحمد وأخذ يتفحص الجالبوت، ثم قال له بعد ذلك "هذه جالبوت عظيمة .. أنا لا أستطيع أن أصنع مثلها". وكان ذلك بقصد التشجيع له بالطبع.

كما روى أنه في إحدى السنوات، وحينما كان يعمل في عمارة حجي أحمد ترك العمل فجأة وذهب إلى الساحل حيث وقف الرجال والنساء والأطفال ينتظرون عودة سفن الغوص بعد انتهاء الموسم (القفال). ولم يستطع أن يقاوم حبه لرؤية السفن الكثيرة عائدة إلى المدينة، ولما رآه الأستاذ أحمد في اليوم التالي سأله عن سبب تركه للعمل فأجابته: "لم أستطع أن أقاوم نفسي .. لقد جذبني القفال إليه"، فابتسم حجي أحمد ولم يعاتبه على ذلك.

وترك عمارة حجي أحمد بعد ذلك، وعمل مع الأستاذ عبدالله بن محمد، كما سافر لمدة سنتين مع النوخذة جاسم المبارك إلى الهند في بوم "نايف"؛ حيث عمل هناك مدة قصيرة مع

الأستاذ حمود بن حسن. ولقد استفاد كثيراً من سفراته هذه، حيث زادت خبرته في صنع السفن بحسب ما تتطلبه طبيعة الإبحار في بحر العرب والخليج.

ثم عمل مع الأستاذ محمد بن عبدالله عندما كان يصنع السفينة المشهورة "المهلب" في سنة ١٩٣٧، وفي تلك الأثناء، أعجب بعمله التاجر ثنيان الغانم الذي طلب منه صنع سفينة له (تشالة) لنقل الصخور إلى الساحل. لكن حجي علي تردد قائلاً إنه لم يسبق له أن صنع سفينة كبيرة، غير أن ثنيان شجعه قائلاً إنه سوف يوصي الأستاذ أحمد بن سلمان بالمرور عليه والإشراف على عمله.

وبدأ العمل وأخذ حجي يمر عليه ويشجعه ويرشده، حتى اكتمل بناء السفينة، فأعجبت ثنيان الذي طلب منه صنع سفينة أخرى مثلها له.

ثم جاء الاختبار النهائي للشاب "علي" حين طلب منه ثنيان صنع سفينة له من البوم متوسطة الحجم. وقبل الشاب الطلب وبدأ العمل، وكان الأستاذ أحمد يزوره من حين لآخر، وكان يقول له: "شغلك جيد.. داوم على استخدام الهنداسة .. لا تدعها تسقط من يدك..".

وانتهى بناء السفينة فكانت على أحسن ما يكون وعرفت باسم بوم "فتح الخير"، وكانت من السفن الجيدة الصنع و"الطويلة العمر" حيث سلمت من الضياع. وما زالت معروضة في معرض السفن الشراعية الكويتية.

وتوالت عليه الطلبات لصنع الأبوام، فصنع بوم "المتنى" لعبداللطيف محمد ثنيان، وبوم "اليارديلة" وبوم "الوسمي" لثنيان الغانم وأخيه محمد، وبوماً آخر للمرزوق وغيرها من السفن.

وجاءه الناس من مختلف الموانئ الخليجية يطلبون منه بناء سفن لهم، فكان يعطي خير ما عنده من فن ومهارة. وفي عام ١٩٧٩م شاهد أحد القلائف لا يحسن دق مسمار في لوح فأنبه قائلاً: "اضرب مسمارك جيداً، فأنا قد استلمت من صاحب السفينة مالاً ولم أستلم منه حصي".

وفي عام ١٩٦٠م انتقل الأستاذ علي عبدالرسول مع مجموعة من القلائف إلى "عمائر" لهم خارج مدينة الكويت في قرية الدوحة، وهناك في عمارته قام بصنع العشرات من سفن القطاعة وسفن صيد الأسماك.

وحيث زارت الكويت الملكة إليزابيث - ملكة بريطانيا - في فبراير من عام ١٩٧٩ قامت بزيارة لقرية الدوحة حيث استقبلها الأستاذ علي عبدالرسول في عمارته وقدم لها الحلوى والقهوة، وتحدث لها عن طريقة أهل الكويت في صنع السفن.

وفي عام ١٩٨٠م كلفه صاحب السمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد بصنع يخت خشبي له، فجاها هذا اليخت تحفة فنية، وهو في الواقع من أجمل ما صنع من يخوت في الكويت.

ثم فاجأه الغزو العراقي عام ١٩٩٠، وصمد في منزله مع الصامدين، وتحمل إهانات الغزاة بقوة إيمانه وصبره حتى من الله على الكويت بالتحريم، فعاد ديوانه عامراً برجاله.

وفي عام ١٩٩٤م تمكن د. يعقوب يوسف الحجري من العثور على البوم الكويتي "فتح الخير"، وهو أول سفينة من نوع البوم قام بصنعها الأستاذ علي عبدالرسول، وأعيدت إلى الكويت وقام الأستاذ علي بترميمها بمساعدة أخيه الأستاذ حسن.

ولقد كانت فرحة الأستاذ علي بهذه السفينة كبيرة. ولما أعدت لزيارة صاحب السمو أمير البلاد، فاجأه القدر المحتوم فجر الأربعاء ١٢/٦/١٩٩٥م، عن عمر يناهز التسعين عاماً، فكانت الخسارة به كبيرة لا تعوض.